حائزة جائزة دبلن الأدبيّة العالمية
وجائزة الاتحاد الأوروبي للآداب

مدينة بوهاين

كيفن باري

مكتبة 496

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة | 496

مدينة
بوهاين

كيفن باري

مكتبة | 496

مدينة بوهاين

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

٢٠١٩ ٨ ٩

t.me/ktabrwaya مكتبة

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٨

ISBN: 978-9953-88-966-5

Originally published as: **City of Bohane.**

Copyright © Kevin Barry, 2011

شكر خاص لمؤسسة Literature Ireland في دبلن، إيرلندا،
التي دعمت ترجمة هذه الرواية إلى العربية.

LITERATURE IRELAND
Promoting and Translating Irish Writing

www.literatureireland.com
info@literatureireland.com

ترجمة: فاديا عبدوش

تحرير: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

الإهداء ٧

القسم الأوّل: تشرين الأوّل............................ ٩

طبيعة الاضطراب ١١

عودة «غانت» ٢٣

زواج ٣٤

اجتماع في رايزس ٤١

السائلان في أليادوس ٤٨

موعد بيغ نوثين ٦٢

الزمن الضائع: قصة حبّ ٧٣

ليلة في نوثين................................... ٨٠

غيرلي ٩١

بلهجة سموكتاون ٩٨

رسالة غانت إلى ماكو ١٠٧

من يدير الأمور؟ ١١١

القسم الثاني: كانون الأول........................... ١١٩

المشهد من مقرّ غيرلي الشاهق...................... ١٢١

الميدان ٩٨ .... ١٢٩

حساء السلطعون الأسود ١٣٩

وولفي: ولاءاته.................................. ١٤٧

اليوم الأقصر ١٥٦

النور الذي لا ينطفئ أبداً.......................... ١٧٣

لوغان وفاكر يلتقيان غجر الرمال........................ ١٧٦
داخل قصر بوفيستا ١٨٦
'العداء' ١٩٤
الرسالة التي تركَتها ماكو للوغان ٢٠٠
الغرفة المظلمة........................ ٢٠١
٢٢ كانون الأول، الساعة ١٢:٠١ بعد منتصف الليل ٢٠٧

القسم الثالث: نيسان **٢١٥**
نحو مدينة الفساد........................ ٢١٧
العبء........................ ٢٣٠
جمعية بوهاين للأفلام القديمة والتاريخية........................ ٢٣٦
الرؤية من سنّ الخمسين ٢٤٠
المؤامرة في سموكتاون ٢٤٤
ذراع القانون........................ ٢٥٠
كل أيامنا الماضية ٢٥٦
وولفي مشغول البال ٢٦٥
السوبر ستار جيني تشينغ........................ ٢٧١
الخلافة ٢٧٤
في جادّة ضفّة النهر........................ ٢٧٨
معضلة ماكو........................ ٢٨٦
كلام عن حلم ٢٨٩
حب المجير ٢٩٢
رسالة لوغان إلى ماكو........................ ٢٩٨
في وقت متأخر في حانة تومي........................ ٣٠٠

القسم الرابع: ليلة مهرجان آب **٣١١**

إلى أوليفيا سميث

القسم الأوّل

... تشرين الأوّل ...

طبيعة الاضطراب

t.me/ktabrwaya مكتبة

متاعبنا كلّها مصدرها ذاك النهر. لا خلاف في ذلك: الفساد الذي يلوّث هواء المدينة فسادٌ يتصاعد من ذلك النهر. نحن نتحدّث عن نهر «بوهاين». مياه سوداء خبيثة تتدفّق هادرة من أراضي «بيغ نوثين» القفراء القاحلة، انبثقت عنها المدينة وحملت اسمها: مدينة بوهاين.

راح يسير على الرصيف مستنشقاً نسيم النهر الناعم الخبيث. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل على ضفاف نهر بوهاين. وقع خطواته منتظمٌ، إيقاع نعل حذائه هادئٌ بطيء على حجر الطريق. مصابيح الرصيف تتوهّج في الظلام بضياء أخضر ضبابيّ كنور حلم حزين. هدير مياه النهر يمثّل لـ «هارتنت» الدم الجاري في عروقه. وفي حين كان يعبر ساحة الباعة راحت كلاب الحراسة تطلق نوبات نباح على طول واجهة النهر. مشهد الكلاب مروّع: وبر رقابها متجمّع منتصب وعيونها صفراء شاحبة.

أنبأ نباح الكلاب بقدومه. كانت الشرطة تراقبه لكن عن بعد. شرطيان ضخمان يسقيان حصانيهما من حفرة ريّ في «سموكتاون»، خرجا للتو من مشهد جريمة قتل.

قال أحدهما: «هل ترى ما أرى؟ إنه «الأمهق» ابن الساقطة».

فأجاب الآخر: «يمكنك أن تضبط ساعتك على مروره اليومي».

أطلق عليه البعض لقب الأمهقَ، وناداه آخرون بـ«الطويل»، وهو مَن يسيطر على «هارتنت فانسي».

انعطف عن الرصيف، ومشى متوغّلاً في حيّ «باك ترايس»، وحيّ «بوهاين ترايس» السيئ السمعة. إنه متاهة شرّيرة شرّيرة، شبكة من الشوارع لا سبيل إلى معرفتها. بدا من سكّان ذاك الحيّ، شاب أنيق يلتحف كنزة كرومبي فاخرة، يلقيها بشيء من اللامبالاة على كتفيه، فوق بزّة إيطاليّة رمادية شاحبة من صوف الموهير. فمه الممتلئ بالأسنان أشبه بمقبرة مخرّبة، لكن لكلّ منّا معاناته الخاصة. وقع خطواته تصدره جزمة برتغاليّة خيطت باليد، وهو وقع قويّ يشي بالثقة، وينمّ عن وفرة المال، التي أحدثته.

ثروته هذه جناها بشق النفس... يا للقصص التي تناقلناها هنا في بوهاين عن «لوغان هارتنت».

راحت الميادين الصغيرة العفنة والكريهة جداً من حيّ «ترايس» تنفتح أمام لوغان فجأة كشهيقٍ لاهث. وكان يعبرها الواحدة تلو الأخرى. في ساعات الصباح الأولى، كنت لتجد أشكالاً غريبة من البشر كلّما توغّلت في حيّ ترايس. يخفضون عيونهم عندما يمرّ، يحدّقون إلى أصابع أقدامهم وأكياسهم المملوءة بالنبيذ الداكن. لا أحد ينظر في عينيّ الطويل إذا كان الخيار في يده. إنه لأمر غريب، لكننا كنا نشعر بالخوف منه، وبالفخر به في الوقت عينه. فكما يُقال

في بوهاين، الرجل متماسك، مسيطر على نفسه. العزّة بادية عليه، فهو يسير منتصب القامة، لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً، بل يحدّق دائماً أمامه مباشرة. كتفاه مرتدّتان إلى الوراءِ كجنرال في الجيش. تابع سيره في شبكة الأزقّة المتشابكة والزواريب الضيّقة التي تشكّل حيّ ترايس. وكنت لتسمع صوت صفعة، ثم رفعة، ثم صفعة، ثم رفعة الجلد البرتغاليّ على حجارة الشوارع الخلفيّة.

نعم، لم يكن لوغان يشعر بالغربة قط وهو يسير متقدّماً في تلك المتاهة. لم يكن يخشى الظلال، كان يعرف طبيعة المكان وكل الْتِفافةٍ وحنية فيه.

كانت «جيني تشينغ» تنتظر تحت شجرة الزعرور في الميدان ٩٨.

دنا من الفتاة وكانت خطوته كافية: لم تكن تحتاج إلى النظر إليه لتعرف أنه هو. ومع ذلك، ابتسم لها وكانت ابتسامته تنمّ عن تجهّم وعذاب طويل. كما لو أنه يقول: هل تريدين المزيد يا جيني؟ جلس على المقعد إلى جانبها، ووضع يده على يدها الصغيرة الرقيقة القاتلة.

أسماء عشّاق من مواسم حبّ آفلة كانت محفورة على خشب المقعد.

قال: «حسناً يا صغيرة، ما الأمر؟».

فأجابت: «ثمّة كلام مقلق في سموكتاون عن مقتل أحد «الكيوساك» من «الرايزس».

- وهل استحقّ ذلك، يا جين؟

- ألا يستحق الكيوساك ذلك دائماً؟

أطبق لوغان شفتيه حتى أصبحتا رقيقتين جداً، موافقاً على كلامها.

- لطالما كان الكيوساك غير شرفاء يا فتاة.

بلغت جيني السابعة عشرة من عمرها في تلك السنة، لكنها كانت تتخطّى سنّها نضجاً وحكمة. هي فتاة حذرة، وتبدو ظريفة جداً ببنطلونها المنخفض الخصر وحذائها المزدوج النعل. أمّا شعرها الممشّح، فقد جُمع في كعكة أشبه بثمرة الأناناس في أعلى رأسها. أخرجت عقب سيجار رفيع ملفوف باليد من جيب على صدر سترتها الفينيلية البيضاء ذات السحّاب الطّويل، وأشعلته.

«لدي الآن ما يكفي من المشكلات الناجمة عن انشغالي بما وراء جسر المشاة، سيد هارتنت».

«أعلم ذلك».

«سينتقم الكيوساك انتقاماً شنيعاً ووشيكاً. وإذا كنت تسألني، فآخر ما تحتاج إليه سموكتاون هو أن ترى مجموعات كبيرة منهم تزحف نحوها من أعلى الرايزس».

«الكيوساك ماهرون دائماً في الكلام يا جيني».

«ما أخشاه هو أكثر من الكلام يا هارتنت. يقولون إنهم قد أخذوا في الآونة الأخيرة ثلاثة مبانٍ في الرايزس وكتبوا في أعلاها «كيوساك». هذا يعني أن لدينا ثلاثة مبانٍ تعجّ بالأوباش المستعدين للقتال حتى الموت. هل تفهمني؟».

«أفهمك تماماً يا جيني».

إنه لمن تقاليد بوهاين المحبّبة أن تتخاصم عائلات من الرايزس في الجهة الشمالية مع أخرى من باك ترايس. وكان لوغان يحكم الترايس، بل كان بمثابة دماء باك ترايس، وعظامها، وكان نفوذه أشرس نفوذ في المدينة تلك السنة. لكن ها هم الكيوساك يزدادون قوة وجرأة في الرايزس.

«ماذا علينا أن نفعل الآن يا لوغان؟».

كانت جيني تتمتّع بحنكة فريدة. لقد تربّت عليها، فآل «تشينغ» من أقدم العائلات في سموكتاون. وسموكتاون عاهرات، وحشيشة، وصالات فيتشتية وحانات رخيصة، وأزقة لتعاطي الإبر المخدّرة، وصالات تعاطٍ، ومطاعم صينيّة. كانت سموكتاون تقع في الناحية الأخرى من جسر المشاة مقابل باك ترايس، على مسافة من نهر بوهاين، وكان هارتنت فانسي يسيطر على سموكتاون أيضاً. لكن الكيوساك كانوا يتمدّدون في اتجاهها.

«أرى أن نتحرّك ضدهم بسرعة يا عزيزتي جيني».

«لأنهم سينزلون في أي حال، أليس كذلك؟»

«لا شكّ في ذلك يا فتاتي. سيهبطون علينا وهم يعوون. لذلك يُستحسن أن ندفعهم إلى القيام بخطوة سريعة».

راحت تُفكّر في الخطّة.

«أتعني أن نتحرّك نحن قبل أن يكونوا قد استعدوا تماماً لمهاجمتنا؟ نطعنهم في عنفوانهم. وماذا ستفعل «فانسي»؟ هل

ستنتقم، وتكون العين بالعين والسنّ بالسنّ يا ابن العمّ، أم أنها ستجبن؟».

مكتبة t.me/ktabrwaya

ارتسمت ابتسامة على وجه لوغان.

«أنت فتاة استثنائية يا جيني تشينغ».

أجفلت لسماع هذا الإطراء.

«لطف منك أن تقول ذلك يا هارتنت. طبعاً لا ينبغي للكيوساك أن يسبّبوا أي خوف لأمثالنا في الأساس، أليس كذلك؟ إنهم مجرّد حثالة من الرايزس وقد أصبحوا جسورين ووقحين، أليس كذلك؟ كيف يرسلون أوباشاً إلى سموكتاون؟ ما الذي جعلهم يتجرؤون فجأة على ذلك؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا».

«ما الذي تقصدينه تحديداً يا جيني؟».

«لا بدّ أنهم قد اشتمّوا، من دون شك، رائحة وهن ما، أليس كذلك؟ تُرى هل اعتبروا أن أفكارك قد ابتعدت عن شؤون فانسي؟».

«وما الذي قد يقلقني غير فانسي برأيك؟».

أدارت جيني نظرها نحوه بهدوء وحدّقت إلى عينيه.

«ليس هذا من شأني يا سيد هارتنت».

نهض عن المقعد مبتسماً. لن يتسلّل إلى يد الفتاة أي ذرّة من الدفء ما دامت يده موضوعة عليها.

قالت: «إذاً أنت تريد أن تؤذي عدداً أكبر من الكيوساك؟».

التفت وراءه ورمقها بنظرة سريعة، وكانت النظرة هي الجواب.

«هل أنت واثق بذلك هارتنت؟ ستشهد بوهاين شتاءً دموياً آخر، أليس كذلك؟».

ابتسم، وكانت ابتسامته رمادية بقدر ما استطاع.

«آه، إن ذلك سيجعل الليالي الطويلة تمرّ كلمح البصر».

تذكّر لوغان هارتنت أن عليه إبقاء نظره على ابنة تشينغ. ففي مدينة صغيرة تكثر فيها الجرائم إلى هذا الحدّ لا بدّ من أن ينتبه المرء لجميع الجهات. تقدّم مخترقاً عتمة باك ترايس الكئيبة. شوارع المنازل القديمة ضيّقة، منحدرة، إضاءتها شاحبة، وجروف المدينة العالية تمنح القاطن في ترايس إحساساً بأنه في مكان مغلق. بُنيت مدينتنا على طول سلسلة من هذه الجروف التي تحاذي نهر «بوهاين» وتشكّل خوره. كلّ الطرق تنحدر نحو النهر. هو تدفّق أسود سريع الحركة في آخر كل شارع تقريباً، أسود كمياه المستنقعات التي تغذّيه. وعلى بعد أميال قليلة ينعطف النهر حول آخر الجروف، وهناك يدخل المحيط الهامس. لا يمكنك رؤية المحيط من المدينة، إلا أنك تسمع دائماً هديراً منعشاً يشي بقربه، صوتاً أجش في الهواء، شيئاً كالبحّة.

كلّ شيء قاتم كما يستطيع غربُ إيرلندا وحده أن يكون. انعطف هارتنت، زعيم فانسي، لينزل في زقاق قصَدَه، ورمى نظرة خاطفةً خلفه، بحذر شديد؛ ثم انسلّ إلى مدخل محدّد. نقر جرساً نحاسيّاً ثلاث مرات. توقّف برهةً، ونقره مرّتين أخريين. لاحظ عنكبوتاً تهبط

من أعلى إطار الباب، فاستمتع بسقوطها الموزون والمتدرّج، وفكّر في أنّ الوقت قد بدأ يداهم تلك الصغيرة. فقد حلّ شهر تشرين الأول والمدينة كئيبة، بنّية المزاج. سُمعت حركةٌ مُهَرِولةٌ في الداخل، ورُفع غطاء ثقب الباب الذي امتلأ بحدقة مستديرة. أجفلت العين للحظة، ثمّ طقطق القفل وانفكّ وفُتح الباب المعدنيّ الأحمر مُحدثاً صريراً: كاااررررينك! على طول مفصّلاته. فكّر لوغان في أنّ المفصّلات بحاجة إلى تشحيم، بينما ظهر الساقي «تومي»: رجل قصير القامة، له شعر في صدره وجسمه ممتلئ مستدير. انحنى مرةً للتحيّة وهمس عبارة احترام.

«خمّنتُ أنّك أنت من أوصل السيد هارتنت، فقد كاد يحين الوقت».

«يُقال إنّ الرتابة جارة الجنون يا تومي».

«تُقال أمور كثيرة، سيد هارتنت».

أضاء ابتسامتَه الباهتة للساقي. دخل ودفع الباب بقوّة إلى الوراء ليغلقه، فطقطق مقفلاً خلفه: كراااانك! وسار الرجلان في ممرّ ضيّق، تعرّقت جُدُره الحمراء الزاهية كجُدُر ملهى ليلي، فقد كان المبنى في السابق ملهًى فعلاً لكنّه حُوّل منذ وقت طويل.

ولّت أيام الملاهي الليلية في بوهاين.

«وكيف حال زوجتك سيد هارتنت؟».

«إنّها بخير يا تومي، ولِمَ لا تكون بخير؟».

فجأةً طغى توتّر على ابتسامة لوغان، أرعب الساقي. وجعله يتساءل أيضاً.

«إنّه مجرد سؤال سيد هارتنت».

«حسناً، شكراً جزيلاً على سؤالك تومي. سأحرص على نقل تحيّاتك إليها».

كان البريق الذي غشّى عينيه لحظةً غريباً مشوّهاً. التوى الممرّ وانعطف وفُتح على حجرة خافتة الإضاءة تشوّش سكونها أصوات ليليّة خافتة.

كان هذا نادي تومي، «السابر روم»(*).

كان ملتقى الشخصيات النافذة في بوهاين.

اصطفّت حول الغرفة مقاعد مخمليّة حمراء. وعلى المقاعد جلس رجال بدينون منتفخو الفكوك، شاكرين أنوار الغرفة الخافتة. إنّهم تجّار المدينة، رجال يحبّون الرذاذ المثبّت للشعر والخمرة القويّة والدهون المشبَّعة.

قال لوغان بصوت مرتفع بما يكفي ليسمعه الجميع: ثملون ولاهثون وراء العاهرات.

في الجهة المقابلة من الأرضية الخشبية الفاخرة قبع بار أنيق، سياجه نحاسيّ. مشى لوغان المتأنّق نحوه. كانت الأرضية الخشبيّة الفرنسيّة تُصقل بشكل مفرط، وقد بدا ذلك جليّاً من حدبة ظهر تومي

(*) Supper Room اسم المكان، والترجمة الحرفية له هي «غرفة العشاء».

الساقي وهو يهرع ليتقدّمه، منسلاً من تحت باب البار. أخذ خرقته وأسرع يلمّع قسم المنضدة حيث يجلس لوغان كل ليلة.

«أحدثت فيه أثلاماً من كثرة الحفّ يا تومي».

نزع لوغان عنه كمَّيْ كنزته الكرومبي، وعلّقها على مشبك تحت سياج البار. كان مقبض خنجره ظاهراً للجميع، ذلك المقبض المغطّى بعرق اللؤلؤ والمرصّع بأشكال زرقاء فيروزيّة. كان مدسوساً في حزامه، وسترته عالقة بنصل الخنجر حتى يظهر بشكل أوضح. راح يُمَسّد موهير بدلته الإيطالية. لعب بخيط محلول ومرّر حالِماً طرف إبهامه على عظم خدّه، الشبيه بخدود كبار النجوم.

«هل من أمر غريب يا تومي؟».

هذا السؤال جعل الساقي يجفل بالتأكيد.

«أمر غريب سيد هارتنت؟».

ابتسم لوغان متظاهراً بالبراءة.

«قلتُ هل من ثرثرة في الجوار يا تومي؟».

«آه، الكلام القديم المألوف سيد هارتنت».

«حقاً؟».

«مَن ضد مَن؟ مَن ينافس من؟ ماذا سيحلّ بمَن؟».

اتّكأ لوغان على منضدة البار، وأخفض صوته قليلاً قائلاً:

«وهل من كلام قديم معتاد من الخارج عن بيغ نوثين يا تومي؟».

عرف الساقي جيداً ما يتكلّم عنه لوغان، فقد سبق أن انتشر الخبر.

فقال: «أفترض أنّك تعرف شيئاً عن ذلك الكلام القديم».

«أيّ كلام بالتحديد، يا تومي؟».

«كلام عن شخص... معيّن شوهد في الجوار».

«قل اسمه، يا تومي».

«إنّه مجرّد كلام، سيد هارتنت».

«قله».

«إنّه مجرد اسم، سيد هارتنت».

«قله يا تومي».

جالت عينا الساقي حول الغرفة؛ كانت أعصابه مشدودة حتّى التمزّق.

قال: «غانت برودريك».

ارتجف لوغان، ارتجافة لعوباً، ليسخر من الاسم، وراح ينقر بأطراف أصابعه إيقاعاً سريعاً على سطح البار، ثم قال: «أولاً الكيوساك والآن «غانت». لا بدّ من أنّني ارتكبت حماقة كبيرة في حياة سابقة يا توم».

ابتسم تومي الساقي متنهّداً، وقال: «ربما ارتكبتها في هذه الحياة، سيد هارتنت».

«أنت شجاع يا تومي، أحسنت».

حاول الساقي تلطيف الجوّ قدر المستطاع، قائلاً: «هل عاد إليك الخوف القديم، سيّدي؟».

«عاد إليّ الخوف بالتأكيد، يا تومي».

علّق الساقي خرقة البار على مسمارها، وراح يصفر في مسعى فاشل ليبدو لامبالياً. لم يستطِع تومي أن يخفي عن وجهه الشعور السائد في الغرفة، التلميحات والفوارق الدقيقة في الحديث الذي دار بينهما. كان لوغان يستخدمه دائماً مقياساً لمزاج المدينة. قد تصعب قراءة بوهاين. مدينة تحمل اسم مكان معزول ومتناقض، ولدينا طبعاً ميل إلى نوبات الغضب أو نوبات المرح، ما يجعل التنبؤ بتصرفاتنا مستحيلاً. راح الساقي ينقر بعصبية بأصابع قدميه على الأرضية الخشبية، وكانت نقرة أصابعه مفعمة بالحيوية. ثم قال: «ما الذي يريحك من الهموم، سيد هارتنت؟».

أطرق لوغان للحظة. وترك نظره يسرح نحو مروحة السقف التي كانت تدور ببلادة وتشقّ غيوم الدخان الأزرق في الغرفة، وقال: «هاتِ دزينةً من مَحارك، ومقداراً جيّداً من ويسكي جون جايمسون».

هزّ الساقي رأسه موافقاً، وانصرف إلى تحضير الطلب، وهو يقول: «ما من جدوى في العيش على نحو وضيع، سيد هارتنت».

«لا يا تومي، من المستحسن أن نسمو بأنفسنا فوق بهائم الحقول».

عودة «غانت»

ما ذاك الزعيق الحاد المُثقل بالتحدّي إلّا صفير قطار 'إل' الخاص بمدينة بوهاين وهو يقوم بانعطافته الأخيرة نحو شارع «دي فاليرا». اجتاز الطريق الملتوية بسرعة، وبدت نوافذ مقصوراته صفراء ضبابيّة أثناء انقضاضه على وسط المدينة. أمّا الطريق الرئيسة فبدت مهجورة وسط سكون ساعات الصباح، وكان الصمت يسود أيضاً المقصورة حيث جلس غانت. لم يكسر هذا الهدوء سوى نحيب عاهرتين في الممرّ، وهما فتاتان من «النوريين»(*) بالنظر إلى عظام وجهيهما البارزة كما القطط، ورجل ثمل، يكسو الشحم ثوبه الحكومي. كان الحزن يلفّ عادةً قطار 'إل' قبل الفجر في هذا الجزء الأخير من الرحلة، وذلك لم يتغيّر. كان زعيقه زعيق الروح. إذا كنت مستلقياً في سريرك، تتملكك الوحدة، مستسلماً لأفكار شاعريّة، فسيخترقك ذاك الزعيق. والحقيقة أنّنا غالباً ما نعيش هذه الحالة في مدينة بوهاين، فلا رجال أفضل منا في الأفكار الشاعرية.

مسح غانت بباطن يده الضخمة قطرة عرق انزلقت على حاجبه.

(*) تسمية عامية تطلق على سكان الجانب الشمالي من مدينة كورك الإيرلندية (Norries).

يداه كبيرتان كأغوار «بلفاست». ثم بدأ العرق يتصبّب منه فجأةً، فالجوّ حارّ على متن القطار، والسخّانات العتيقة ترتجّ بجنون تحت المقاعد المضلّعة. فورة الحرّ تلك التي اجتاحت غانت حملت إليه أيضاً شحنة من المشاعر؛ فاستحوذت عليه في هذا الموسم نوبة من الحمّى. تسرّبت إلى حلقه مرارة الشباب الضائع مع حُرقة الغثيان المزعجة. وعلى متن قطار 'إل'، ومع طلوع الفجر الباهت، راح غانت يرتجف. لكن الشوارع المألوفة التي بدأت تمرّ أمامه بسرعة مع هجوم قطار 'إل' أزاحت الذكريات المؤلمة بلا إنذار، ليحلّ محلّها فرح عظيم. لقد عاد! فابتسم غانت وقد استحوذ عليه شعور غامر بالبهجة وهو يتنشّق الهواء الرطب، وأصغى إلى العاهرتين.

ناحت إحداهما قائلة: لقد أحببت كثيراً ذلك الشقيّ الثرثار!».

فراحت الأخرى تواسيها قائلة: «كان سافلاً قذراً، يا فتاة، هذه هي الحقيقة. ذلك السافل كان يجول ماجناً في أرجاء المدينة كلّها، هل تفهمين؟ كنت في نظره مجرّد فتاة غبيّة».

ها قد عاد إلى أصوات المدينة؛ فوحده إيقاعها نجح في وقف نهر الأفكار الهادر في رأسه. يُراوده في هذه اللحظة إحساس غريب هو مزيج من الإرهاق والسعادة. فذات يوم ترك خلفه قفار بيغ نوثين، مجتازاً ظلام المستنقعات. وعاوده الشعور بفرح كبير، وهو يثب على متن قطار 'إل' في الرايزس، مُنزلاً الحمل الثقيل عن عظامه. ها هو غانت يعيش في بيغ نوثين مجدّداً. ها قد عاد أخيراً إلى عالم بوهاين.

في آخر المقصورة لمح رجل الحكومة يغمغم بحزن، اسم امرأة

على الأرجح، وهو شبه نائم كمن غلبه الثمل؛ هل لتلك المرأة عينان خضراوان متثاقلتا الجفون كعينيّ حبيبة غانت الضائعة؟ وفي حين راح القطار يصدر أزيزاً ثاقباً على طول «شارع دي فاليرا» بدأت معالم المدينة تتكشّف صورة تلو الأخرى: متجر مقفل الأبواب، وقاعدة تمثال لبطل حرب، وإعلان لمنتج يشفي من داء النقرس، وطائر نورس يقبع كشبح على عمود المصباح.

أخذ الصباح بالانبلاج خلف أضواء الشارع الخافتة التي ما لبثت أن انطفأت عندما سُمع صرير قطار 'إل' وهو يدخل محطّته الأخيرة من جهة رصيف النهر. التحم القطار برصيفه، وتوقّف ليعلن ارتجاجُ المصدّات المطّاطي وصولَ القطار إلى وسط المدينة، أي إلى بوهاين نفسها. وتلاشت شيئاً فشيئاً رائحة الديزل النافذة.

ترك غانت العاهرتين والرجل الثمل يمرّون أمامه. بدا وهو يترجّل من القطار سميناً وقد ترك الحرّ آثاره على وجهه. لكن خطواته، وكانت خطوات رجل ضخم، لم تخلُ من الرشاقة. في حركته تمايل جميل؛ هل تتخيّل مشيته؟ كان غانت يتمتّع بأناقة الزمن الماضي.

الاسم الرسمي للمحطة هو «بوهاين سانت فرانسيس كزافيير» لكنّ الجميع يسمّونها «يِلّا هول». وفي حين كان غانت يشق طريقه عابراً المحطّة راح يتنشّق ذاك الهواء السرمدي المثقل بالشر. ومع أنّ الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة صباحاً سوى بدقائق قليلة، كانت باحة محطّة القطار تعجّ بالناس بشكل منفر، وإيقاع الضجيج فيها يعلو بوتيرة سريعة. راح باعة الجوز المقطوعو الأطراف يعلنون

عن أسعارهم بأصوات خفيضة جشّاء، وقد جلسوا على أغطية مهترئة بُسطت على الأرضية المجرّحة المرصوفة بالآجر، عارضين جدعات أطرافهم ببراعة. علت لهجة بوهاين في كل مكان: منخفضة وجشّاء في الحروف الساكنة، رتيبة ونائحة في حروف العلّة، وسرعان ما تصبح كاريبية بشكل من الأشكال. وقف رجل عجوز على قفص برتقال مقلوب وراح يعزف بشكل مزعج على المزمار الصغير، ويغنّي مرثاةً تندب حُب الشباب الذي ولّى منذ زمن. حمل قفص البرتقال ختم طنجة، وهي طريق كانت لا تزال مفتوحة. وكان رأي غانت أن للرجل العجوز رئتين قويّتين، بالرغم من أنه كان يترنّح بلا شك على شفير الهاوية.

عَبرةٌ أخرى خنقها غانت: كان ضخماً، ولكن حسّاساً، صلباً ومع ذلك رقيقاً.

كانت الطبعة الصباحية من صحيفة «بوهاين فنديكاتور» قد وصلت. غير أن صاحب الكشك لم يكن قد فتح الرزم بعد، لكنّه أصغى، مغمض العينين، إلى سوناتة غريبة تصدح من ترانزستور. ففي مثل هذه الساعة، يميل منتقو الأغاني في راديو بوهاين الحرّ إلى الأجواء الكلاسيكية للأمور، وإلى السوداوية. هزّ رجل الكشك رأسه بلطف، مع انفجار أصوات الكمنجات.

يمكننا أن ننال ميداليات للعاطفة، هنا في طرف شبه الجزيرة.

في أثناء مروره، أَلِف غانت ضبابية الوجوه. كانت الوجوه، الأصوات، الحركة، كل الإشارات، تصل إليه بوضوح لتخبره أنه عاد

إلى بيته؛ كانت إشارات مؤلمة وجميلة في آن. بحث عنها في كل امرأة مرّ بها، في كل فتاة. اشترى علبة سجائر من سيّدة عجوز تلتفّ بمعطف مشمّع أخضر: إنها آني، الحاضرة دائماً وأبداً على الساحة.

قالت: «ثلاثة شيلينغات... وبنسان».

بدا أن هناك سؤالاً في كلامها، لا ريب في ذلك، كما لو أنها تعرّفت إليه من خلف كل تلك السنين الآفلة.

فقال: «احتفظي بالبقية من أجلي، حبيبتي».

غشّت صوته بحّة، تأثّر، ولهجته الهادئة لا تزال لهجة شبه الجزيرة، حتّى بعد سنوات غيابه الطويلة، سنوات من الحزن، سنوات من الدماء؛ عانى غانت خلالها آلاماً حميمة. مرّت في باله لحظة من أغنية تعود إلى زمن ضائع، فتمتم كلماتها.

«كنت أفكّر اليوم في تلك الأرض الج - مي - لة،
التي سأراها عندما تغيب الش - مس...».

العاهرتان اللتان بكتا على متن القطار تسيران الآن أمامه في باحة المحطّة، وقد استجمعتا قواهما. وفي سيرهما، راحتا تطليان وجهيهما من علبتيْ بودرة تنغلقان بكبسة زر. علم أنهما تقصدان سموكتاون وسوقها الصباحية الباكرة. راقبهما غانت وهما تقطعان يلاّ هول. انظر، انظر إلى حركة التنقّل بين ردفيهما النحيلين تحت القماش الحريري الرقيق لتنّورتيهما المثيرتين، وإلى ربلتي ساقيهما المشدودتين الجميلتين نتيجة قضائهما نصف حياتهما الشابة على

كعب رفيع يعلو ستة إنشات. أثار منظر الفتاتين مشاعره. وكان قد شغَل في شبابه مجموعات من العاهرات. مرّت أيام أدار فيها غانت سموكتاون، وهي أيّام أدار فيها المدينة كلّها.

وقيل في بوهاين إن غانت سيّر الأمور بشكل نظيف.

توقّف قرب بوّابة يلاّ هول الرئيسية، لتناول جرعة من القهوة القطرانية السوداء. وقد سكبها قزم بخبرة ومهارة، وقدّمها من عربة قهوة مرخّصة. استغرق غانت في مراقبة القزم وهو يرصّ الثفل ويحرّك الجرعة على آلة الغاغيا القديمة، ثم يضع تحتها فنجاناً أبيض صغيراً لالتقاط السائل. كان شكل القزم أيضاً مألوفاً: له حاجب صغير مسحوق، أنف ملاكم، شفتان شهوانيتان بشكل غريب. كان غانت ليقسم أن والد ذلك القزم قد امتلك قبله الرخصة في تلك العربة المطلية بالكروم. هكذا تتوالى الأجيال في بوهاين. شَرِب القهوة بجرعة واحدة، واعترته رعشة. شكر القزم ودفع له، وترك مفعول القهوة المرّ المنشّط يقوّس حاجبيه، وهو ينظر خارجاً إلى بداية ذلك الصباح من تشرين الأوّل. كانت طيور النورس تفقد صوابها على حجارة الرصيف.

غالباً ما يقال إن تلك الطيور لم تكن يوماً طبيعية. خبل مطبق في عيونها، وشرّ لا يمكن ترجمته في نعيبها، وهي تنقضّ كالقنابل على الشوارع. ليست طيور النورس في بوهاين سوى مجموعة من الطيور الحمقاء الجاهلة. لقد اشتاق إليها كثيراً. أرسل ضحكة عالية، ودمعت عيناه، فيما قذفت هبّات الرياح الصباحية بالطيور في أرجاء السماء؛ لكنّه لم يرفع ناظريه؛ ففي أفضل الأيّام تعجّ يلاّ هول بالسَفَلة.

انطلق غانت باتجاه جسر المشاة في سموكتاون. ثم أخرج قصاصة ورق من جيبه وفتحها. قرأ خطاً لم يتغيّر مع السنين؛ تلك الحروف الطفولية العصبية الكبيرة نفسها. قرأ في خربشته الكلمات الآتية:

«مقهى «هو بي تشينغ أوه - كاي»».

كان على غانت مقابلة فتاة شابة في ذلك المكان. والوقت مناسب لمثل هذه المقابلة، فهو يستطيع أن يختفي وسط الحشد. عرف غانت أن السماء ستكون مظلمة في مثل هذه الساعة من الصباح. كان عمّال المناوبة الأخيرة في المسالخ ومصانع الجعة قد بدأوا ينهون دوامهم. تصنع بوهاين النقانق وتصنع بوهاين الجعة. فنحن في النهاية على خط عرض يتجاوز الخمسة والخمسين شمالاً، حيث الشتاء عاصف، فنحتاج إلى الحرارة الداخلية التي تأتي من أكل اللحم والشرب بكميات كبيرة. تعمل المصانع على مدار الساعة. وبعد المناوبة الليلية، جرت العادة أن نتوجّه إلى سموكتاون من أجل بعض اللهو الصاخب. في ضباب الفجر، سار فتيان مصانع الجعة بعيون حالمة من تأثير أبخرة حشيشة الدينار، في حين قضى فتيان المسالخ كامل هجعات الليل غارقين حتّى الإبط في جيف الحيوانات، يملأون العربات من أجل طاولات اللحامين في سوق القناطر في حي ترايس. سارت العربات على حصى الشارع القذرة وقد نقلت حمولة دموية:

رؤوس غنم مسلوخة وأفخاذ خنازير ولحوم معرّقة وصوانٍ لمّاعة

ممتلئة بالأكباد والطحالات، بالأعضاء والكلى، بالرئات والألسنة؛ نحن آكلو لحمٍ إلى أبعد حدّ، وقد نأكل الكمّية كلّها هنا في بوهاين.

حدّب غانت كتفيه العريضتين مقاوِماً برد الصباح. وحمل الهواء الخوار الخفيض العميق الذي أطلقته الحيوانات المعدّة للذبح. فأفنية المواشي عندنا تمتد على طول الأرصفة النهرية. قطع غانت فوق قناة تدفّقت فيها الدماء الطازجة كسيل جارف.

تساءل كيف يُنتظر من المرء أن تخطر له أفكار متحضّرة في مدينة على هذه الشاكلة؟

سار مطرق الرأس. لن يحاول عيش قصّة حب مع المكان؛ لديه عمل يقوم به. وجهه وجهٌ كثيراً ما يرتدّ فيه العمر إلى الوراء بقدر ما يظهر على السطح. أحياناً، ترى الصبي فيه؛ وأحياناً قد يبدو عجوزاً للغاية. كان غانت مزاجيّاً إلى حدٍّ بعيد، حتى أنه غدا في حاجة إلى لدغة العلق. كان متنبّهاً دائماً لتقلّباته. وقد حمل معه كيساً فيه نبيذٌ بنيٌّ مصفرّ. حلّ غطاء كيس النبيذ وضغط عليه فانبثق سائل الحياة، السائل المداوي. هناك طبعاً دماء خسيسة في غانت، وحتّى اسمه اسمٌ خسيس قديم. لكن هناك أيضاً دماء خسيسة في معظمنا، نحن سكّان هذه المدينة. ألقِ نظرة على هيئتنا: انحدار الكتفين، العدائية في المشية، لون عيوننا العسلي الضبابي؛ لسنا بالتأكيد من معدن الضباط المحترمين.

طبعاً إذا كنت ستعمد إلى تقدير العمر بالاستناد إلى العظام الخسيسة، فإن عظام غانت أصبحت عتيقة بالتأكيد. لقد قطع خمسين سنة من العمر متّجهاً إلى الجنة.

واستمرّت الحياة، مضطربة متقلّبة، بغضّ النظر عن كل شيء.

علا الاحمرار وجوه الشبّان الذين ساروا جميعهم في اتجاه جسر المشاة، ضاحكين فرحين، في مجموعات من اثنين أو ثلاثة. يميل شبّان بوهاين إلى قصر القامة وامتلاء الردفين، أي إنهم من النوع الذي يصعب طرحه أرضاً. سموكتاون هي جنّتهم الكئيبة. وهناك تعبير يُستعمل هنا لوصف رجل في حالة الانحطاط الخُلُقي، إذ نقول هذا رجل يرتاد جسر مشاة سموكتاون.

هو جسر محدّب بُني من حجر بيغ نوثين الكلسي. سار عليه غانت ووصل إلى أعلى نقطة فيه، فوق النهر الأسود، على مقربة من سيل نهر بوهاين السريع المغثي، ثم انحدر إلى سموكتاون. لكل من مناطقنا إحساس خاص به، لحن مميَّز. وقد شعر غانت بالغور في المعدة، بالتلاشي المفاجئ للروح، بالنشاز، وهي مشاعر يُحْدِثُها دخول هذا الحي.

نشر حيّ سموكتاون خمّاراته ومطاعم النودلز وصالونات العناية بالقدمين. وبسط حاناته غير المرخّصة الرطبة والاستوديوهات الفتيشية، صالات الرماية والمواخير ومكاتب المراهنات. وقد احتشد بعضها فوق بعض في الشوارع المنحدرة. وتكدّست المداخن القديمة المتداعية بفرح كبير غير منظّم وارتفعت في سماء الصباح. والشوارع التي غمرها نور الفجر ازدحمت بالوجوه المألوفة. فشعر غانت على الفور كما لو أنه لم يغادر يوماً. ولكنّه قد يواجه مع ذلك تغييرات في تركيبات المكان. ربما استطاعت الفتاة تشينغ تعليمه.

ألقى غانت نظرة سريعة إلى الخلف، وقد أصبح في حالته ميّالاً إلى استخدام حدسه. واكتشف أن أحد رجال السلطة التابعين للـ «إل» يتعقّبه، وقد صحا على ما يبدو من سكره. لاحظ الرجل التفاتته ووبّخ غانت نفسه على حركته العفوية. يا للبراءة! ولكن أن يكون ملاحقاً أراحه بشكل من الأشكال. فقد أكّد له ذلك أن اسمه لا يزال يعني شيئاً. توقّف على الطريق، واتكأ على جدار خمّارة. رأى رجلَ السلطة يتوقّف أيضاً ويحدّق بشيء من اللامبالاة إلى مجموعة من البطاقات البريدية القذرة.

لكي يضلّله، دخل غانت ماخوراً، وتنشّق هناك ذلك العبير المألوف أكثر من أي رائحة أخرى في سموكتاون: رائحة ذاك المزيج العتيق من مرهم للطفح الجلدي وحشيشة بيغ نوثين ورائحة الرخص.

دفع الرسم لمديرة الماخور المقطّبة الوجه، وصعد إلى الطابق العلوي. وهناك على حصيرة القصب، قضى بعض الوقت مع فتاة من النوريّين، ولم يكن في تلك الجلسة أي أمر مؤاتٍ سوى الوقت.

قالت له: «هل تشعر بالوحدة؟».

فأجاب: «أشعر بوحدة شديدة حتى أنني قد أقتلع دماغي من رأسي». فضحكت وأشعلت له سيجارة حشيشة.

قال وهو يمج نيكوتين سيجارته بعمق: «أنت 'نمرة' صغيرة جميلة، أليس كذلك؟».

قالت: «هل تريد المحاولة من جديد؟».

فيما بعد، عندما خرج غانت مجدّداً إلى الشارع، لم يرَ رجل السلطة وسار باتجاه الهو بي. تلألأت المدينة آنذاك بنور الصباح الجديد، وبدا الأفق مظلّلاً. كان غانت يدرك أن شقاءهم وبلاءهم يأتيان ممّا وراء المدينة، مصدر اللعنة. ما وراء المدينة، أي بيغ نوثين.

زواج

كان مقرّ «مقاطعة هارتنت» من طراز «بوفيستا» القوطي. كان أشبه بمسلّات قديمة وهزيلة، تملأها الوصلات والمداخن. نوافذه الطويلة الرفيعة سيئة المنظر، ويحيط بها إطار رصاصي، سقفه المثلّثي مكسو باللبلاب، وقرميده مستدق في أعلاه، له لونٌ شبه عسليّ، أظهرته بوضوح زرقة ساعات الصباح الأخيرة من شهر تشرين الأوّل. انتصب المقرّ تماماً على خط من المنازل الكبيرة القديمة ذات الواجهات الفخمة التي شكّلت جادةً مورقة في أعلى جرف بوفيستا. بنى نخبة مدينة بوهاين منازلهم في بوفيستا، واختاروا ألا تطلّ على المدينة، مع أنها بنيت بمال كانت المدينة مصدره. لكن لوغان هارتنت وزوجته ولدا كلاهما في ترايس، واعتنيا بحديقة على سطح البيت تظلّلها المداخن. وكانت هذه الحديقة موجّهة بحيث تطل من الخلف على حوض المدينة الكبير، كما لو أن هناك حنيناً إليه. وقد قضيا في الحديقة وقتاً طويلاً.

ها هما في ضوء الصباح: أنيقان جداً وبلا أولاد.

جلس لوغان إلى الطاولة المصنوعة من الحديد المطاوع. كان

ينتعل جزمة حمراء داكنة مربوطة بشريط إلى الأعلى، ويرتدي بنطلوناً رمادياً دخّانياً سبق تجعيده، وحمّالتي بنطلون جلديّتين رفيعتين فوق قميص أزرق فاتح اللون. كان متردّداً في مملكته الخاصة. دفّأ يديه بكوب الشاي ونظر إلى زوجته.

«هل ستتجوّلين في المدينة، يا فتاة؟».

«ولِمَ تسأل؟».

«مجرّد سؤال يا «ماكو»».

«تريد كل دقيقة من يومي اللعين، أليس كذلك؟».

ماكو تصغير إيماكولاتا(*). كانت نظرتها الجانبية حارةً تشتعل ناراً إيبيرية(**). والدها برتغالي كان يعمل على مركب صيد، ورسا مركبه في عالم بوهاين. تزوّج من ترايس وجاءت ماكو سمراء البشرة ونحيلة، رشيقة أنيقة في حركتها، وفي داخلها حزن وُلد معها. وثمة حَوَلٌ طفيفٌ في عينيها، أضفى علها شيئاً من الجاذبية.

«كل ما أسأله هو هل أنت ذاهبة إلى المدينة؟».

«من الصعب البقاء بعيداً».

«مَن الذي ستقابلينه في المدينة؟».

كانت ترتدي سترة طويلة بلا كمّين من فراء الثعلب لاتّقاء برد

(*) والاسم يعني «نقيّة»، وهو مشتقّ من إحدى تسميات العذراء مريم.

(**) نسبة إلى شبه جزيرة إيبيريا، المكوّنة من إسبانيا والبرتغال وأندروا ومنطقة جبل طارق.

الصباح، وتُحرّك مقصّ التقليم على طول جنبات الورد التي اعترشت الجدار. تجاهلت السؤال. أحياناً، تشعر بالحاجة إلى طعن كلّ ما فيه حتى أفكاره. هنا، بين عظمي الكتفين، يمكنها أن تنتشي بالطعنة الجميلة لخنجر بوهايني بطول ثمانية إنشات وباستقراره في جسمه. لكنّه كان لا يزال قادراً أن يليّنها بمكره.

أجفل للذعة الشاي العشبية الحامضة. سارت إلى الطاولة، وصبّت ملء فنجان لها. كانت قد تركت الشاي يغلي حتى أصبح بنّياً كلون جزمة قديمة.

قالت: «هذا قرّاص».

فأجاب: «لم أتفاجأ. لا مجال أبداً للحصول على كوب من الشاي في هذا المكان، أليس كذلك؟».

قالت: «هذا مفيد للكلى».

فأجاب: «من الجيد معرفة ذلك».

دلّ مظهره على أنه لم ينم كثيراً، ولكن لا شيء جديد في ذلك. كان لوغان هارتنت ينام ساعة أو ساعتين، ثم يستفيق للمدينة من جديد. كانت الظلال الداكنة تحت عينيه، تجعله يبدو هزيلاً، لكنه كان يصرّ على أنها تزيد من أناقته. وكانت هي تعارضه في ذلك، رغم أنها بدأت تميل إلى الاعتقاد نفسه.

قال: «عَلَيَّ أن أنزل إلى هناك بنفسي قريباً».

فقالت: «كل شيء ينهار من دونك».

كانت بوهاين هادئة، والطقس محبّباً في تلك الأيام من شهر تشرين الأول، عندما تنعم المدينة بما يوحي بالسكينة، ولو لوقتٍ وجيز. علت أجراس الكنيسة، ولم تخترق خمول الصباح بقدر ما جعلته أكثر وضوحاً.

قال: «عَلَيَّ التحدّث إلى أبالستي، أليس كذلك؟».

قالت: «ألا تقوم بذلك دائماً؟ فانسي، فانسي...».

كان ذلك آخر صباح تحمل فيه الشمس ما يكفي من الحرارة للجلوس خارجاً. ارتشف شايه وأجفل. في نفسه قلق جديد، شظية تأتيه من مكان ما. وقد استمتعت بذلك، وعلمت أن عليها عدم محاولة معرفة ما يخفيه. فسرعان ما سيبوح وحده.

«هل سترى «غيرلي»؟».

تنهّد وقال:

«آه، أتصوّر أنني سأمرّ بها».

«غيرلي هارتنت»، الأم، تبلغ التاسعة والثمانين من عمرها، وصحّتها ممتازة. كانت غيرلي أكبر فاسقة وطئت قدماها أرض ترايس؛ لكنّها تقطن الآن في جناح في الدور الأخير من «فندق بوهاين أرمز هوتيل». ولم تُفتح الستائر في جناحها منذ عقود.

قالت: «أوصل لها قبلاتي».

«ستسعدها قبلاتك».

شعرت بالرضا عند وضع يدها على بطنها المسطّح. فكّرت أنها لا تزال رشيقة، رغم كل شيء. لطالما قال لوغان إنها تستطيع كسر الجوز بين فخذيها. حدّق إليها بعينين نصف مغمضتين، وقد بدت بشرته شبه شفّافة في نور الصباح. علمت أنه غدا مستعداً للبوح بما يزعجه.

قالت: «حسناً».

ابتسم لقدرتها على قراءته.

«إنه على الأرجح مجرّد كلام».

«هذا المكان ممتلئ بالكلام، يا لوغان. فما المميَّز في الأمر؟».

«يقولون إن غانت قد عاد».

لم تكن مستعدّة لهذا الخبر.

«غانت برودريك؟».

«هل تعرفين غانت آخر؟».

حاولت الحفاظ على الهدوء في صوتها.

«مَن الذي يقول هذا؟».

«الخبر في كل مكان. الخبر في الحانات وفي الزواريب. انتشر خبر عودته إلى نوثين».

أجابت: «هذا هراء».

قال: «على الأرجح».

عندما كان غانت هو مَن يدير الأمور في بوهاين، كانت ماكو إلى جانبه.

افتُتن والدها ببوهاين. للمكان سحره؛ زُره مرّة واحدة وستشعر دائماً بالحنين إليه. فتح باراً في شارع دي فاليرا. وأسماه «كافيه أليادوس» نسبةً إلى ساحة في بلدته الأم. تزوّج وأنجب الفتاة، التي أعادت إليه مقداراً من الشباب، وشكّلت نوراً متألّقاً أتاه متأخّراً. أصبح بار أليادوس على مرّ السنين ملتقى زمرة الباك ترايس فانسي. من الصعب على شاب من فانسي ألّا يلاحظ الفتاة الجميلة التي تشغّل آلة القهوة، وتصب الجعة، وتوزّع صحون بزر اليقطين الصغيرة هناك. صحيح أنَّ سلالتها قد خالطها الرق الأسود، لكنّها كانت ابنة بوهاين حتى العظم، ابنة بوهاين في حدّة نظراتها، وفي سرعة أجوبتها.

بصمة بوهاين كانت أقوى من الدم.

«هل أنت قَلِق؟».

نظر إليها بوجه صريح التعابير. ثم هزّ كتفيه والتفت مجدّداً إلى شمس الصباح، وقال:

«إذا كان الخبر صحيحاً، فإن توقيته ليس مناسباً جداً».

«لماذا؟».

«يشحذ آل كوساك كلّ قوّتهم، يا فتاة. قد أتلقّى هجمات عشوائية من جميع الجهات».

«هذه متعة الحياة التي اخترتها، يا لوغان».

«التي اخترناها. لديك كل الحق».

لن يسألها مباشرةً عن شعورها حيال رجوع غانت. هناك نواحٍ سريعة العطب حتّى في أطول الزيجات. خمس وعشرون سنة هيَ المدة التي غابها غانت عن بوهاين.

هذا الصباح ستُدخل أصص النباتات عن السطح. فسرعان ما ستهبّ الرياح الشديدة القالعة. انصرفت إلى المهمّة كما لو أن لا هم آخر لديها؛ لكنّها أبقت عينيها إلى الأسفل وحجبتهما عنه.

تسارعت أفكارها وآلمها قلبها.

ألوان نباتات السلوى الخضراء والزرقاء الباهتة همست لها في شمس الصباح.

اجتماع في رايزس

قبالة حوض المدينة مباشرةً من بوفيستا تقع أراضي «نورث سايد رايزس» الممتدّة الوعرة. على مرّ السنين، تزاوج سكّان بوهاين الأصليون بكثرة وملأوا أزقّة باك ترايس الضيّقة حيث الشتاء طويل، والليالي حالكة السواد والطبيعة رومنسية. وشُيّدت مبانٍ سكنيّة في رايزس لاحتواء فائض السكان. إن عُدت بالزمن إلى الوراء لوجدت أن قرابة دم تجمع عائلات ترايس ورايزس كلّها تقريباً، ولعلّ في ذلك تفسيراً لعمق المرارة بينهما.

رايزس منطقة كئيبة، بائسة، رياحها هوجاء. لم يحدث أن أخبر أحد عن العيش في الأماكن التي تعصف بها الرياح. فعندما تعصف الرياح بشراسةٍ كما في بيغ نوثين، وعندما تفحّ تسعة وأربعين أسبوعاً في السنة، لا يكون تأثيرها مادياً فقط ولكن... فلسفياً أيضاً. يصعب على المرء السيطرة على وعيه في خضمّ رياح كهذه. تُخرج هبّات الرياح المستمرّة العقل عن مسار تفكيره. والنتيجة ناس متوتّرون ومزاجيّون يميلون إلى منطق غريب. هكذا كان (ولا يزال) سكان نورث سايد رايزس.

ولكن، في ظهيرة هذا اليوم بالتحديد، وبينما راح «أُول بوي مانيون» يتبختر بأناقة في جادّات منطقة النوريين الموحشة، كان هدوء شهر تشرين الأول لا يزال يخيّم على الأجواء. على جانبيِ الجادّات، انتظمت المباني السكنية في دوائر هلالية بائسة، وقفز طفل غريب عن عمودٍ متهاوٍ، وهامت الكلاب في مجموعات مسعورة، لكنّ الجوّ كان هادئاً عموماً، فرايزس مكان ليليّ بطبيعتها.

ملابس أُول بوي، الذي يقارب السبعين، تناسب شخصاً أصغر منه سنّاً. كان يرتدي بنطلوناً منخفض الخصر، وجزمة عالية كعبها يصدر طقطقة. التفّ بسترة قصيرة من المخمل القطني، واعتمر قبعةً طريّةً تقليديةً أرخاها بزاوية مَرِحة كقوّاد. لدى أُول بوي معارف في كل أنحاء المدينة، إنّه وسيط بوهاين. إذ كان جليساً أنيساً سواء في اجتماع كبير في قاعة استقبال قصر من قصور بوفيستا، أو في موعد رومنسي في شقة ما من شقق رايزس. لم تكن هناك لا شاردة ولا واردة في ترايس لم يعرف بها، وحتّى ما بعد جسر مشاة سموكتاون. كان مقرّباً من موظّفي منطقة الأعمال: الشبان المرحين البدينين الذين يعملون في «إنديفر أفنيو» في «بوهاين نيو تاون»، يمازحهم ويضرب قبضته بقبضاتهم. كان يتناول الطعام أيضاً مع أكثر الناس جهلاً في بيغ نوثين. حنجرة مانيون آلة عجيبة. فهي تقلّد بدقّة نبرة مَن يكلّمه وإيقاعه، مع المحافظة دائماً على صوت دافئ مطمئن. إن سمعتموه في «إنديفور» ستقسمون أنّ له حصصاً في «بوهاين فورست كومورشول»؛ وإن سمعتموه في نوثين فستقسمون أن عشب المستنقعات يسري في دمه.

كان أُول بوي يتقن براعة السياسيّ من دون أي تحفّظ.

اقترب من مجموعة أبنية سكنيّة تابعة لعصابة الكيوساك. كان بانتظاره رجل يدعى «آيز كيوساك» عند البقعة التي يبست خضرتها أمام الأبنية. كان آيز مستنداً إلى سقيفة مولّد كهرباء محترقة، ومستغرقاً في التأمّل. كان يدخّن. حين وصل «أُول مانيون» حيّاه بأن رمى سيجارته وداس عليها، ثم تعانق الرجلان، بشكل ذكوري وسريع.

سأل أُول بوي: «كيف حالك؟».

لقد أطلق عليه اسم آيز التي تعني «الأكحل» بجدارة. فقد رأى المدينة عبر ثقبين صغيرين مدخّنين في عمق وجه عريض طريّ. فقال: «تلقّى أحد شبّاني طعنة خنجر من ثماني بوصات في صدره. في سموكتاون».

أجاب أُول بوي: «سمعتُ فعلاً بوقوع حادثة. هل سينجو يا آيز؟».

فردّ آيز: «لن يرتاد نوادي الرقص لبعض الوقت. إنّه أحد أقاربي سيّد مانيون. إنّه ابن أخي،هل تفهمني؟ بيننا قرابة دم. فقد أخي صوابه بسبب الحادثة، وراحت زوجته تبتلع المهدّئات كحبّات الحلوى، هل تفهمني؟».

كان آيز كيوساك أصلع وقويّ البنية، يرتدي سترةً وبنطلوناً رياضياً وحذاءً عالياً. وهو اللباس المعتمد عند أقوياء رايزس في هذا الفصل، وعلى وجهه شاربان تقليديّان بشعان.

فقال أُول مانيون: «هدّئ الوضع بعض الوقت يا آيز إن استطعتَ».

خفّض مانيون نبرته كاستراتيجية تهدئة لكنّها لم تنفع. فقد أراد آيز الانتقام.

قال: «لم يُطعن أي من رجال لوغان سيد مانيون. ويجب أن يعرف لوغان أنّ الوضع لن يكون جيداً».

هزّ أُول بوي رأسه تعبيراً عن فهمه الكلام. استند مع آيز كيوساك إلى سقيفة مولّد الكهرباء، ونظرا معاً إلى المدينة المتنهّدة.

قال أُول بوي: «بالكاد صمد الهدوء لوقت طويل في بوهاين، ولا ينبغي أن نفقده».

فردّ آيز: «لستُ من يحمل خنجراً».

فردّ أُول بوي مستنكراً: «تعرف أنّ هارتنت يدير تجارة سموكتاون».

فأجاب آيز: «يا مجيري الحبيب القدير! حقّاً؟».

رفع أُول بوي عينيه وقال: «دعنا لا نُقحم مجيرنا في الأمور الآن».

ابتعد آيز عن السقيفة، وهزّ كتفيه بمرارة؛ واستدار مواجهاً أُول بوي، وقال: «أريد أن أوصِل إليه خبراً وبسرعة، هل تفهم؟».

فقال أُول بوي: «تابع».

فقال آيز: «أريد إعلامه أنّ جماعة المباني السكنية يدعمونني. لديّ مؤيّدون في كل الدوائر. لديّ عائلات «مكنيس» و«كافانا» و«هيني». أريد إعلامه بضرورة التعويض. فقد قضوا على شاب بريء».

فقال أُول بوي: «يا آيز، لن يحدث أيّ ...».

فقاطعه آيز: «التعويض يا مانيون! هذه كلمتي. قل له إنّ عدداً كبيراً من تجّار سموكتاون يعملون لحسابي».

فسأله أُول بوي: «وماذا سيقول لي يا آيز؟».

فقال آيز: «ماذا». مكتبة t.me/ktabrwaya

فتابع أُول بوي: «سيقول إنّ آيز كيوساك يرسل مشاغبين إلى سموكتاون عمداً، ويجعل الشمال ضحيَّة من أجل النفوذ، هذا واضح. سيقول إنّك تريد إفساد الهدوء».

فسأله آيز: «هل سيقول كل هذا؟».

استدار كيوساك للرحيل، وكان يبدو ممتعضاً للغاية. فحاول أُول بوي إكمال الحديث قائلاً: «آيز، ليس مطلوباً منك أن تنتقل إلى الجانب الآخر، هل تفهم؟ عليك أن تقول إنّ فتاك كان وغداً، وإنّه عبث في المكان الخطأ».

فردّ آيز: «هذا ابن أخي يا مانيون. أخي محطَّم وزوجته تهذي وتولول على ابنها...».

فقال أُول مانيون: «انسَ الأمر يا آيز، ودع الهدوء يَسُدْ كي يستأنف كلّ منّا عمله».

فردّ آيز: «أخبره أنّني مستعدّ للنّقاش على تقسيم سموكتاون».

فقال مانيون: «لا أعتقد أن بالإمكان تقسيمها يا آيز».

فوخزه آيز بقّوة بسبابة ممضوغة، وقال: «كما يشاء، هل يريد إبقاء ترايس تحت راية هارتنت؟ هل يريد الاستمرار في تناول محاره في مطعم تومي وفي مغازلة زوجته الحولاء المجنونة اللعينة...».

فقال مانيون: «دع زوجة الرجل خارج المسألة».

وأكمل آيز: «هل يريد الاستمرار في تنشّق الهواء؟ فليجلس إذاً معي لمناقشة تقسيم سموكتاون!».

أغمض أُول بوي عينيه. أسوأ ما في الأمر أن يُظهروا شجاعة. قال: «إذاً تريدني أن أذهب إلى الأمهق حاملاً تهديداً واضحاً ومباشراً، أليس كذلك؟».

فغر آيز كيوساك فاه بطريقة لن تروها، ولو من ابن عرس وقع في حفرة، وقال: «قل له إنّني جاهزٌ لتقسيم المباني السكنية».

فقال مانيون: «لا تفعل هذا يا آيز».

آيز: «إنّنا نحصد ما نزرع يا أُول بوي».

مانيون: «أجل، هذا ما يقال».

فأضاف آيز: «وربما لحقت بغانت مشكلاته القديمة، هل تفهم؟ قيل أن رجُلاً مرّ من هنا في ساعات الفجر...»؛ مانيون: «هذا الصباح؟».

آيز: «تماماً. أقلّه قطار 'أل' قاصداً وسط المدينة».

مانيون: «عمّن نتكلّم يا آيز؟».

آيز: «عن رجل يجب أن يحذر منه الطويل».

مانيون: «قلتُ عمّن نتكلّم يا آيز؟».

آيز: «يعرفه الطويل جيداً. وتعرفه زوجته أيضاً».

رفع أُول بوي باطن يده بلطف محذّراً، وقال: «ظنّ كثيرون في السابق أنّ هارتنت يضعف. الأشخاص أنفسهم يأكلهم الدود الآن في المقابر».

آيز: «أخبره ما قلته لك يا مانيون».

فأومأ وترك كيوساك يرحل. شاهد الرجلَ المسنّ يبصق، ويسحب بنطلونه من بين ردفيه. هزّ أُول بوي رأسه وتنهّد. لا يتمتّع سكان نورث سايد رايزس بالرقيّ.

ثمة اضطراب شتوي يتحضّر إذاً. سيُسفك الدم قريباً. لكنّ أُول بوي أدرك احتمال أن يكون الهدوء المديد ليس في مصلحة المدينة.

يجب ألاّ يقاوم مكانٌ طبيعَته لوقت طويل.

السائلان في أليادوس

فوق شارع دي فاليرا، ارتفعت الشمس، وانعكست على نوافذ الشارع العالية، فابيضّت وأعماها الوهج؛ وأصبحت كل نافذة عيناً برّاقةً لا ترى. بدا أنّ النور قد تغلغل في كل ذرّة من هواء المكان. كان الهواء غنيّاً وبحريّاً ودسماً، وكأنّك تستطيع مدّ يدك والتقاط حفنة منه. سلوك طيور النورس الشريرة الأعين غريب في الهواء. كانت تنعق وتتشاجر والشارع يضجّ بالحياة عصراً.

نعم. وها قد أتت جميع النسوة الكبيرات السواعد وجميع الرجال القصيري القامة الممتلئي الأرداف. ووصل البولنديّون المتجهّمون ونساء باك ترايس الشُمط. وأتى الأفارقة الأنيقون وأفراد الشرطة الحمقى المولودون في المستنقعات، والدخلاء المستعجلون والمدغشقريون المستنزفون. ونزلت نسوة رايزس إلى «الميدان ٩٨» لشراء السجائر والجوارب الطويلة وسمك الإسقمري. هذا هو المزيج الذي قامت عليه الحياة في دوائر المباني السكنية. ها قد وصل رجال أعمال إنديفر أفنيو للاطلاع على حياة أكثر قسوة. أخذت عاهرات سموكتاون استراحةً بين جلسات زبائنهنّ وعبرنَ جسر المشاة

لتناول القهوة والحلوى في خلواتهن الضاجّة بالثرثرات. تنقّل الشبان الذين يصبون للانضمام إلى عصابة فانسي في ملابسهم الفاخرة، وأحدثوا إيقاعاً بكعوبهم المطقطِقة. شارع دي فاليرا هو المركز الذي يصبّ فيه كل شيء، حيث تتشابك كل الدروب وتنعقد. نعم، ها قد وصل لوغان هارتنت في صخب بعد الظهر. بدا... أنه الآمر الناهي. وكانت الابتسامات الباردة الّتي راح يوزّعها أشبه بوميض المصباح الكشاف. ميّز من دَرجوا على ارتياد شارع دي فاليرا. رأى امرأةً مقرّبة مسنّةً هزيلة من ترايس تجرّ كلباً في عربة أطفال بإحدى ذراعيها، وتمسك بملفوفة بالذراع الأخرى، فمال إليها أثناء مروره، وقال: «مرحباً ماغي، إنك تفطرين القلوب، أليس كذلك؟».

عند العصر، يصبح لوغان شبه عاطفي. وهو ما عرفه به الجميع. يهمس إلى محبّيه، كما لو أنه لم يرَهم منذ سنوات:

قرب صيدلية «هندرسون» يقول: «كيف حالك الآن يا «دنيس»؟ هل من أخبار عن مريضك؟».

قرب متجر «ميهان» للأسماك واللحوم، يردّد: «هل تحسّنت رئتك سيدة «نوت»؟».

قرب «أولد ترواينغل»، يسأل: «متى ستزيل الضمادات يا «ترنس»؟».

يرتدي بزّة سوداء، أنيقة في قَصّتها، أضاء لونها شحوبه الشديد. مشيته؟ ملكية للغاية، وكان قد اقترب كثيراً من مقهى أليادوس.

يتعرّج شارع دي فاليرا من قاعدة نورث سايد رايزس نزولاً إلى النهر. وهو يفصل باك ترايس عن نيو تاون. إيجاراته زهيدة

وميسّرة. تظهر مؤسساته التي لا مبرّر لها بين ليلة وضحاها وتختفي بالسرعة عينها. هناك عرّافون. هناك بائعو علاجات من دم الماعز للمشكلات الزوجية. هناك كهوف داكنة مخصصة لبيع أسطوانات موسيقى الكاليبسو ٧٨ القديمة. لدينا في بوهاين مهارة في الرقص، هذا إذا رقصنا في الأساس. هناك قارئو أكفّ. هناك متعهّدون يبيعون حقائب عدّة؛ سُلعٌ مخفّضة السعر تتدلّى من حقائب موضوعة على عربات الخبز؛ أقفاص دواجن حيّة، ومتاجر تذكارات مخصصة لتبجيل «المجير الحبيب»؛ بائعو أعشاب طبية وأكشاك خُضَر وأماكن للعب البلياردو. هذه هي حياة شارع دي فاليرا، ولوغان هارتنت هو مَن يبسط الآن سلطته عليه.

اقترب من «أليادوس». وراح الحشد يتباعد على شكل قوس أمام المدخل، احتراماً لهارتنت. لأليادوس مدخل من شارع دي فاليرا عبر الباب الأمامي، ومن باك ترايس عبر باب يطلّ على زقاق ضيّق. ما زال، بعد كل هذه السنوات، ملتقى فانسي هارتنت بعد الظهر. خفّض لوغان رأسه ليعبر باب الزقاق الضيّق الجانبيّ كما يفعل عادةً. إنّه مخلوق طقوس وعادات. جلس بعض شبّانه في الداخل مبعثرين إلى طاولات الزنك المنخفضة، يدخنون ويحتسون قهوةً من فناجين صغيرة بيضاء، ويأكلون بذور السمسم واليقطين من صحون خزف مصقولة رقيقة. يتنهّدون بفتور وهم يتصفّحون مجلاّت الموضة. لم يعُد أليادوس بإدارة عائلة ماكو، فقد توفّي والدها منذ وقت طويل، ولكن فيه جوّاً لا يزال يتوق بشكل ما إلى البلد القديم: *لقد حل تَوْقٌ دائم.*

جلس لوغان إلى طاولته المعتادة في مؤخر المقهى الطويل

الخافت النور. من هنا، يستطيع رؤية البابين بوضوح. كان حذراً. علّق سترته على مشبك مخصص للسُتَر على الجدار خلفه، حيث عُلّقت صور فِرق كرة قدم قديمة باهتة، من الأيام الخالية عندما فازت بوهاين بدوري إيرلندا. الساقية، التي كانت قبيحةً بالقدر الذي يستطيع توظيفها معه، لم يُرِد أن تلهي شبانه كثيراً، جلبت له قهوته، وصحن بزر، فابتسم لها شاكراً. انخفضت تمتمة الأحاديث بين شبان فانسي منذ أن دخل لوغان المقهى. ابتسم لهم جميعاً. وزَّع ابتسامته على مدار القاعة؛ أشبه ببشرى كهنوتية، لكنّها لم تنطلِ على أحد ولو لدقيقة. فثمة فوارق لا تكاد تلحظ بين ابتسامات لوغان. وكانت تلك الابتسامات تتنوّع، وتحمل رسائل مختلفة وأخباراً في كل مرة، مع تغير نصف درجة هنا، ونصف درجة هناك؛ وتتعدَّل بدقّة، وهي تستقرّ على الأفراد المختلفين في القاعة.

لن تشك أبداً في مرتبتك الحالية في صفوف عصابة هارتنت فانسي.

نقر لوغان فنجان قهوته بظفر إصبعه. فأحدث صوتاً حادّاً مرضياً. ثم تنهّد طويلاً بألم. تفحّص أظفاره. يجب أن يقلّمها قريباً. ترك طبقة سطحية صقيلة تخيّم على ملامحه النحيلة. وكأنّه أراد توكيد مدى تفانيه إلى حد الشهادة من أجل المدينة.

كانت العادة في فترة بعد الظهر في أليادوس أن يجلس السائلون على كراسيّ مرتفعة إلى البار بانتظار أدوارهم المحدّدة لكلامهم الوجيز مع لوغان. وكان هارتنت يرفع حاجبيه الشاحبين قليلاً مشيراً إلى إمكانية بدء الحديث. كان بعد ظهر هذا اليوم هادئاً. انتظر هناك

رجُلان فقط. أشار لوغان إلى أوّلهما بالاقتراب، واللحّام الفائق النحول «جير ريد» هو الذي اقترب بحزن عابراً الأرضية المبلّطة.

لطالما حذّر لوغان من اللحّامين النحيلين.

سُمح لريد بالجلوس إلى جانبه. جلس على طرف الكرسيّ، وعن قرب، بدا كرجل فارقه السلام مؤخراً. أخذ لوغان يده وأمسك بها بلطف، وقال: «ألستَ بخير أيّها اللحّام؟».

«لستُ بحال جيدة أبداً سيد هارتنت».

«أيّها المسكين!».

رفع اللحّام عينيه، وكأنّ لغز مصيبته مكتوب في الأعلى، على سقف أليادوس المدخّن، وقال: «لديّ... مشكلة يا سيدي».

«أعلم هذا يا جير».

«ما يجري يا سيد هارتنت هو...».

«أعرف يا جير».

لم يفلت يد اللحّام، ولامسها برقّة كبيرة، وحدّق إلى اللعين المسكين، وقال: «إنّها زوجتك يا جير. إنها «إيلين». إنّها تتقرّب من «دسي كانتيلون». أليس كذلك؟».

قطّب ريد وجهه لئلا يبكي. اكتمل ذلّه بمعرفة الناس مشكلته.

فسأل لوغان: «مع نسيبك يا جير؟».

تجشّأ ريد بشدّة مع تنهّده العميق المتقطّع. لفّ لوغان ساعده

حول كتفَي اللحّام الهزيلتين. لاحظ كيفية اهتزاز كتفيه، وهبوطهما مع النشيج، واستمتع بهذا الشعور.

فقال اللحّام: «هذا ما أعانيه الآن يا سيدي!».

فقال لوغان: «يا ابن مجيرنا الحبيب، يا مسكين... دسي دسي دسي... دسي... تحت في سوق السمك، أليس كذلك؟ آه... لا يمكنك الوثوق أبداً ببائع سمك يا جير ريد. هذا ما أقوله دائماً. هذه نصيحتي لك. إنها الطريقة التي ينظرون بها طوال اليوم إلى أعيُن الأسماك البرّاقة الصغيرة الميتة. فكيف سيخرجون من ذلك بكامل رشدهم؟».

فردّ اللحّام: «لم أعلم بذلك سوى الأسبوع الماضي سيد هارتنت... لم أنَم».

«وأنا لم أعرف سوى منذ أسبوعين يا جير ريد».

اخترق الرجلَ ألمٌ كالسهمِ، لا وصفَ له. ابتسم لوغان وقد التمس بساعده صدمة الكلمات وهي تصعق جسم اللحّام الهزيل.

فقال اللحّام: «تنتابني أفكار سوداء سيد هارتنت!».

«أتخيّل هذا يا جير. أنا متأكّد من أنّه يضاجعها».

بكى اللحّام آنذاك من دون تحفّظ، وسأل: «هل تظنّ ذلك سيد هارتنت؟».

«إنّه أشبه بهرّ صغير أمام صحن حليب، هذا رأيي».

نهض اللحّام، وشدّ قبضتيه الصغيرتين القاسيتين، لكنّ لوغان أجلسه بلطف على الكرسيّ.

فقال اللحّام: «تنتابني أفكار سوداء لعينة يا سيدي! سوداء!».

وضع لوغان إصبعاً على شفتيه ونفخ بلطف، ثم قرّب شفتيه من أذن اللحّام وقال: جير ريد، أبعد هذه الأفكار من أجلي. هل تفهم؟ أنا سأهتمّ بالمسألة عنك يا جير».

«حقاً سيد هارتنت؟».

«نعم جير ريد. أنا سأهتمّ ببائع السمك. وأنت اهتمّ بالساقطة الخائنة التي تزوّجتَها».

انعكس نور أليادوس الخافت على جلده الشاحب. كان هيكله العظميّ بادياً، رمادياً تحت جلده، الآلة العظمية التي شكّلت لوغان هارتنت. ابتسم مطمئناً، وكان لابتسامته وقع في بوهاين. ثم قال: «لكن يجب أن نحترس يا جير، هل تفهم ما أقوله؟».

«نعم».

«فكّر. إن حلّ مكروه بأحد أنسبائك، فعمّن سيبحث أولئك الشرطيون البدينون اللعينون؟».

«هل تعني أنّ الجميع يعرفون يا سيد هارتنت؟».

«كلاب الشارع تعرف يا جير ريد».

«آه سيد هارتنت...».

خفّض اللحّام رأسه وتسارعت الدموع على خدّيه، وتساقطت نحو طاولة الزنك، لكنّ لوغان التقطها دمعةً تلو الأخرى وهي تقع وسأل: «أين سيحشر رجال الشرطة أنوفهم؟».

فقال «أفهم ما تقصده سيد هارتنت».

«سنهتمّ بالأمر يا جير ريد. ثق بي. الآن عُد إلى عملك، وانسَ المسألة كرجل طيّب، هل تفهم؟».

فأجاب «هذا صعب سيد هارتنت».

«أعرف أنّ هذا صعب يا جير ريد، أو أستطيع تصوّر ذلك».

«شكراً سيد هارتنت».

وقف اللحّام ليغادر فقال لوغان: «تعرف طبعاً يا جير أنّني سأعود إليك عندما يلزم الأمر».

«أعرف هذا».

«خدمة مقابل خدمة يا جير ريد».

«نعم سيد هارتنت».

هكذا كان مصير رجال المدينة يتقرّر. تثاءب لوغان هارتنت، وشدّ عضلاته، وحرّك نصف ملعقة سكّر أسمر في قهوته. هدأ أليادوس في لحظات العصر البطيئة. تكلّم شُبّان فانسي بكسل عن سفك الدماء والنساء وموضة البنطلونات. سرّح بعضهم شعر بعض، وجرّبوا أساليب تسريحات شَعر جديدةً. تأمّل لوغان لبعض الوقت،

وغرق في أفكاره الضبابية، ثمّ أعطى إشارةً جديدةً برفعة من حاجبيه. لم تكن مفاجأة أن ينهض الرجل التالي عن الكرسي المرتفع. إنّه «دومينيك غليسون» المعروف بـ «بيغ دوم»، رئيس تحرير صحيفة المدينة الوحيدة، بوهاين فينديكايتور. يعود الفضل بشكل كبير في إبقائها وحيدة في المدينة إلى لوغان هارتنت طبعاً. شعارها على الصفحة الأولى: «الحقيقة أو الثأر» فوق رسم غُرابين متناحرين.

كان دوم بديناً غير متناسق الوجه، يمشي بكسل. وبينما كان يمشي نحو طاولة الطويل، بدأ يتمتم بحزن، وكأنّه لم يعُد يتحمّل مكائد الحياة في المدينة. اقتصر غذاء دوم على اللحم، وبدا لونه القوي على وجهه. حمل معه كأساً صغيرةً من نبيذ الموسكات، وافتتاحية صحيفة الغد. وضع النسخة أمام لوغان، وجلس، وأخرج بتعالٍ منديلاً حريريّاً من داخل معطفه الخريفيّ البالغ ركبتيه، وجفّف جبينه العريض، ثم لهث بكآبة: «آه ذبحتي الصدرية!».

دفع لوغان النسخة جانباً بفارغ الصبر، وقال: «لخّص لي يا «دومينيك»».

مال الصحافيّ البدين إلى الأمام، واكفهرّ وجهه المتعرّق المبالغ في ردود فعله، وقال: «أريد الدفع في اتجاه رفض خطة تسيير ترام في بوفيستا، سيد هارتنت».

ارتشف نبيذه وطَرَف عينه بشدّة. حرّك أصابعه على الطاولة ووضعها على صحن بزر اليقطين. ضربه لوغان على أصابعه مبعداً إياها، فجفل دوم ونفخ على أصابعه واعتمد مظهر البراءة المعنّفة، ما اضطرّ لوغان إلى الابتسام، ثم سأل: «ما هي أسبابك يا دوم؟».

فقال: «أعني أنّ «نوب هيل» هي آخر منطقة بحاجة إلى ترام يا سيدي».

لطالما وُصِفَت بوفيستا بهذه العبارة في لغة صحيفة فينديكايتور العاميّة. وأكمل دوم: «فإن من الأفضل أن تنفق سُلطة بوهاين المال على تحسين قطار 'أل'، وخدمة الناس العاديين الشرفاء...».

قلّد دومينيك بأطراف أصابعه الكبيرة العزف على كمان صغير، وتابع: ... في نورث سايد رايزس.

فقال لوغان: «أنت رجل طيّب يا دوم. نريد الحفاظ على رفاهية رايزس».

«يجب أن يعرفوا أننا قلنا هذا طبعاً. لا أخشى أن تبدي السُلطة ذرّة من الاهتمام يا لوغان. ترام بوفيستا».

ضم يده الطرية على شكل قبضةٍ، وقال فرحاً: «إنّها مسألة مضمونة يا سيّدي».

«لديّ خبر سارّ يا دومينيك. لن نضطرّ إلى جرّ عظامنا العتيقة إلى أعلى ذاك التل القذر».

كان الصحافيّ يسكن طبعاً في قصر من قصور نوب هيل، فارتجف ارتياحاً، وقال: «رئتاي أشبه بزجاجتَيْ جعة مكسورتين بسبب هذه المسألة يا لوغان».

«إنك تعاني يا دومينيك».

«لا تقُل لي هذا سيّدي. مؤخراً، بدأت يدي ترتجف، هل ترى؟».

ومدّ دومينيك يده اليسرى، وهزّها دراماتيكياً.

فسأله لوغان: «هل يعقل أن يكون هذا بسبب الإفراط في الاستمناء يا دوم؟».

جحظت عينا الصحافيّ في نظرة غضب مختلَق.

«هل تخفّض نبرتك إن أعطيتك مالاً؟».

استند بيغ دوم إلى ظهر كرسيّه، وتنهّد بينما راحت عيناه الصغيرتان تجولان في أنحاء المقهى. عبّر في تنهّده عن رأيه الفظّ بالأمور: سيكون هذا المكان مكان موته. ثم قال: «ما أريد معرفته سيد هارتنت...».

«ماذا يا دوم؟».

«بخصوص مشكلة كيوساك».

فسأله: «هل من مشكلة مع آل كيوساك يا دومينيك؟».

فضحك دوم وقال: «ما نتساءل في شأنه يا لوغان هو إن كان هناك أمل في تأجيل المشكلات قليلاً».

«من تعني بـ «نحن» يا دوم؟».

تفرّس فيه غليسون ساخطاً وقال: «أنا أتكلّم نيابةً عن شعب بوهاين يا سيد هارتنت!».

مالَ لوغان إلى الأمام، ليقول له بصوت خافت: «لستُ أنا من يرسل شباناً ليموتوا عبر جسر المشاة يا دومينيك. لستُ أنا من يحرّض أهل المباني السكنية».

فتح دوم يديه ليُظهر باطنهما. أنّ بصوت خفيض، وانقلبت عيناه في محجريهما حتى لم يعد يبدو فيهما سوى البياض. وأشار في ذلك إلى سياسة المدينة الدقيقة والإرهاق الذي يُحدثه هذا العمل لدى شخص صادق. وقال: «أعرف أنّهم مفتعلو مشكلات يا هارتنت ومتغطرسون لعينون أيضاً. ولكن كل مانقوله...».

قاطعه لوغان قائلاً: «'نحن' من جديد يا دوم؟».

فردّ بيغ دوم: «حسناً سيد هارتنت، في الحقيقة، أنا أمثّل رجال السُلطة».

فقال لوغان: «آه، فهمتُ الآن».

«سُلطة بوهاين في مرحلة حرجة من المفاوضات مع مناطق ما بعد بوهاين سيد هارتنت».

«أظن ذلك».

«لقد جلبت مناطق ما بعد بوهاين علينا المشكلات هذه السنة يا هارتنت».

«أفهم أنّ هذا ما يحدث».

«وآخِر ما نريده الآن هو أن يحاول نصف المدينة ابتلاع نصفها الآخر. سُمعتنا سيّئة كفايةً يا لوغان».

«تعني أنّ السُلطة تريد الحفاظ على الهدوء يا دوم، إلى أن تُضبط مناطق ما بعد بوهاين؟».

«أحسنت القول سيد هارتنت».

شبك لوغان أصابعه الأنيقة تحت ذقنه وقال: «أنا منطقيّ يا دوم. ولو لم أكن كذلك لما بقيت على قيد الحياة إلى الآن. مشكلتنا الوحيدة هي أنّ ثمة مجنوناً في رايزس يقود عدداً هائلاً من التابعين. ولا يمكنني أن أتراجع أمامه».

فقال بيغ: «أعرف هذا جيداً يا لوغان».

«وثمة ممسوس لعين في بيغ نوثين ينفّذ المخطط الخاص به».

«تعني غانت برودريك».

«بالفعل يا دومينيك. إليك ما سأقوله. إن أردتَ أن يدوم الهدوء لبعض الوقت، فسأؤدّي دوري، ولكنَّ لي شرطاً».

«ما هو، سيّدي؟».

«أريد رأس غانت».

تصارع الصحافيّ البدين مع أفكاره، محاولاً التهرّب من المسألة، وقال: «لوغان... لغانت تاريخ طويل في نوثين...».

«لديك معارف هناك يا دوم».

«صحيح لكن...».

«سأرسل شبّاني. يجب أن يلتقيهم أفضل معارفك. ومن المستحسن أن يطلعهم على موقع غانت المحدد يا دوم. يجب أن نحدّد الحجر اللعين الذي يختبئ تحته، مهما يكن».

ارتجف فكّ دوم السفلي، وقال: «سيد هارتنت، للناس ذاكرة مديدة في بوهاين. إن تأذّى غانت...».

«أريد رأس هذا الضخم يا دوم، هل تفهمني بوضوح؟».

«بوضوح صوت أجراس الكاتدرائية سيد هارتنت».

«جيد، هل لدينا أعمال أخرى؟».

ابتسما وتصافحا، وغادر الصحافيّ. مدّ لوغان يده إلى سترته، وأخرج من جيب صدره منديلاً أحمر ومسح يديه. ثمّ أكل البزر، واحتسى القهوة، وفكّر في المدى الذي سيصل إليه بتلاعبه. ابتسم لشبان فانسي الذين حدّقوا إليه في نظراتهم ودهشتهم وحيرتهم المعتادة.

يوم يستطيعون فهم ما يفكّر فيه هو اليوم الذي يخسرهم فيه.

موعد بيغ نوثين

اليوم، يكون قد مرّ يوم على قيام شابين يُدْعيان «وولفي ستانرز» و«فاكر بورك» بعبور «هاي بورين». بورين هو الممر الأساسي في خرابة بيغ نوثين، وهو طريق مزدوج إسمنتي يمكن عبوره مهما تكن حالة الطقس. تؤدّي دروب صغيرة منه إلى التلال والمستنقع، نزولاً إلى ممرات ممتلئة بالشوك يسكنها أشخاص منهكون في أكواخ تراخت جرّاء الرطوبة والخيبة والحزن. كان المطر ينهمر بغزارة في حين راح الشابان يمشيان بتثاقل كئيب، ولم يكن المطر غريباً عن المنطقة. اقتربت كتلة ممتدّة من السحاب المنخفض آتية من الأطلسيّ، وأسقطت مطرها عندما بلغت سفح مرتفع نوثين. نبض المستنقع حياةً وفتح فاه توقاً إلى المطر. خاض الشابان في الوحل ونظرا باشمئزاز إلى أثر الوحل على حذاءيهما العاليين. انهمر المطر الفضيّ اللون بحُريّة على طول مجاري التلال وغذّى البحيرات الصبورة وأتخم حقول الخشخاش. حتى في وسط المطر، سطع نور الشمس من وراء طبقة السحاب. كان يظهَر لبضع ثوانٍ كل مرة، خجولاً كالأطفال، ويعرض ألوان المطر. تلاشى صفار الوزّال في ذكرى ذلك الصيف. عمّ صمت عميق أراضي الغجر، المعروفة

بـ «الريز» في لغة بوهاين؛ صمتٌ مشؤوم للغاية. احترس الشابان من أراضي الغجر الشرقية، فلا أحد يعرف ما قد يسقط عليك من ذاك الاتجاه.

قال فاكر: «أحاول أن أُجيل هذه المسألة في رأسي».

وولفي: «ها نحن ذا».

«كيف لنا أن نجد ذلك الضخم يا وولف؟».

«سيحدّدون لنا مكانه يا فاكر».

«لكن يا وولف، لا نعرف أيّ شيء في نوثين، هل تفهمني؟».

«اصمت فاكر».

كان الشابان مساعدَيْ هارتنت فانسي المتجوّلَين. لم يكن المزاج جيداً.

قال فاكر: «ولكن يا وولفي، أعني أن بيغ نوثين منطقة كبيرة، هل تفهم؟».

فعلاً، فقد شكّلت امتداداً واسعاً. تمايل القصب الذي يحدّ البحيرات الصغيرة بشكل طفيف مع نسيم الهواء الناعم. بيغ نوثين منطقة أشواك وصخور وحُفَر مستنقعات تبتلع الجميع فجأةً. فيها حقول أرزّ صغيرة لا تُحصى. الحقول مقسّمة بجدران حجرية بلا ملاط، متعرّجة وسيّئة البناء، تميل إلى الانهيار الكلّي عند ثلثي عرض الحقل. بُنِيَت هذه الجدران بكسل. لم يبنِها المَشيَخيّون المسيحيّون.

قال فاكر: «ما الذي نعرفه عن ذلك الضخم؟».

أجاب وولفي: «غانت برودريك، نصف غجريّ ونصف أبيض. غاب عن بوهاين منذ وقت طويل. كان هو مَن يدير الأمور قبل لوغان. كان يواعد زوجة لوغان، هل تفهم؟».

أدار فاكر عينيه ممتعضاً، وسأل: «أصحيح ما يقال من أنها كانت حسناء في صباها؟».

«ولا تزال إلى الآن يا فاكر».

«أوافقك الرأي».

«ما كنت لأغادر سريرها، مهما تكن المغريات».

«طبعاً يا وولف. فلديها في عينها حَوَل شهيّ».

توقّف وولفي وفاكر للاستراحة قليلاً عند جدار حجريّ. دخّنا واستمتعا بالمنظر. على مسافة غير بعيدة، سار مجموعة شبان قرويين في حقل صغير. وهم يستعدّون لاختبارات الشرطة التي باتت وشيكة؛ وسوف يقفزون، كشرط للانخراط في السلك، عن بوابة مزرعة لها ستة قضبان كالتي يصنعها غجر الرمال الذين يقطنون التلال الرملية من جهة المحيط. ركض الشبان في خط متعرّج حول محيط الحقل غير المنتظم، وكانوا يخرجون الواحد تلو الآخر من الخط، ويركضون نحو بوابة الحقل ويقفزون فوقها. تعرّضت الرُكَب والمرافق والذقون للإصابات. شرطة بوهاين مكسب رزق للناس.

قال وولفي ستانرز: «إنها مجموعة ذكية».

فردّ فاكر بورك: «بل الأفضل في العالم».

كان وولفي وفاكر بطبيعتهما من أولاد المدينة. لم يألفا حياة البرية. لو عاد الأمر إلى فاكر، لجلس عند مربط حبال القوارب في واجهة بوهاين المائية مع غليون حشيشة ونظرة شديدة خطيرة مدرّبة على السير النهري. ولو عاد الأمر إلى وولفي، لقام مع شرطة فانسي بدوريات في ترايس وسموكتاون وجال في شوارع المدينة الأسمنتية، وقتل المشاغبين النوريين.

قال فاكر: «هذا يخيفني يا وولف».

وولفي: «هذه هي بيغ نوثين اللعينة، أليس كذلك يا فاكر؟».

نهض الشابان على مضض، وعاودا السير على طول هاي بورين. توغّلا في أراضي نوثين البور. بلغا منعطفاً قادهما إلى ممرّ جرف يحدّ ربوة غرانيتية. بدا هذان الشابان كمهرّجين في سهول المستنقع.

كان فاكر ينتعل حذاءً عالياً فضيّاً، ويرتدي بنطلوناً ضيّقاً مرقّعاً مع حزام يتدلّى منه خنجر، وتغلّفه سترة طويلة من جلد الخروف المصبوغ بالزعفران. كان طويلاً وغير متّسق كالأعشاب الضارة. كان عاطفياً بشكل مدهش، وعنيفاً بمقدار عاطفته. أما عيناه الخضراوان العدائيتان فزهرتان غريبتان فعلاً. كان في السابعة عشرة من العمر ويقرأ معاني سحرية في ظهور أو تتالي الرقم تسعة. امتلك طموحاً دفيناً، لكنّه عجز عن التعبير عنه. حبّه الحقيقيّ: كلبة مزاجية من نوع الراعي الألماني تسمى «أنجلينا».

وكان وولفي ينتعل حذاءً عالياً أسود ويرتدي بنطلون جينز ضيّقاً مبيّضاً مع سترة متطابقة، ويضع حزام خنجر فوقه معطف كرومبي

بحريّ الزرقة، له طوق مخمليّ أسود. وولفي قصير القامة، مكتنز، أصهب، تُحرّكه طاقة كبيرة. يحدّق كشحرور جاحظ العينين، غدّته الدرقية بارزة، ومع أنّ عرض جبينه لا يزيد على بوصة إلاّ أنّه ممتلئ بدهاء جرذان الأزقّة. كان أيضاً في السابعة عشرة، وأحياناً، تخامرُه مشاعر غريبة تحت ضوء القمر. أراد امتلاك مدينة بوهاين بكاملها. حبّه الصادق الجديد: الآنسة جيني تشينغ من عصابة هارتنت فانسي ومن مقهى هو بي شينغ أو - كاي.

سأل وولفي: «إذا ذهبنا إلى ذاك الطرف من التل، فهل سنرى المكان؟».

ردّ فاكر: «أنت تسأل الشخص غير المناسب. وكأنّني أعرف المستنقعات اللعينة».

كانا متوجّهَيْن نحو حانة عند جسر الأميال الثمانية. من المقرر أن يلتقيا واشياً هناك. سارا في الهواء الرطب.

فقال فاكر: «إن سألتني رأيي...».

ردّ وولفي: «لم أسألك رأيك».

«إن سألتني رأيي، أقول إن لوغان هارتنت أصبح مصاباً فعلاً بجنون الارتياب».

«لطالما كان لوغان هارتنت شديد الارتياب، فاكر. لا يمكنك إدارة بوهاين من دون أن تكون كذلك، هل تفهمني؟ هكذا يبقى على قيد الحياة».

هزّ فاكر قبعته متحيّراً وقال: «لكن ما الذي سيفعله الوغد غانت به؟ من يستطيع أذيّة لوغان؟ إنه محميّ جيداً».

فقال وولفي: «ليست وظيفتنا معرفة السبب يا فاكر. نحن لسنا سوى مأمورَين.. حتى الآن».

وصلا إلى نهر بوهاين الذي تصبّ فيه مياه المستنقع مباشرةً، فالنهر ماء أسود لزج يُصدر خريراً مضطرباً. أصغى فاكر بقلق وهما يتابعان المسير، ومرّر طرف لسانه على شفتيه المرتجفتين المتوتّرتين. وعبّر عن قلقه الملحّ: «هل أصبحَت علاقتك بجيني جديةً مؤخّراً يا وولف؟».

«نحن معاً يا فاكر».

«عرفتُ هذا، فلم أعد أراك كثيراً في الجوار مساءً».

«هل تشتاق إليّ يا فاكر؟».

«إنّها جميلة. لا ألومك يا فتى».

«سأنجب طفلاً منها بلمح البصر».

«حقاً؟ صينية مع أصهب؟ سيكون طفلكما غريب الشكل، أليس كذلك؟».

«توقّف فاكر».

تابعا المسير نحو الامتدادات الصخرية. وجرى النهر، ولاح مرتفع نوثين في ضباب رماديّ، وتمايل الورد البريّ ملامساً رأسَي الشابين، فبلغا أخيراً جسر الأميال الثمانية.

قال وولفي ستانرز: «هذا مركز الوشاة».

جلست مجموعة من السكارى تحت قناطر الجسر الصخرية الكبيرة. احتسوا نبيذهم المصفرّ. أناس بائسون بقبعات صبيانية وبنطلونات ضيّقة رثّة وقمصان قديمة. حدّق إليهم الشابان، وهما يمرّان بمحاذاتهم.

قال فاكر: «من المريع أن ترى أشخاصاً يدمّرون أنفسهم».

«مشكلتهم نقص احترامهم لذواتهم».

نزلا بضع درجات حجرية منقوشة إلى الحانة القديمة: حانة جسر الأميال الثمانية. كانت منخفضةً عن ضفة النهر، لتفادي هجمات الرياح الشديدة. لم تُضِئها سوى نيران الموقد، فضيّق الشابان أعينهما في الظلام، وهما يدخلان الحانة.

أقفِل الباب خلفهما بقوة مُحدثاً صريراً، فتصاعد بخار أشبه بالأطياف الصغيرة المتطايرة من معطفيهما الرطبين في حرّ الحانة غير المهوّاة.

تكيّفت أعينهما، ووجدا الواشي في زاوية بعيدة. كان يقرأ صحيفة الفينديكايتور مثلما كان متّفقاً عليه. أومأ بها حين دخل الشابان. كان عجوزاً متوتّراً محني الكتفين. أمامه كوب كبير من البراندي. بعض محتسي المشروب المسنّين القاطنين المنطقة المعتمرين قبعات مسطحةً تبعثروا في الزوايا الخافتة النور، لكنّهم لم يرفعوا عيونهم. عبر وولفي وفاكر الغرفة، وجلسا على كرسيين مرتفعين إلى جانبيِ الواشي. طلب وولفي كأسَي ويسكي من نادلة

بيغ نوثين البدينة التي تقف خلف المنضدة. قدّمت إليهما الكأسين ببطء وكسل. لا شكّ في أنّها تفكّر في الانتقال إلى المدينة يوماً ما. تجاهل الشابان تحرّكها المتوتّر بشكل واضح. في النهاية، تكلّم وولفي مع الواشي هامساً جانبياً: «قيل لي إنّ الصحافيّ أعلمَك بما يجري».

أجاب الواشي: «نعم، أعلمَني السيد غليسون».

«إذاً هل تعرف سبب وجودنا هنا؟».

«للنيل من رأس أحدهم».

«وهل أنتَ من سيسلّمنا رأسه؟».

«لقد شوهد الرجل الذي تبحثان عنه».

«متى شوهد؟ وأين؟».

«إن قلت بيغ نوثين هل تعني لكما شيئاً؟».

كرّر فاكر السؤال: «متى؟ وأين؟».

«يخرج للمشي ليلاً».

«إلى أين يخرج؟».

«للتسكّع».

فغضب فاكر، وقال: «أين يتسكّع بحقّ الجحيم؟».

«يمشي في نوثين».

تدخّل وولفي قائلاً: «ألا تعلم أن بيغ نوثين اللعينة منطقة شاسعة؟».

فاكر: «أين يبيت؟».

الواشي: «هذا غير معروف».

رفع الشابان أيديهما، ونظر أحدهما إلى الآخر. أغواهما سفك الدم، لكنّهما اتّخذا جانب الحيطة جرّاء التقرير الذي عليهما تقديمه إلى لوغان هارتنت. عرف الواشي هذا جيداً. فالوشاة بالغو القذارة.

لم يحرّكْ فاكر ساكناً، وعضّ شفته السفلى. وولفي، الأكثر دبلوماسيةً، غيّر أسلوبه قائلاً: «هل ترغب في أمر ما من سموكتاون يا سيّدي؟».

أجاب الواشي: «الآن، بدأ عرضك يغريني».

وولفي: «وما الذي يثير اهتمامك في الجهة الأخرى من جسر المشاة يا سيّدي؟».

تلألأت عينا العجوز، وقال: «حلمي منذ وقت طويل أن أضاجع عاهرةً نحيلةً».

هزّ وولفي رأسه برزانة، وكأنّه يقدّر ذوق الواشي الرفيع وقال: «أخبرنا عن موقع الرجل؛ ويمكنك الاختيار بين العاهرات النحيلات. يمكنك مضاجعتهنّ طوال هذا الفصل».

الواشي: «طوال الفصل؟».

فاكر: «سيكون شتاؤك دافئاً. ستغطّيك العاهرات النحيلات وستدخّن غليون الأحلام، هل تفهمني؟».

تنهّد الواشي المسنّ، وهو يتصوّر تلك التجربة أمام عينيه البرّاقتين، وقال: «ربّاه! لطالما عذّبني حلم الأفيون...».

ضايقه فاكر قليلاً، فقال: «حالما تفرغ من غليون الأحلام، ستكون هناك حشيشة بقدر ما تستطيع أن تدخّن».

وأضاف وولفي: «كل هذا يعتمد على مساعدتك لنا، لنجد مرسى الرجل، أفهمت؟».

تأمّل الواشي في ما تبقّى من البراندي.

أداره.

ارتشفه.

هزّ وولفي رأسه للنادلة كي تجلب له كأساً أخرى. فجلبَتها. ابتلع الواشي جرعةً جديدةً، وتلذّذ بها، وجعّد فتحتَي أنفه برقّة وقال: «الرجل الذي نتكلّم عنه رجل محترم جداً هنا في نوثين. ما زال لديه الكثير من الأصدقاء هنا».

فأجاب وولفي: «أفهمك يا رجل».

تابع الواشي: «رجل كهذا؟ رجل له تاريخ عريق في بيع نوثين؟ أيعقل أن يسلّم رأس رجل بهذا الموقع إلى اثنين من قوّادي فانسي؟... لا أقصد الإهانة».

وضع وولفي باطن يده على يد الواشي مسامحاً، وقال: «لم تُهنّا يا سيدي».

فتابع الواشي: «ما أعنيه هو أنّ مَن يشي بغانت بروديك هنا لن يكون مسروراً، هل تفهمانني؟».

وولفي: «لا تذكر اسمه».

فرك الواشي ببطء كفّيه الخائنين، كفّيّ يهوذا، الواحدة بالأخرى.

فسأل فاكر: «هل ستدلّنا على موقعه اللعين، أم أننا سنقضي طوال اليوم اللعين هنا؟».

وضع العجوز وجهه بين يديه. نظر بحزن إلى الشابين، ثم أومأ وعضّ شفته بشدّة. ثمّ هزّ إبهامه مشيراً إلى الخارج وقال: «انتظراني تحت ذاك الجسر بعد أسبوع من الغد عند الساعة الثالثة فجراً. ستكون ليلةً غير مُقمِرة».

الزمن الضائع: قصة حبّ

مرّت السنوات بسرعة طعنة خنجر، وأصبحَت هي في الثالثة والأربعين من العمر. كانت كل مساء تمشي في بوهاين نيو تاون، وعلى نحو شعائري، كأنّ كل خطوة قد تُبعدها أكثر عن الحياة التي اختارتها. لكنّها كانت تمشي دائماً في حلقات تُعيدها إلى المنزل. ارتدت ماكو دثاراً حريريّاً بلون أرجواني غنيّ، وشعرها الداكن مرفوع ملمّع، ومشيتها ملكيّة، وحول رقبتها طوق مرصّع بالجواهر بدا بصيصه الباهت متوهّجاً بلون أخضر ناعم في نور المساء.

في العادة، هذه ساعة نزهة نخبة بوهاين، ساعة يسير الموكب في «نيو تاون» بكثير من الأناقة والرفعة. كانت ماكو بين السيدات الرقيقات اللواتي ظَهَرْنَ بلطف على طول الشوارع الحجرية الملتوية الرمادية الجميلة.

في النزهة الدائرية:

قد تزعج إحداهن أنفها المرهف الذي ألف الروائح العطرة أن يشم روائح جبنة تاليدجيو المعروضة في متجر للجبنة المصنوعة بالطريقة الحرفية، أو قد تمرّر أظفارها على طول سطح خرطوم فضيّ

مشحون من لشبونة القديمة إن كانت الطريق مفتوحةً، أو قد تأخذ صحناً صغيراً من شاي الياسمين وحفنة سعوط برائحة الشمرة عند منضدة مصقولة من صوّان بيغ نوثين.

لكنّ لدى أولئك السيدات رغبةً، وهي رغبة في حياة الشباب الماجنة. في أولئك السيدات المسنّات إما دم من رايزس، وإما عظام من باك ترايس. إن معظم المال في بوهاين مال حديث، وكانت مسألة توجّه إحدى السيدات إلى قصر فخم في بوفيستا أو إلى جسر مشاة سموكتاون مجرد مسألة حظ. في المساء الحافل بالذكريات، سارت ماكو في نيو تاون، وكعادتها على هذه الطرقات، رسمت خريطةً لوقتها الضائع.

كان ذلك الصيف من تلك الفترات التي تحنّون إليها قبل انقضائها. سماء حزينة وباهتة. عواصف رعديّة في الليل. فجر نديّ الرائحة، صيف يبعث على الإغواء والتجربة والتوق والألم. علت موسيقى الكاليبسو الناعمة بصورة متواصلة من خمّارات باك ترايس غير المرخّصة. امتصّ فتيان فانسي غلايين الحشيشة في الزقاق خارج مقهى أليادوس. جال المشاغبون خلسةً قادمين من دوائر الأبنية السكنية في رايزس. وكان ثمة مسحة خطر مثيرة في الهواء.

مناوشات.

سفك دماء.

ثورة هرمونات.

كانت فانسي ترايس آنذاك تحمل اسم غانت برودريك. كان هذا هو اليوم في بوهاين - ابتسمَت الآن حين تذكّرت - كان فتى فانسي ينتعل حذاءً ثقيلاً مطقطقاً مع جوربين قرمزيين مرفوعين إلى أعلى بطّتيه، وفوقهما بنطلون شبه قصير، ويعتمر قبعة من التويد يُدار مقدّمها إلى الخلف، وسترة من القماش لمتعهّدي تفريغ السفن مع بريم فوسفوري. شعره مسرّح إلى الخلف، بالجيل مع خصلة فوق الجبهة - لا بدّ أننا كنا نظهر بمظهر سفلة أقوياء حقيقيين - وحول عنقه غليون حشيشة فضيّ صغير مربوط بشريط جلديّ.

كانت أم ماكو قد توفّيت آنذاك، وحالة والدها تتدهور. حيث بدا لون جلده يميل إلى الاخضرار تحت أنوار أليادوس الخافتة. كان يجفل دائماً، ويمدّ يده إلى أسفل ظهره. اهتمّت ماكو بالمقهى، وبرعت في الردّ على فتيان فانسي الذين هدروا أوقاتهم هناك.

استندوا إلى منضدة أليادوس النحاسية، ونظروا إلى ماكو بعيون حالمة. هي نحيلة وفي السابعة عشرة من العمر وتعمل وهي تنتعل حذاءً عالياً مزدوج النعل. بنظرة حادة من بين رموشها تشقّ أرواح الشبّان وتفتحها. بكلمة لاذعة تجعلهم يئنّون، تُفقِدهم وعيهم وتُذهلهم. كانت ماكو الجائزة الكبرى ذاك الصيف في عمق وقت بوهاين الضائع.

كان غانت شاباً قويّاً وذكيّاً كمجموعة أفاعٍ، وعاطفيّاً أيضاً. وصل من أراضي البور في بيغ نوثين. وكان من المعروف في بوهاين

أنّ فيه مزيجاً من الدم الغجريّ. فتى من أرض الغجر؛ دماؤه من دماء أولئك الذين يتحلّقون حول نار المخيّم.

انظروا إليه آنذاك:

ضخم مع عينين عميقتين وذقن مربّع. قاتم الشعر وشاحب. من الفتيان الذين لا تعيبهم الكدمات. بعض شعره منسدل فوق جبينه العريض.

حذّرها والدها، قائلاً: الغجر مختلفون. وأدّى التحذير إلى زيادة الإثارة؛ لا يتعلّم الآباء أبداً.

مضغ غانت بعض التبغ عند بار أليادوس ذات ليلة، وغمزها، وقال لها: «ماذا يدعونك يا فتاة؟ ماكو، أليس كذلك؟».

فأجابت: «ابتعد يا فتى، أنت تفسد هوائي، أفهمت؟».

تصرّف غانت في أليادوس وكأنّه رجل أكبر سنّاً. تمضي ليالي الصيف في بوهاين، مع المزاج الثائر، والشجارات في الأزقّة. وكان هو يخسر بعض شبّانه الذين يطعنُهم المشاغبون الشماليّون بخناجرهم. رمى هذا بثقله عليه.

رمق ماكو بنظرة حزينة.

فأعادتها إليه مباشرةً.

كانا شابين حسني الطلعة، في مدينة قاسية على البحر، حيث النهار كئيب والليل عذب، وكأنّ الصيف لن ينتهي أبداً.

سألها: «هل لديك يوم عطلة يا ماكو؟».

لم تصدِّقْ خجله. كان يدير الأمور في المدينة، لكنّه احمّر خجلاً أمامها.

فقالت: «لا يجذبني أمثالك».

أجاب: «أرى هذا يا فتاة».

فقالت: «أنا منشغلة، تعرف ...».

فسأل: «لكن ألا تتنزّهين من حين إلى آخر؟ نزهة عند النهر يا ماكو؟».

لم يُظهر أيّ وقاحة عندما كلّمها. أحبّت كلامه المعسول الغجري الطابع. أحبّت روايات بيغ نوثين المتخيلة والبعيدة عن الواقع، والتي يحيكها وينسجها غريبو الأطوار الذين هاموا هناك، والتي تتحدث عن المسارات التي أوصلَت إلى عالم بوهاين السريّ، من علاجات ولعنات، ومن رسائل مكتوبة بالأبراج الفلكيّة على السماء الليليّة. مشى غانت مثقَلاً بحِمل نوثين. شعرت أنها أصبحت كبيرة، وهي تمشي مشياً بطيئاً في «ترايس بوهاين» إلى جانبها غانت.

قال: «لستُ أبحث عن فتاة سهلة».

أجابت: «لم تجدها».

غالباً ما تكلّم عن وصمة المدينة. وغالباً ما تكلّم عن حدسه، وإنّ هذا قد أتاه كارتجاف بارد في أسفل عموده الفقريّ، وذلك في الساعة التي سبقت الفجر. وقال إنّه لو بقي في عالم بوهاين لكانت

نهايته تعيسةً بالتأكيد؛ وإنه لن ينكر ذلك، فهو يشعر به، حتى إنه يجري في عروقه.

قالت: «تبدو لي أنّك فتى غجري خائف». ومرّرت أطراف أصابعها على طول تجعّدات عنقه المنحني.

أجاب: «أنا أشعر بهذه الأمور».

جرى نهر بوهاين أسود داكناً. وقعا في سحره. أصبح أمراً علنيّاً في ترايس ذاك الصيف أنّ ماكو من أليادوس حبيبة غانت برودريك. قال لها إنّه يحبّها، وإنّ حبّه قد أدّى إلى تعاظم الخوف في داخله.

«لم يكن لدي شيء أخسره في السابق».

«أنت تحطّم قلبي اللعين يا فتى».

«لا أريد تفويت رؤية ما ستصبحين عليه».

أخبرها بأنّهم قد بدأوا فعلاً بالتآمر عليه في فانسي؛ وأنّه يحذر جانب أكثر من شخص واحد.

سألته: «مثل من؟».

فأجاب: «مثل الفتى النحيل، تعرفين مَن أقصد».

تكلّم عن هجر شبه الجزيرة. وطلب إليها أن ترافقه.

فسألته: «لكن إلى أين نذهب يا غانت؟».

«قد... نعبر إلى الجهة المقابلة».

«إلى تلك المنطقة الغائمة اللعينة؟».

«لن أذهب من دونك يا فتاة».

«لا أعرف يا غانت...».

«يمكنني ترتيب الأمور. يمكنكِ أن تلحقي بي...».

في نيو تاون، أثناء النزهة، نظرت بحذر خلفها. لقد فهمت، واتّضح الأمر: لم يلحق بها مستطلع من فانسي اليوم. توجّهت إلى أكثر مقاهي إنديفر أفنيو هدوءاً. انتظرها أُول بوي مانيون هناك على كرسيّ مرتفع. ابتسم، لكنّها لم تبادله الابتسامة.

سألته: «ما الأمر أُول بوي؟».

«أظنّك تعرفين، وإلاّ لما أتيتِ».

«لن أراه يا أُول بوي».

فمرّر لها الرسالة قائلاً: «اقرئي ما كتبه لكِ يا ماكو».

ليلة في نوثين

منتصف الليل.

بيغ نوثين.

منزل متنقّل.

كانت جيني تشينغ عاريةً على الأريكة.

كان المنزل المتنقّل يتألّف من وحدتين من الألمنيوم، ويبلغ طوله اثنتين وعشرين قدماً، ويحوي سريراً قابلاً للطيّ، وموقداً أشبه ببرميل، ورائحة حزن شديد، وأرضيّةً خشبيةً تُحدث صريراً، وغانت برودريك. كان غانت أيضاً عارياً يُجهِد نفسه، مغمضاً عينيه بإحكام، ليتذكّر أحلك أيام حياته المظلمة، لئلاّ ينتشي.

كانت الرياح تشتدّ وتثور في الخارج فوق المستنقع، وتنفخ في قسطرة الموقد فتسمع ما يشبه الكلام، أو لعلّها تهديدات بصوت مخيف أجوف: أغنية مرعبة في أذنيْ غانت، وهو يقوم بحركة الولوج متجهّماً.

كانت جيني تشينغ جاثية على يديها وركبتيها، ومؤخرتها النحيلة

في الهواء، وفي فمها غليون حشيشة نحاسيّ. رمت غانت من فوق كتفها بنظرة ملل. بدا وكأنّ قلبه سينفجر في أيّ لحظة. بدا وجهه بنفسجيّ اللون، مُبقّعاً، متعرّقاً.

قالت: «إذا أردتَ أن تستريح فما عليك إلا أن تقول لي».

لم يتحمّل غانت النبرة الساخرة اللذيذة فقذف. سقط على ظهره وشعر بالخجل. قلبه يخفق ككلب مسعور طليق في صدره.

تفقّدت جيني تشينغ ساعة الحائط، وقالت: «مرّت ثلاث دقائق كاملة، أنت تتحسّن قليلاً يا فتى».

استدارت، واتّكأت على مسند الرأس من الأريكة التي تحوّلت إلى سرير. ضمّت ساقيها نحو صدرها، وأعادت إشعال غليون الحشيشة. سحبت نفساً عميقاً، ونفثت دخاناً مخضوضراً. اختلس غانت نظرة إليها، فبادرته بابتسامةً ماكرة: «أهذا هو؟».

«ماذا؟».

«الغرام».

«كلامك ساخر جداً قياساً على سنّك يا فتاة».

وضعت قدميها الصغيرتين على صدره اللاهث. مدّ يده نحو قدميها فغطّتهما بالكامل. لوَت أطراف أصابع قدميها العشر مستهزئة وتنهّدت:

«ما الأمر «غانتي»؟ كفى كلاماً سخيفاً عن الاستقرار في الريف وزراعة الملفوف».

فقال: «لمَ لا أستقرّ يا جيني، وأريح عظامي المنهكة؟».

سحبت نفساً عميقاً من غليونها، وحبست الدخان في فمها، ثمّ مدت يديها، وقرّبت وجهه من وجهها، وضعت فمها على فمه، ونفثت الدخان بصفير حادّ.

تجمّدت تعابير وجهه.

سعل.

قال: «أنتِ لا توافقينني الرأي دائماً». تنهّد وتغيّر مزاجه.

مدّت يدها مجدّداً، وأمسكت ذقنه بيدها الحديديّة الصغيرة.

نظرت مباشرة إلى عينيه وسألته: «وما الذي ستفعله هناك تحديداً بحقّ الجحيم يا غانت؟».

«أنا من يُفترض به أن يطرح الأسئلة يا جيني».

«هل ستُحدّث حيوانات بنات عرس يا غانت؟ هل ستصطاد السمك؟».

«هل تحرّيتِ عن هذه الأمور يا جيني؟».

«كل ما أفعله هو التحدّث إليك. كل ما أفعله هو محاولة مُضِيّ هذا الليل المثقل بالوحدة، هل تسمعني؟».

«أنتِ تجيدين الكلام يا فتاتي».

كانت قصيرة القامة. رفعت قدميها عن صدره، وساقيها من ثَمّ، لتنهض عن الأريكة. سارت نحو باب البيت ورفعت المزلاج ودفعت الباب بوجه الرياح الشديدة. حدّقت في ظلام الليل. كانت دوّامة من نجوم السماء تلقي بريقاً خافتاً على المستنقع.

سألته من دون أن تنظر إليه: «هل تخطط لإلحاق الأذى بالأمهق يا غانت؟».

«وهل تظنّين أنني سأعترف لك بهذا المقدار؟».

«بحث مشاغبون عن الأمهق في السابق يا غانت. وهؤلاء الفتيان أنفسهم يرقدون في المقبرة. تشعر في ذاك المكان أن ضياء القمر مخيف، هل تفهمني؟».

أجاب غانت بابتسامة عريضة: «في أيّ وقت من المساء يأتي عادةً إلى سموكتاون يا جيني؟».

بادَلته الابتسامة عينها من فوق كتفها قائلةً: «هل أبدو لك كواشية؟».

«هل تضاجعينه يا جيني؟».

«هل تشعر بالغيرة يا غانت؟».

«أو بالأحرى، هل يضاجع أصلاً نساء فانسي؟».

«إنه لا يضاجع أيّ امرأة».

فقال متعجّباً: «حقّاً؟».

«زوجة السيد هارتنت تعتني به. إنّه يستفيد قدر المستطاع في بوفيستا من صاحبة العينين المحولّتين».

يا لها من امرأة خبيثة. عرفت إلى أين تصوّب، وأين تعضّ.

سألها: «حقاً؟ هل الزوجان هارتنت سعيدان؟».

هزّت رأسها، وأصدرت همهمة غريبةً فعرف الحقيقة بطريقة ما.

وقالت: «ثنائيٍّ سعيد؟ مَن يشعر بالسعادة في بوهاين اللّعينة؟ عليك البحث طويلاً عن السعادة هنا».

جمعت ملابسها وبدأت ترتديها على نور الشمعة الخافت الزيتيّ داخل المقطورة. لفحت هبات الرياح لهب الشمعة، فمال، ثمّ عاد ليستقيم ويعود إلى التراقص مجدداً.

كانت الفتاة غامضة برأي غانت الذي كان يعجز عن فهمها. لم تخبره شيئاً عن فانسي، ولا عن عمليات سموكتاون، ولا عن تحرّكات لوغان هارتنت. وبالرغم من ذلك، بقيَت قريبةً منه وزارته ووافقت على ممارسة الحب معه. يُقال إنّ ثمة قائمة طويلة من الأشخاص الذين ضاجعتهم الفتاة تشينغ. وكان غانت يميل إلى التصديق، لأنّ مذاقها يفضح ذلك.

سألها: «ألا يمكنك البقاء لبعض الوقت؟».

لم تتكرّم حتى بالردّ على سؤاله.

رحلت وخلّفت غانت متقلّب المزاج، ممدداً على الأريكة، واختفت في ظلام الليل مرة أخرى وعينا الهر ترمقانها. مشت بخفّة في نوثين، كما مشت في سموكتاون أو باك ترايس.

«راقِبها عن كثب يا غانت».

لكنّه استمتع بها رغماً عنه، وطلب المغفرة لاحقاً عندما راحت جدران المقطورة تصدر طقطقة مشؤومة ليلاً. من المريع أن يرغب المرء في الفتيات اليافعات، وهو في الخمسين من العمر.

تمدّد وهو مضطرب الأفكار لبعض الوقت. أفكاره تلك التي تحولت إلى طبق حساء قديم لا أحد يعلم مكوِّناته. نهض متعباً بعد هنيهة وارتدى ملابسه. أحسّ بألم في عظامه وبغبطة حزينة. خرج يتذوّق طعم الرياح. وصفّى ذهنه لبرهة. أغمض عينيه محاولاً استحضار الزمن الضائع لكنّه عجز عن استعادته. لن يسترجع المذاق الحقيقي أبداً. عرفه مرةً واحدة فحسب وكان ذلك مذاق ماكو.

لطالما مضى غانت بأفكاره حتى نهاياتها، وهو في أيّ لحظة، قد يتعثّر فيقع من أحد الأطراف ويسقط في الظلمة. وسرعان ما يجد نفسه منزلقاً على منحدرات الانفعال مجدداً. نحن نتكلّم طبعاً على نوع قاسٍ من الناس عموماً، إنهم أهل بوهاين الذين لا يعلمون إن كانت مشاعرهم الحارّة نقمة أم نعمة.

راحت موجات من صور الزمن الضائع تهاجمه بنوبات سريعة، يسترجع ماكو عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها: وهي تمشي معه. كيف كانت تحدّثه، شكل شفتيها عندما تتفوّه باسمه.

تابع المسير في الليل، وراح يهزّ رأسه الكبير الأشبه برأس دبّ، محاولاً نفض الذكريات، وبكى لوقت قصير، ثم ضحك ضحكة خافتة ساخراً من بكائه. يا لهذا المظهر الجميل الذي تَظهر به يا غانت! ويا لجمال اللعبة التي أقحمتَ نفسك فيها، وروعة اللاعبين معك!

t.me/ktabrwaya مكتبة

حذارِ يا غانت.

راح يسير في سهل نوثين. أعادت الرياح الشديدة بعض الحكمة

إليه. من مَطلّ مرتفع كانت ماعز وحشيّة تراقبه وعيناها تسطعان باللون الأصفر. حثّ غانت نفسه على التفكير بعقلانية. كان يشعر بوقع أقدامهما على الأرض التي سارا عليها معاً. راح يفكّر: «خطوتكِ هناك وخطوتي هنا. هذه خطوتكِ هناك وخطوتي أنا هنا، في تلك الأيام التي كنّا نسير فيها معاً في الخارج يا ماكو، في ظهيرة الزمن الضائع».

كان الحنين في شبه الجزيرة يغوي الكثيرين.

عاد غانت في بداية آب. ووقع فوراً ضحية ذكرياتنا الأصليّة القديمة. في أرض بوهاين، يتداعى الوقت وينساب بطريقة غريبة فيتسرّب الماضي إلى المستقبل، واللحظة الحاضرة التي تمرّ هي أصعب ما يمكن التقاطه. عاد غانت وفي جيبه بضع مئات، وهو ينتعل حذاءً مهترئاً، وكتفه نصف مهترئة. هذا كل ما عاد به بعد خمس وعشرين سنة من الغياب. يوم صيفيّ حارّ تلعقه نسيمات خفيفة والنسيم يراقص العشب الطويل هامساً أخبار نوثين الغامضة القديمة. جفّ المستنقع وفوقه خفق ضباب أسود متحرّك من النواميس. واستُنزِفَت البِرَك الموسميّة، وهبّ على التلال هواء سلام غريبٌ: هواء غربيّ عابق برائحة البحر التي لا تتغيّر أبداً. ترنّح الأفقَ بشمسه القاسية فوق حقول الخَشخاش، في حين كانت ظلال العمّال الكادحين منحنية فوق الغلال. ابيضّ النور على سهل نوثين، وتناهى إلى المسامع نوح أغنية «فادو» من البعيد، من مكان ما في أرض الغجر. تقرّحت قدماه.

راح يلهث وتقطّعت أنفّاسه وهو يجدّ سيره نحو مسكن أُول بوي مانيون الذي يقع على منحدر وادٍ. وفي حين كان يقترب بصمت من المكان، رأى أن الباب كان مفتوحاً. ذلك كان متوقّعاً أن يقضي أُول بوي الصيف في منزله بنوثين. مدّ غانت رأسه من الباب، واستند إلى حاجب الباب ليبطئ أنفاسه.

نادى: باني.

رفع أُول بوي نظره إليه من مقعده القابع في الظل الرطب الممتلئ ذباباً، ولم تبدُ على وجهه أمارات العجب.

«هل كنتَ تشعل العالم يا غانت؟».

رفع غانت عينيه، ووقف أُول بوي وهزّ رأسه متجهماً، وقال: «مَن فعل بك هذا؟».

قال غانت: «أنا السبب في ذلك».

«آه، هلا دخلت قبل أن تخيف البطّ اللعين؟».

جلس غانت في ظلّ المنزل، والتقط أنفاسه. لم يطرح أُول بوي أيّ سؤال، بل انتظر.

«هل تعرف أين يستطيع المرء أن يريح عظامه المتألّمة يا باني؟».

«دعني أرَ».

شغل أُول بوي نفسه. مزج في وعاءٍ على النار عصيدة الشوفان،

وأضاف القليل من ويسكي جايمسون إلى القشدة. أخلى مكاناً على الطاولة لغانت، وراح يراقبه وهو يقترب ببطء سائراً على البلاط.

«إمّا أنّك تداعيت قبل أوانك، وإمّا أنّ ثمة قصةً تستحقّ أن تُروى يا غانت».

ارتسمت تكشيرة على وجه غانت، وقال: «هذا ما يصيبك عندما يحيط بك الأنذال».

في حين راح غانت يأكل، تفحّص أُول بوي جرح كتفه، ثمّ أخذ عن الرفّ العلويّ زجاجة تحوي سائلاً كريه الرائحة، وسكب القليل منه على قطعة قطن ووضعها على الجرح وقال: «من حُسْن حظّك أنّ الإصابة ابتعدت عن رئتك مسافة قصيرة يا غانت. يبدو أنّ جرحك سيئ كالويسكي المغشوش. من الذي هاجمك بخنجر صدئ يا رجل؟».

ردّ غانت: «تخرج من شبه الجزيرة، وتعود إليها، لتجد أنهم قد فقدوا مستواهم الراقي».

داوى أُول بوي الجرح بقدر ما استطاع، وسكب عليه مقداراً آخر من السائل. صدرت عن غانت صفرة إجفال لشدة الألم. راح أُول بوي ينفخ على الجرح.

«ثق بي، أنا ممرّض».

ضمّد الجرح بعناية. كان متأنقاً في عمله. فقد ضمّد الكثير من الفتيان في زمنه.

«لمَ عدتَ إلى هنا يا غانت برودريك؟ ما الفكرة الغريبة اللعينة التي تسلّلت إلى عقلك العنيد البائس؟».

قال ذلك، وطرق بمفاصل أصابعه على رأس غانت. وضع غانت ملعقته وفكّر للحظة وقال:

«ثمة جاذبية قديمة غريبة في بيغ نوثين».

«وماذا عن مدينة بوهاين؟».

«ينبغي أن نتكلّم في هذا الموضوع وسواه سيّد مانيون».

كان رأي أُول بوي الذي عبّر عنه بنظرة سريعة حادّة هو أنّ بوهاين لم تَعُد كما كانت منذ خمس وعشرين سنةً. ومع ذلك صفّق بيديه ورقص رقصة الخطوتين.

«أعتقد أنّ الأمر سيكون مثيراً للاهتمام مهما حدث».

وافقه غانت الرأي، وأردف: «أحتاج إلى مكان هنا يا باني. أحتاج أن أستجمع أفكاري كما تعلم».

وهكذا دبّر له مانيون المنزل المتنقّل. ونصحه بأن يبقى مختفياً محترساً لبعض الوقت، وأن يراقب اتجاه الرياح ليعرف كيف يدير شراعه.

كان العثور على المنزل المتنقّل صعباً حتى على السكان الأصليّين مثل غانت. كان محجوبَ الرؤية في مقلع حجارة قديم، ومحميّاً على الأقل من شرّ الرياح الشديدة. استقرّ المنزل على شاطئ مستنقع بالقرب من بحيرة صغيرة لا يمكن أن يغرق فيها حتى الطفل،

كما يُقال عن مثل هذه البحيرات في نوثين. كان ماء البحيرة داكناً وموحلاً، تغطّي أطرافها أكوام من القصب المهشّم. استقرّ غانت هناك، وشاهد الصيف يتلاشى ليصبح خريفاً، وسمع هبوب الرياح الشديدة، وعرف أنّ الشتاء وشيك.

في أول ليلة من شهر تشرين الأول سار طوال ساعات الليل. خلا فكره من الهموم وارتاح. دار حول السهل. وعند الفجر، مشى على ألواح رصيف قديم متشقّقة بالقرب من البحيرة الصغيرة. التَوَت الألواح وتأوّهت حين داس عليها، وراحت تطلق نغماً أشبه بأغنية. جثم هناك، وشعر بحضور تلال نوثين المرتسمة خلف البحيرة. وبدا ظِل الجبل القاتم على خلفيّة السماء التي بدأت تنهض. شعر بحضور ما؛ شعر به كرقّة لامتناهية. ثم سمع صوته، وهو يتضرّع.

يا مجيرنا، يا مجيرنا الحبيب!».

غيرلي

كانت غيرلي هارتنت ممدّدة على السرير في فندق بوهاين أرمز. هي الآن في التاسعة والثمانين من العمر، وتشعر بالملل الذي كانت تغنّيه بتنهّداتها المتكرّرة. كانت الستائر المخمليّة السوداء في غرفتها الواقعة في الطابق الأخير من الفندق مُسدَلةً كالعادة، فقد رأت من مدينة بوهاين ما يكفيها لحياة مديدة مريرة. لم تكن تتغذّى إلا على الكحول القويّ وعلى حبوب كبيرة لمقاومة آلام رافقتها على مدى حياتها الطويلة. كانت تستلقي كملكة على وسائد منتفخة فوق السرير المخصّص للعرائس. نهارات غيرلي تمر بطيئة ولا هدف لها إلّا وصلها بالليالي. تلك الليالي التي تظلّ فيها صاحية لكنّها تعجز عن تذكّرها بعد أن تنطوي. لم تستطِع قطّ فهم تلك الليالي البائسة. عندما كان الفندق يحصل على ما يكفي من الوقود لتشغيل جهاز عرض الأفلام، كانت تشاهد أفلاماً قديمةً على شاشة قابلة للفّ. أحبّت غيرلي الأفلام القديمة وسجائر النعناع، والتخطيط المستمرّ لتعكير جوّ المدينة. أدارت عصابة هارتنت فانسي أمور بوهاين، ويُقسِم البعض أنّ غيرلي هي التي تدير الدفّة بقدر لوغان. كانت تعرف طارق بابها من طرقته، وها هي تصرخ الآن ردّاً على قرع ابنها: «تعال إليّ. ادخل!».

قرأتِ القلق على وجهه قبل أن يطوي عظامه الطويلة على الكرسيّ قرب السرير.

سألها: «كيف حالك الآن؟».

رفعَت غيرلي يدها النحيلة إلى حلقها، وتركت أصابعها الضعيفة ترتاح هناك، وقالت: «ثمة متاعب كثيرة في الانتظار يا فتى».

فردّ: «بالفعل».

لم يقبّل أحدهما الآخر، ولم يتصافحا حتى. لا يحبّ أفراد عائلة هارتنت اللمس. إنّهم من باك ترايس: ليس فيهم سوى الدم والعظام، ولا يظهرون عواطفهم.

«كم الساعة؟».

«كنتُ سأقصد المشرحة لأرى إن وصلهم شاحبون طويلو القامة».

«كنت منشغلاً يا غيرلي».

«لا شك في أنك انشغلت بمعاشرة النساء. هل جلبت لي أفلاماً؟».

«جلبتها يا غيرلي».

أعطاها البكرات، فتفحّصتها، قائلةً: «ألَم تجلب لي فِلماً لـِ «تاب هنتر» و«ناتالي وود»؟».

«لم أجد فِلماً لهما».

فصرخَت: «بئساً!».

«حاولتُ يا غيرلي».

«لقد مثّل تاب وناتالي أفلاماً جميلةً».

«بالفعل».

«قيل إنّهما كانا يتعاطيان الكوكايين».

«أيُعقل؟».

«التُقطت لهما صورٌ في حفلات افتتاح أفلامهما».

«ينوي مُشاغبون في الشمال القيام بأعمال غير مشروعة يا غيرلي».

«ناتالي في معطف من فرو القاقم، وتاب في بنطلون واسع من الأعلى، وقميص محبوك لونه كاكي!».

«يقول الكيوساك إنّ الشقق قد امتلأت بهم يا غيرلي».

«بالطبع تعلّقَت فتاة وودز بكلّ رجل قابلته. كانت مجنونةً بالرجال».

«أقول آيزِ كيوساك يا غيرلي. سمعت أنّ بعض العائلات تدعمه. آل «مكغرورتي» وآل «لينايْن» وآل «ساليفان»...».

«تفوّهوا بكلام فارغ على تاب. لكنّني لم أصدّق كلمة واحدة ممّا قالوه عنه».

«هذا خبر مؤكّد يا غيرلي. ثلاث عائلات تدعم آل «كيوس». هذا ولاء هائل، أليس كذلك؟».

«كان الهراء الذي رموا به تاب شرساً».

«أظنّ أنّه على وشك أن يهدّدنا يا غيرلي».

«لن أردّد ما قالوه عن تاب. لن أُلطّخ سقف فمي به».

«كيف أشغّل الفِلم؟».

أمسكت غيرلي بزجاجة جون جايمسون الموضوعة إلى جانب السرير، وملأت كأسها. قدّمت إليه الزجاجة. هزّ رأسه وأغمض عينيه، ودلّك بأطراف أصابعه المتورّمة الفراغ بينها. مدَّد قدميه على السرير من دون أن ينزع حذاءه. حالما بلغتا السرير أبعدتهما عنه قائلةً: «انتبه للحاف الريش يا رجل».

ارتشفت القليل من الويسكي وتلذّذت بطعمه. علت الحمرة وجنتيها؛ فاصطبغت سحنتها الرماديّة بالبنفسجيّ.

تنهّدت وقالت: «راودني حلم منذ فترة رأيت فيه «فرناندو لاماس» بذاته يصل على حصان».

«غيرلي، أصغي إليّ! آيز كيوساك على وشك التحرّك في الميدان ٩٨».

«طبعاً في زمن والدتي، في زمن «باغي»، ضمّت بوهاين ست عشرة صالة عرض أفلام آنذاك. هل ما زالت الصالة الوحيدة تعمل الآن؟».

«بذاتها».

«لا يعرضون فيها إلا أشخاصاً مهينين يمارسون الجنس».

«غيرلي».

«اصمت، أنا أفكّر».

أغمضت عينيها. سنّها الطاعنة لا يمكن أن توصَف مقارنة بمعدّل الحياة في بوهاين. طرفت برموشها بشدّة وسألت: «هل يشاغب آل كيوساك في ترايس؟».

«ليس في ترايس بل في سموكتاون. ويثيرون المتاعب في رايزس داخل الحانات غير المرخّصة. يُقال إنّهم يضعون جلداً جديداً على طبولهم ويدرّبون مغنّيهم».

«وهذا هراء لا يصدر عن النوريين!».

«كيف عليّ أن أتصرّف يا أمّي؟».

هزّت رأسها لتبدّد خوفه، وقالت: «استملْ وولفي والفتيان».

فأومأ قائلاً: «هذا ما آمله، لكن ماذا لو لم يكُن عددنا كافياً؟...».

قاطعته قائلة: «من يمكننا أن نستدعي يا بني؟».

نظر إليها بحزن وقال: «سبق أن قطعنا علاقاتنا بمعظم الناس».

فسألته: «لمن ستقول؟ أليس لدينا أحد البتة؟».

«ما لم أذهب إلى التلال وأحاول التكلم مع...».

«بئساً يا مجيرنا!».

تركا المسألة تختمر في ذهنيهما. راح كلّ منهما يفكّر في صمت. لم تتّخذ عائلة هارتنت يوماً قراراً متسرّعاً أو متهوّراً. في النهاية، تكلمت غيرلي: «هل وجدتَ لي فِلماً ليول براينير في صباه، قبل أن يصبح أصلع الرأس؟».

«لا يا غيرلي، وجدتُ لك فِلم واندِرِزْز، هل يروقك؟».

رفع العلبة نحوها فقالت: «هذا ما أراه».

كانت أمسياتهما معاً قصيرة، إلا أنها عادةٌ لا يمكنهما التخلّي عنها. كان كلّ منهما يرتاح برفقة الآخر. حدّقت إليه تتفحّصه، فارتبك قليلاً. بدا ارتباكه واضحاً في توتّر بسيط لاحظته على كتفيه، وعلى الطريقة التي أخذ بها عُلب البكرات عن اللحاف، ولوّح بها.

قالت: «أنت تحمل عبئاً ثقيلاً بسبب المشاغبين النوريين».

صمتَت غيرلي قليلاً على وقع ما قالته، ثم تابعت: «وكيف حال حضرتها؟».

سمح لوغان لابتسامته الماكرة الصفراء بأن ترتسم على شفتيه، وقال: «إنّها في أفضل حال».

هزّت غيرلي رأسها، وكأنّها راضية للغاية: «سمعتُ أنّ غانت بروديك ما زال رجلاً وسيماً».

رمى عُلب البكرات على سريرها، وهمّ بالرحيل قائلاً: «شاهدي أفلامكِ القديمة».

شخرت ضاحكةً، وهي تراه يرحل. أنصتت متوقّعة أن يغلق

الباب بقوّة، وضحكت مجدداً عند سماع الصفقة المدوّية. استحقّ هذا الخسيس الشاحب كلامها، هو الذي تزوّج بقمامة السفن.

كان شارع دي فاليرا في الأسفل يردّد صوت قدوم الليل البطيء: طاقاته العنيفة تتجمّع وتتراكم. نعم، وشهر تشرين الأول كان يشارف هو أيضاً على الانقضاء. وها هو يترنّح على أشجار مدينتنا المريضة، وقريباً ستحلّ المصائب على بوهاين.

تلوّت غيرلي في السرير الواسع مبتهجةً.

بلهجة سموكتاون

حلّ الظلام على سموكتاون. المدينة مكان مريع في سواد الليل الحالك: عالم كوابيس في الجهة الأخرى من جسر المشاة. في الشوارع الهزيلة، مالت بيوت المدينة القديمة الواحد نحو الآخر حتى يخيّل إليك أنها تسأل: «كيف حالنا الآن؟» وكأنّ المنازل القديمة يسند أحدها الآخر فيمنعه من الانهيار. هنا في سموكتاون، إذا أزلتَ قطعة آجر من المجموعة تتداعى المجموعة كلّها. لا تكاد مساحة سموكتاون تبلغ مِيلاً مربّعاً. إنها مكان ضيّق وصغير ومسحوق، ممرّاته الهوائيّة مضغوطة ورئتاه مريضتان وهواؤه يكاد يكون كالزيت في الليل. مولّدات سموكتاون تهدر بصوت يصمّ الآذان والجدير ذكره أنّه لو نفد الوقود في بوهاين كلّها لبقي بعضٌ منه لمولّدات سموكتاون.

تبخترت مجنونة سموكتاون في ثياب راعية بقر بيضاء مزيّنة بالبرّاق، وراحت توجّه سير النورس الغاضب في الجوّ.

على جسر المشاة غانية متحوّلة جنسيّاً، لا أسنان لها، ومرسومة الحاجبين، تتضرّع إلى السماء.

وكلبة لا يمكن التنبؤ بردود فعلها العنيفة من نوع الراعي الألماني تسمّى أنجلينا، تجرّ خلفها مساعد فانسي، فاكر بورك.

دخل فاكر وأنجي حانة «شوللك أن كيو»، وخرجا منها.

دخل فاكر وأنجي حانة «لاند أو بيزي»، وخرجا منها.

دخل فاكر وأنجي «حانة ١٤٧»، وخرجا منها.

الشيء اللعين الذي كان فاكر وأنجي يريدان معرفته هو مكان وولفي.

تجدون في شوارع سموكتاون في هذا الوقت أشخاصاً غريبي الأطوار يبحثون عن إثارة تصطكّ لها الركب، وعن غليون الأحلام، قبل التوجّه إلى «بورين»، وجرجرة أرواحهم التعيسة عبر أراضي نوثين الموحشة.

اجتاز «إدموند لانيهام» الغجريّ جسر المشاة مع عاهرة في السادسة عشرة من العمر شعرها أشقر عسلي وقامتها قامة شابّة من رايزس، ووجهها عريض جريء: إنها لا تثير الخوف والريبة أبداً.

تصاعد خفقان خافت من القضبان، وهم يجهّزونها. وتعالى صوت موسيقى الجاز المتلوّي، في حين تسلّقت فتيات المناوبة الباكرة، القضبان، وغزلنَ عليها وتزحلقنَ من جديد، وفي عيونهن الشاحبة توهّج شديد. فرَّغَت عربات السمك التي تملكها عائلة هارتنت في الأحواض الصينية: زعانفَ وحسكاً وعظاماً للحساء، يا لها من مخلوقات غريبة تسبح في نهر بوهاين!

وجوه ضبابيّة مشبعة بالخمرة تتحرّك في الشوارع.

النوادي الصينية الليليّة القذرة وحانات الخدمة السريعة وصالونات التعاطي.

وأخيراً خرج وولفي ستانرز من مقهى هو بي شينغ أو-كاي: رجولة ظاهرة، قامة تتجاوز خمس أقدام وبوصتين، يرتدي سترة منتفخة من المخمل المزيّف، وينتعل حذاء يُربط بشريط كأحذية الجنود النازيين.

كان رأسه الأصهب يتلفت يميناً ويساراً، وهو يمشي مشية عسكرية في شوارع سموكتاون.

التقاه فاكر بورك وأنجلينا خارج «حانة لاند أو بيزي».

خمّن فاكر أنّ مزاج وولفي متعكّر، وأصاب تخمينه.

«كنتُ أبحث عنك يا وولفي».

«وأنا كنتُ أبحث عن جيني، أليس كذلك؟ هل رأيتَ جيني اللعينة؟».

«لا يا وولفي».

«قلتُ هل رأيتَ جيني في الجوار يا فاك؟».

غزلت عينا وولفي غضباً.

«قلتُ إنّني لم أرَها يا وولف».

«أين هي بحقّ الجحيم؟».

لوصمة الشرور في أجواء بوهاين خصال متعدّدة، ولم تكن الغيرة أقلّها.

«لا أعلم يا وولف، لم أرَ...».

استدار وولفي؛ ومن دون تردّد، ركل باب صالة تعاطٍ ركلة قويّة، وزمجر بفظاظة. وبدا أنّ هذا المجهود جعله يهدأ بعض الشيء. وراح يطوف في سموكتاون منصرفاً إلى عمله الليليّ.

«هل من خبر عن الأمهق؟».

«قيل إنّه مع كانتيلون».

«الليلة؟».

«هذا ما قيل».

«فلنهتمّ بالأمر، هل من أثر لبائع السمك يا فاك؟».

لا شكّ أن دِسّي كانتيلون قد اختار الليلة الخطأ للتسلّل إلى سموكتاون. لم يكُن يضاجع زوجة نسيبه جير ريد، اللحّام البارع السيئ الحظّ فحسب، بل يضايق نساء سموكتاون الأخريات أيضاً.

سأل وولفي: «هل يبحث عن النساء؟».

أجابه فاكر: «إنّه يدفع المال للعاهرات ويضاجعهنّ».

شدّت أنجلينا حبلها، ولحق بها الشابان، وسرعان ما ظهر كانتيلون خلف ضباب سموكتاون.

كانتيون، مخلوق نحيل، تغطّي يديه قشور أشبه بحراشف سمك

الإسقمريّ. هو في الأربعين من عمره، حادّ الملامح، يلعب الورق ويعتني بنفسه، أنفه فرنسيّ الشكل منحوت مصمّم لمطاردة النساء. تجمّع شعره الكثيف في الخلف، وغطّته طبقة كثيفة من الهلام المعطر. أزرار قميصه البنفسجيّ الخمسة العليا مفتوحة لهواء الليل، مع أنّ نهاية تشرين الأول قد حلّت في بوهاين، وشتاء الغرب القاسي يلوح في الأفق.

كان دسّي يبحث عن إرضاء رغبته الجنسيّة في الشوارع الضيّقة.

ولحقت أنجلينا والشابان به.

كلّ امرأة بين سنّ الرابعة عشرة والثامنة والستين كانت هدفاً لنظراته. كان يتفحّصهنّ من الكاحلين حتى العنق. يرمي بنظراته الفاسقة عليهنّ. يفكّر في أنّه يكاد يقفز على هذه، أو يمارس أنواع المجون مع تلك، أو يجعل تيك عشاءه. يا لها من دوريّة ملاحقة ضارية للنساء! تجول عيناه خلسةً وتلتفتان يساراً ويميناً ومباشرةً أمامه بحثاً عن الهدف، ولكن...

«لم يكن ينظر خلفه، أليس كذلك؟».

«لا».

قال فاكر: «قال لوغان إنّ علينا ضرب بائع السمك بشدّة».

«ضربه بشدّة؟».

«إنّه يعبث مع زوجة أحدهم، أليس كذلك؟».

«لا يحبّ لوغان ذلك العبث».

«قطعاً لا يا وولف».

راحا يطوفان كالأشباح بين حشود سموكتاون، وبقيا على بعد مسافة قصيرة من طريدتهما.

عرفا أنّ عليهما انتظار اللحظة المناسبة.

تسلّل بائع السمك إلى خمّارة.

تلكّأ قليلاً، وحاول لمس البازوكا البلاستيكية التي كان يحملها الساقي الأوكراني.

وكان مُراقَباً من الشارع كل هذا الوقت.

في تلك الأثناء، كان وولف يحمل علبة دجاج مقليّ جاهز. قدّم فخذاً منها إلى فاكر، فأخذها والتهمها في لقمة واحدة، ورمى العظم، وقدّم أصابعه المدهنة إلى أنجلينا فنظّفتها جيّداً.

ثم قال وولفي: «تقلقني أحياناً أنت وهذه الكلبة».

هزّ فاكر كتفيه، وسال لعاب أنجلينا.

دخل كانتيلون سلسلة ملاهٍ ليليّة لكنّه لم يشترِ من أيّ منها. فقد كان يبحث عن السعر المناسب، وفي النهاية بلغ طرف التلّ، وكان الشابان لا يزالان في إثره والكلبة معهما.

طرف تلّة سموكتاون هو المنطقة الأكثر سوقية. تجدون هناك فئةً دونية جداً من الزبائن. وفيها أسوأ الطقوس وأقذر المواخير. الجوّ غريب بسبب التلال المرتفعة التي منحت المنطقة اسمها. شُعب

التلال هذه مكان مخيف. يسكنها غجر شرسون، تتوقّد نيرانهم تحت السماء الحالكة الظلمة؛ ندعوهم غجر الرمال، وهواء البحر يلفحهم دائماً وأبداً، بجنون.

انعطف بائع السمك عند شارع جانبيّ مقفرٍ.

خطوة غير موفّقة.

فجأةً وبصمت، أصبح وولفي ستانرز إلى جانبه.

قال بلطف: «هل لي بكلمة سيّد كانتيلون؟».

وقف فاكر بورك من الناحية الأخرى.

قال بمرح: «كيف حالك يا «دس»؟».

وقفت أنجلينا هناك أيضاً، وتدلّى من فكيها خيط لعاب بسعادة.

جرّه الشابان إلى زقاق ضيّق، حيث كان بحر من الجرذان يجري تحت أقدامهم.

صُعق الجميع. انشقّ بحر الجرذان الرماديّ.

نبحت «أنجي» على الجرذان فأسكتها فاكر. حشر الشابان الرجل بلطف على جدار حجري فسألهما: «ما الأمر أيها الشابان؟».

تمكّن حتى من إخفاء رجفة الخوف في صوته، لكنّ ذلك لم ينفعه. قفز وولفي قفزة صغيرة في الهواء، كانت كافية ليزرع ضربة قاضية بمقبض سلاحه على أنف كانتيلون.

انفجار بسيط: عضلة وأوتار ودم.

كانت ضربة المقبض لطيفة؛ غشِيَت عينا دسّي. طابت ليلتك سموكتاون!. وهبط على الجدار وانزلق على طوله. وحالما بلغ الأرض، ضبط فاكر بورك كعب حذائه ذي القياس ٤٥ على قصبته الهوائية وسحقها بقوّة. وراحت أنجي الموثوقة تلعق الدم المسفوك.

في هذا الوقت، راح وولفي يضرب بجزمته وجه الرجل بإيقاع منتظم دقيق، وكان فرحاً بما يفعله. لن ينتهيا سريعاً من التنكيل بهذا الرجل، وسوف يمر وقت، في أي حال، قبل أن يجري التعرّف إلى كومة اللحم هذه.

قفزا على أضلعه أيضاً، فتكسّرت بسهولة كعظام السمك.

رقصت أنجلينا.

خرج الشابان من وراء التلّ مجدداً. ألقيا نظرات سريعةً يساراً ويميناً، وتوجّها مباشرةً نحو شوارع سموكتاون الأكثر اكتظاظاً قرب النهر.

قال فاكر: «أشعر بإثارة شديدة».

فردّ وولفي: «وأنا أيضاً».

شدّت أنجلينا حبلها. أرادت العودة إلى الزقاق، رغبت في المزيد، لكنّ فاكر جرّها ووبّخها قائلاً: «انسي الأمر يا أنجي!».

كانت سموكتاون تعجّ بالناس. فتيات يصحن وندلاء يصرخون. أحلام تُباع، أغانٍ تُرندَح، وسُكارى يتأففون. ذاب وولفي ستانرز وفاكر بورك، ومعهما الكلبة أنجلينا في الليل مجدداً. وحين مرّا بقربي، رأيتُ الشرّ يتطاير من عيونهما.

هذا هو الوقت الذي أحبّ أن أسير فيه وحيداً على أرصفة ميناء سموكتاون. أحبّ النظر من فوق صفحة النهر إلى أسطح منازل باك ترايس ونورث سايد رايزس في البعيد.

أحبّ رؤية النهر يمتلئ بمصابيح المدينة.

رسالة غانت إلى ماكو

عزيزتي ماكو،

رأيتكِ ذات يوم في شارع داف. تساءلتُ إن كنتُ سأعرفك. فقد مرّ وقت طويل على لقائنا يا فتاة، لكنّ ما صدمني هو أنّك لم تتغيّري كثيراً. لستُ متأكداً من أنّني أستطيع قول الأمر ذاته عن نفسي. لقد تركت السنون آثارها عليّ. هذه حال عائلتي، تظهر سنوات حياتنا على وجوهنا. لا أريد أن أسبّب لكِ أيّ أسى يا ماكو، فقد بدا لي جليّاً عندما رأيتك يوم الخميس أنّ لديك من الأسى ما يكفيك. لا أريد أن أنتقد الحياة التي صنعتها لنفسك، فأنا آخِر من يستطيع أن يرسم صورةً وردية لحياة أيّ كان. هذا لا يعني أنّني لم أحلم بالحياة التي كان يمكن أن نعيشها لولا الظروف التي مررنا بها. رأيتك يا ماكو، وأردت الدنوّ منك لكنني لو فعلت لظلمتكِ. قلتُ لنفسي: «ليس بعد، ليس هذه المرة». تمرّ خمس وعشرون سنةً وبالكاد تترك لك شيئاً. لا أعلم متى بالتحديد بدأتُ أشعر أنّني عجوز، ولكنّني أشعر بذلك الآن بالفعل، صدّقيني. أظنّ أنّني قد عشتُ أوقاتاً عصيبةً كجميع الناس، لكنّ الإسهاب في التفكير في

الأوقات العصيبة لا يفيد أحداً. أشعر أنّني رحلتُ منذ أسابيع ليس إلاّ. أمور كثيرة حدثت لي منذ ذلك الوقت كما يمكن أن تتخيّلي، منذ أن توجّهتُ إلى هاي بورين. كان يوماً صعباً، صدّقيني، وترك أثراً بي. لم أعُد الشخص الذي كنتُه. قمتُ بأمور لست فخوراً بها يا ماكو. لم أتزوّج، لكن أفترض أنّني عاشرتُ نساءً كثيرات. لم أستقرّ في أيّ مكان. قيل لي إنّك لم تُرزقي بأولاد، وهذا محزن! يجب أن تكوني أمّاً فهذا يليق بك.

أعيش الآن في نوثين، وأنوي الاستقرار هنا إلى آخر أيّامي، وأرجو المجير الحبيب ألاّ تقتصر على فصل أو اثنين. لا أستطيع القول إنّني عرفتُ السعادة منذ أن أتيتُ إلى هنا قبل أشهُر، ولا أستطيع القول إنّني سأعرف السعادة من جديد، لكنّني أشعر بهدوء يملؤني هنا ويريح جسدي العجوز. تعلمين أنّ نوثين لطالما كانت مكاناً مميّزاً في نظري. تعرفين مشاعري حيال هذا المكان وستفهمين أنّ بُعدي عنه لوقت طويل كان مؤلماً. لم أعُد إلى هنا بنيّة إحزانك. أريد رؤيتك يا ماكو. أريد النظر إليك من دون أن أضطرّ إلى الكلام ولا إلى قول أشياء تافهة. أريد النظر إليك لأرى كيف أصبحتِ. أريد ضمّك بعض الوقت. أعتذر عن قول هذا الكلام لك لكنّني مجبر. إنني وغد حقاً. أعرف ما ستفعله بك عودتي بعد كل هذا الوقت. إنه أمر صعب ومؤلم جداً. قلت لي يوماً شيئاً لا أعلم إن كنت تذكرينه. قلتِ إنّنا سنبقى معاً مهما جرى. هل تذكرين ذلك؟ ربما كان هذا كلام تقوله أي فتاة يافعة مغرمة. لكنّني صدّقته وأبقاني متماسكاً لسنوات، وانتشلني من فوهة القبر يا ماكو.

ما زلتُ أحبّكِ. أعرف أنّ هذه العبارة تبدو مريعةً. لكن بعد كتابتها أشعر حقاً أنني أريدها أن تؤلمكِ! فلعلّك تستحقين جزءاً من هذا الألم. نحن نتّخذ قرارات، وعلينا تحمّل تبعاتها. قد يبدو من الجنون أن أكتب مثل هذه الكلمات بعد كل هذه السنين. لكن ها أنتِ، يمكنك أن تتحمّليها كما تحمّلتها أنا لوقت طويل. عندما كنّا نمشي في باك ترايس، ونحن طفلان في بوهاين، كنت أعتقد أن قلبي سيقفز من صدري إلى فمي. كنت أضع يدي على ظهرك النحيل، وأشعر أنّني أقفز عن السطح. ترتسم ابتسامة كبيرة لطيفة على ثغري مع أنّه كان يفتُرض بي أن أكون الفتى الأكثر قساوة في المدينة. كنتِ رقيقةً جداً. كنتِ تكلّمينني بنبرة شبيهة بهمس خافت، ومضت أسابيع طويلة قبل أن يلثم ثغرك ثغري.

كنّا نسير في تلك الليالي في ترايس على ضفّة النهر. أذكر صوت النهر في ليالي الصيف. كنّا نجلس على الدرجات الصخريّة وتسندين رأسك إلى صدري. ظننت أنّ لا شيء سيفرّقنا يا ماكو. أقول لنفسي لعلّ عودتي تكون سبيلاً لإزالة سحرك الذي ما زال يقيّدني. اللمسة التي كنت أشعر بها طوال تلك السنوات في أوقاتي العصيبة كانت لمستك. أراك في سنّ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة بوضوح تامّ، بالتفاصيل كلّها، بالعظام الصغيرة تحت جلد حاجبك عندما كنت تقلقين عليّ في فترات الشغب في بوهاين ترايس. أعتقد أنّنا سرنا في طريقين خاطئين، وما رأيتُه من حياتك هنا مع هارتنت لا يغيّر اعتقادي.

أيامي هادئة الآن. أنا متأكّد من أنّك تتذكّرين بعض الأماكن التي

مشينا فيها هنا عندما كنّا نخرج معاً. كنّا نتمدّد على العشب المرتفع، هل تذكرين يا ماكو؟ بقدر ما تتغيّر الأمور في بوهاين، تبقى الأمور على حالها في بيغ نوثين. ليس منزلي فخماً لكنّه مريح كفايةً. أعيش كرجل عجوز حقاً قبالة مستنقعات نوثين أمام موقدي المستدير. لو عرفتُ من قبل ما كنتُ سأصير عليه لاحقاً لضحكتُ ملء فمي. لكنّني أكرّر أنّ السنوات عينها التي بالكاد ظهرَت عليك عندما رأيتُك في شارع داف خطفَت أنفاسي، فقد بدوتِ كما آلَفتُك. ما زلتِ تتحرّكين كما أتذكّرك. لا تظنّي أنّني أتجسّس عليك، لكن عندما رأيتك لم أستطع أن أشيح نظري عنك.

عدتُ للبقاء في نوثين، وأتمنّى رؤيتك يا ماكو. أريد رؤيتك حتى لو كلّفني ذلك حياتي. أطلب منك لقاءً واحداً لا أكثر. يمكنكِ تحديد الزمان والمكان كما تشائين. إذا أردتُ قول أمور لك الآن، بعد كل هذا الوقت، فسوف أقولها بشكل أفضل وجهاً لوجه. أعلِميني عبر السيّد مانيون إن كان بوسعك موافاتي. كل ما أرجوه هو أن أرى شفتيك تلفظان اسمي؛ فهذا يُعيد إليّ الفردوس المفقود.

أنتهي هنا على أمل أن أسمع ردّك قريباً يا فتاتي.

غانت.

من يدير الأمور؟

كان الصحافيّ البدين، دوم غليسون، في شارع دي فاليرا، قد حلق لحيته للتوّ، وكان وجهه لا يزال مبقّعاً من شفرة الحلاقة. كان يرتدي بزّة زرقاء فاتحة اللون واسعةً، وينتعل حذاءً يصدر طقطقة، راح يرقص به بحماسة على الرصيف. وبينما كان يرقص برشاقة قياساً على رجل بدين مثله، أخذ يحدّق بتأثّر في اتجاه بيغ نوثين. أبطأ الخطى ثم توقّف. نظر إلى الأسفل متأمّلاً قدميه الصغيرتين المخيفتين. رفع أطراف أصابعه إلى شفتيه وراح يعضّها، ثم همس قائلاً: «لقد قارب غانت الخمسين من العمر يا سيّد مانيون، لا أعتقد أنه سيجرؤ على مضاجعتها الآن، أليس كذلك؟».

احتمى أُول بوي من برد المساء بمعطف كرومبي، معتمراً قبعةً خفيفة أنيقةً، واتكّأ على درابزون شارع داف كالمتسكّعين، ورفع حاجبيه قائلاً: «أحياناً يكون الحبّ غريباً، وقد يدوم طويلاً يا دوم».

«إذاً على هارتنت أن يتظاهر على الأقل بأنّه يتحرّك يا سيّد مانيون».

فقال أُول بوي: «لن تقنع الناس بالتظاهر يا بيغ دي. عليه أن

يرحّب بغانت على طريقته طبعاً. فالمدينة تشاهد والسُلطات تشاهد وزوجته تشاهد، هل تفهمني؟».

كان جوّ المدينة مزيجاً من الخوف والحماسة. ثمّة مواجهة عنيفة مرتقبة. وعندما يتواجه العظماء يهتزّ عالمنا الصغير. إننا نتحرَّق شوقاً لنشاهد هذا.

«إنّه يريد استهداف غانت في نوثين يا سيّد مانيون، ولا يمكنني أن أرفض...».

«لا أقلق في شأن غانت في نوثين يا دوم».

ابتسم أُول بوي مطمْئناً. وهناك، تحت مصابيح شارع داف، حمّسَت المؤامرة التي تُحاك في المدينة دوم، فرقص من جديد، وهزّ وركَيه وفتلهما. لهث بصوت خفيض، وطرف بعينه، وهمس: «يقولون إنّ عيني زوجته تستقيمان، عندما تشعر بالإثارة يا سيّد مانيون».

«يقولون هذا بالفعل يا دوم».

قرقر دوم، وحدّق إلى النجوم ودار معها. شعَر ببعض الدوار والفرح وصرخ: «لدينا مشكلة غرامية!».

«بالطبع يا دوم».

استدار الصحافيّ ونظر خلفه، وكأنّ ثمّة من يراقَبه من الخلف، ثمّ مال مقترباً من أُول بوي وقال: «وبالطبع لدينا مشكلات أخرى غير غانت».

فردّ مانيون: «من فضلك دومينيك، لا تكلّمني على آل كيوساك».

عصر دوم صدره مشتكياً. ادّعى أنّه سيقع، تهاوى على الأرض وصفر قائلاً: «إنّها ذبحتي الصدريّة مجدداً!».

نظر أُول بوي إليه برصانة، وقال: «إن حلَّتِ المشكلات يا دوم سيقلّنا الترام جميعاً من بوفيستا. وكلّ من نعرفه سيفعل ذلك، هل تفهمني؟».

«لا تبدأ بقرع نواقيس الخطر سيّد مانيون. آخِر ما تريده بوهاين هو شتاء دمويّ».

نزل أُول بوي عن الدرابزون، وتوجّه الرجلان معاً نحو جسر مشاة سموكتاون: في هذه الساعة يميل السادة إلى طلب المتعة في بوهاين.

قال الصحافيّ: «هل تعلم ما السؤال الذي ينبغي أن نطرحه؟ السؤال هو: من يدير الأمور في بوهاين الآن؟».

فأجاب أُول بوي: «هذا هو السؤال بالفعل يا دوم. هذا هو السؤال الأهمّ، أتسمعني؟».

اصطفّ رجال الشرطة الحمقى، الفارعو الطول، عند مدخل زقاق في سموكتاون.

عجّ طرف التلّ بمتفرّجين اشرأبّوا لكي يشاهدوا ما يجري.

صرخ شرطيّ: «ابتعدوا جميعكم! نحتاج إلى نقّالة هنا!».

علّق متفرّج دقيق الملاحظة ساخراً بين الحشد: «يحتاج هذا الرجل إلى أكثر من حمّالة!».

فتصاعدت قهقهات خافتة، حتّى أنّ رجال الشرطة انضمّوا إلى أجواء الضحك. كانت بوهاين ولا تزال مصدراً ذاتيّاً للتسلية.

جثا محقّق الشرطة على ركبتيه في الزقاق، قرب البقايا الدامية، ونظر عن كثب إلى آثار الحذاء على جلد الضحيّة المزرقّ وهمس: «شيء فاخر».

أشار إلى شرطيّ مبتدئ يعاني صعوبة في التنفّس، لأنّه يسكن قرب سهل نوثين، فجثم الشاب إلى جانب المحقق الذي سأله: «هل ترى هذا؟».

أشار إلى بركة الدم المتّخذة شكل كعب الحذاء الذي يصدر طقطقة، وسأل الشرطيّ الشاب: «إذا أشار هذا إلى سرقة مدبّرة، فإلامَ يشير أيضاً؟».

كان الشرطي الذي يعاني صعوبة التنفّس سريعَ التعلّم، فنهض ووقف أمام حشد الناس المتجمّعين عند مدخل الزقاق، ووجّه الحديث إليهم قائلاً: «يبدو أنها حالة انتحار أخرى يا شباب».

فهمس المحقّق: «أحسنت يا فتى».

من أعالي النهر عصفت الرياح تطعن كخنجر ببردها الذي يخترق العظام ويبريها.

الشتاء الآتي إلينا غربيّ لا ريب في ذلك.

شغّلَت غيرلي فِلْماً لماريو لانزا من العام ١٩٥٢. كان ينبغي أن تكون بيغ في الثامنة عشرة من عمرها. تواعد رجال شرطة دائماً، أولئك الذين في سنّ والدتها. اسم الفِلم «لأنّكِ لي»، وهو فِلم غنّى فيه أغنية غرانادا، يا لصوت هذا الشاب العذب والقوي! ارتشفت القليل من ويسكي جون جايمسون من كأسها، وأغلقت زجاجة الحبوب. أرخَت عظامها الطاعنة في القدم للاستمتاع بتدفّق المهدّئ في عروقها وهدير صوت التينور الشاب.

ها هي غيرلي في وسط المدينة.

ها هي غيرلي ترى الأضواء.

سُمع قرع مألوف على بابها، القرع الذي يأتي دائماً في وقت متأخّر، فأجابت بصفرة واحدة حادّة.

دخلَت جيني تشينغ وجلسَت قرب السرير، وسكبَت لنفسها كأساً من الويسكي. ألقت قدميها الصغيرتين المتعبتين على السرير، فوضعت غيرلي تلقائياً يدها بحنان عليهما قائلةً: «ألم يعلّموك الأدب بعد يا صغيرة؟».

فأجابت جيني: «بلى يا غيرلي. آداب خنازير وكلاب».

نظرت إليها غيرلي بعينين نصف مغمضتين، ولاحظت آثار العضّ على قفا عنق جيني؛ وسألتها: «هل عضّك الفتى وولفي يا فتاة؟».

أخرجت، جيني سيجاراً رخيصاً من جيب سترتها الفينيل البيضاء، وأشعلت السيجار اللعين قائلةً: «لا أعلم، تعالي كي تسمعي آخر الأخبار».

كانت تخبر العجوز ما تحتاج إلى سماعه ليس إلاّ.

* * *

في بوفيستا، تمدّد لوغان وماكو على السرير الذي صنعه زواجهما الطويل، وتمسّك أحدهما بالآخر بتجهّم لمقاومة الشتاء القادم. شمّ رائحتها بقوّة، وكأنّه يبحث عن دليل ما، وصمة شخص آخر؛ لكنّه لم يجد أيّ أثر لخيانة.

قال: «إيّاك أن تهجريني يوماً».

مشى فاكر بورك مع وولفي ستانرز في سهل بيغ نوثين تحت جنح الظلام. بلغا منعطف هاي بورين الذي يؤدّي إلى مسار قمة الجبل المتاخم لربوة الصوّان. وسرعان ما لاح جسر الأميال الثمانية في الأفق. لم يكن الليل مُقمِراً كما تنبّأ به الواشي، فمشيا على حافة الماء، وابتعدا عن الضفّة متوجّهين إلى أسفل قناطر الجسر.

كان الواشي في انتظارهما فعلاً.

مقيّدٌ من كاحليه بأحد أعمدة الجسر، يداه موثوقتان أيضاً؛ ومعظم جلده مسلوخ، وقد شُقّ حلقه وكان ينزف كخنزير. تخثّرت بِركة دم تحته واسودّت، وقُلِعَت عيناه للذّة الشرّ. كان من الأفضل أن يطلقوا عليه النار الآن! وما بقي من الجلد تدلّى منه في قِطَع وخِرَق بيضاء.

على قنطرة الجسر مباشرةً، خلف الواشي المعلّق، كُتِبَت كلمتان بالدم:

مع حبّي

نظر فاكر إلى وولفي.

نظر وولفي إلى فاكر.

وحثّا الخطى نحو هاي بورين.

* * *

يحمل ليل نوثين معه الرعب دائماً. ويهزّ هبوب الرياح الشديدة جدران منزل غانت المتنقّل المصنوع من الألمنيوم. في طيّات الرياح، سُمع نداء البلشون المرّ، ذاك الطير البائس. حفيف وصرير غامضان يتناهيان من الخارج، ولم يكن غانت قد هدأ تماماً بعد.

ما زال نبضه سريعاً،

ورأسه مشوّشاً.

وفي أذنيه تعصف رياح حارّة.

كان يرتعش ويتوتّر مع كل صوت يسمعه. سأل الليل غفراناً. التهبَت ساقاه من آلام عمره الباردة. وبينما هو ينهض عن كرسيّ المرحاض، زفر زفرة الألم ذاته الذي رافق والده المسكين إلى القبر. حتّى الأنين يورَّث. سمع نعيق مخلوقات الليل في الخارج، وأصوات الطنين بين القصب.

لفّ نفسه بجلد غزال، وأطفأ الشموع. خرج إلى الظلام. عرف أنّ من الأفضل أن يكون فيه، جزءاً منه، على أن يجلس في منزله

المتنقّل ويرتجف شعوراً بالذنب. أغمض عينيه ومشى. حاول أن يدخل على موجتها بلطف إلى أن تقترب لقاءاتهما.

مشى إلى بقعة مرتفعة، وهناك، قبالة سهل المستنقعات، كانت أنوار مدينة بوهاين تتلألأ، وهي تتوهّج في ظلام تشرين الأول كمدينة بابل.

القسم الثاني

... كانون الأوّل ...

المشهد من مقرّ غيرلي الشاهق

ها هي غيرلي بعد مشاهدة الفِلم، مخدّرة بالانفعال المفرط، ترقد في الحرّ الاستوائيّ تحت لُحُف الريش المكدّسة، متخمة بالويسكي، ومرتخية من حبوب الدواء. هي في شتائها، التسعين فيّ بوهاين، أعنّا يا مجيرنا الحبيب. شعرتْ بميل غريب جداً: فكّرتْ في النهوض من السرير. كان الوقت لا يزال عصراً في شارع دي فاليرا، وهي تصرّ على إضاءة المصباح القديم. راح عازف لعين يعزف على الميلوديون تحت في الشارع، على الرغم من كل شيء.

دفعت عنها اللُحُف بتنهّد هزّ رئتيها. هذا المجهود أثار وخزاً في عظام كتفيها، كان ليطيح بحصان كبير. الوخز هو إحدى تجاربها اليومية، وهو ناتج عمّا يفوق ثلاثين عاماً من تناول أقراص دواء لم يصِفها الطبيب، ناهيك بالخمرة القويّة ومشاهدة أفلام هايدي لامار.

«سحقاً!»، قالتها برزانة.

أرجحت ساقيها على جانب السرير الكبير. جلست لحظة كي تلتقط أنفاسها، ونظرت إلى ساقيها بتفحّص. ترى غيرلي أن ساقيها لا تزالان جميلتين. ومع هذا تطلّب وضع هاتين اللعينتين على

الأرض، ودفع نفسها إلى الوقوف بشكل متزعزع، مجهوداً هائلاً. وبدا أنّ هذه الحركة قد أزاحت إحدى كليتيها من مكانها. اندفع ألم في ظهرها النحيل كسهم متعرّج المسار، وكأنّ الشيطان نفسه طعنها بعصا مسنّنة، استوت من جديد وقالت: «بئس ما فعلت أيها المجير».

طَرحَت ذراعها الضعيفة على الطاولة إلى جانب السرير، فقلبَت علبة حبوب مهدّئة من الحجم الكبير. أخذت بعض الحبوب التي وقعت، وصوّبتها إلى فمها. بالطبع، لم يكن في هذه الحركة شيء من الشرف الرفيع. الحبوب التي هبطت على لسانها، الذي أصبح اليوم خشناً كورق الزجاج، ككل الأمور المعوجّة فيها، ابتلعَتها مع جرعة من ويسكي جون جايمسون مباشرةً من عنق الزجاجة.

وداعاً أيتها الأناقة.

رفعت نفسها مجدداً، ووقفت بشجاعة عند طرف السرير، فعانت دواراً عنيفاً. ضمّت شفتيها بشدّة لمقاومة الدوار. ثمّ حلّ في رأسها إحساس بفراغ هائل. عانت غيرلي عقوداً من نوبات دعتها «فراغ الرأس». كانت تشعر أيضاً بالعار. فعندما تعجز عن سكب الويسكي في الكأس يكون الوقت قد حان، برأي غيرلي هارتنت، كي تُغرِق نفسها في نهر بوهاين.

لا تزال أمامها المرحلة التالية، وهي المشي.

فكّرت غيرلي في صحراء السجادة البيج الشاسعة الممتدة بينها وبين النافذة البعيدة المطلّة على شارع داف. جرّبت بتردّد أن تخطو خطوة بقدم مزروعة بالدوالي. إذا حملتها ساقاها، فقد لا

تحملها وركاها المهترئتان. لن تكذب غيرلي على نفسها. أبعدَت قدماً عن الأخرى، وجرّبت حمل وزنها. إذا تحمّلت إحدى وركيها فهذا انتصار، وإذا تحمّلت الاثنتان فهذه أعجوبة من صنع المجير. أخذت أعمق نَفَس يمكن أن تأخذه بعد تسعين شتاءً قضتها في تنشّق الهواء الرطب في شبه الجزيرة هذه. لم تكن خطوتها ثابتةً، فتمايلت بشكل مأساوي، وكأنّ رياح بيغ نوثين الشديدة كانت معها في الغرفة. سمعت صفير الهواء عبر تجاويفها المبريّة. أحسّت غيرلي أنّها بيت مهجور.

لا بل قصر مهجور.

ما من ألواح زجاجية للنوافذ، وما من نار في الموقد. وثمة طائر جاثم في العليّة يصيح، لكن مع ذلك يمكنكم أن تشعروا بعظَمة المكان. كانت غيرلي خراباً جليلاً. هدأت من جديد على موسيقى الميلوديون الحزينة الصارخة في الأسفل، أغنية شتائية لشهر كانون الأول الرديء في خليقة بوهاين.

تحلّت غيرلي بالإصرار، ووضعت قدماً مرتجفةً أمام الأخرى لتصل إلى المكان الذي يمكنها أن تشاهد المدينة منه. كان عبور جيوش التاريخ العظيمة بمآسيها على سلاسل جبال تعصف الرياح بقممها أسرع من عبور غيرلي مسافة تلك السجادة. لكنّها واظبت، وبلغت الستائر بعد كفاح ملحميّ. تمسّكت لاهثةً بطيّات المخمل الأزرق الطويلة. تموّج الستائر أشعرها بالدوار وغشِيَت عينا غيرلي للحظة: إنه فراغ الرأس! عادت وتماسكت. باعدت بين الستائر

بوصةً أو اثنتين قدر ما أسعفتها قوّتها، وصوّبت عينين شبه مفتوحتين على شارع دي فاليرا.

يوم ثلاثاء من شهر كانون الأول، بائس كحجرة تجذيف جهنّميّة للعبيد، قابع تحت سماء بسواد السخام. كانت أعصاب المدينة ممزّقة. حصدَت بوهاين مقتل ثمانية شبان منذ عطلة تشرين الأول المصرفيّة. خمسة منهم تابعون لعصابة كيوساك، وثلاثة لعصابة هارتنت فانسي. منسوب التهديد والمرارة والغضب يغلي بهدوء في المدينة. ابتسمت غيرلي. للحفاظ على حالة الغليان في بوهاين عليكم رفع درجة حرارة الموقد ليس إلّا.

كانت شجارات ليليّة تندلع في باك ترايس، ومناوشات في الميدان ٩٨، واعتداءات عشوائيّة في مواخير سموكتاون. تطايرت الزجاجات والسباب عن سطوح المدينة. وتعرَّضت شقيقات البعض وأمّهاتهم للإهانة. كاد الأمر يبلغ حدّ العداء المطلق. لكنّ هارتنت فانسي وعائلات «نورثسايد رايزز» أوشكتا فعلاً أن تكونا على عداء.

كانت غيرلي تعتقد أن العداء المشحون هو ما تحتاج إليه المدينة.

في البعيد، كان يُسمَع النوريون يهمهمون أناشيد المعارك الشعائرية. وفوق السطوح لاح وميض غضبهم المشتعل. وكانوا يُعلِمون الباقين أنهم جاهزون للنزاع. كانت أناشيدهم إيقاعيةً جهيرةً، يتخلّلها تصفيق مشبوه. هذه موسيقى التهكّم والحزم في بوهاين.

جال رجال الشرطة في كل مكان ملوّحين بعصيّ مكافحة الشغب، ومخافة مجيرنا الحبيب تنير عيونهم الهائمة. فتيان حمقى مساكين

خرجوا للتوّ من المستنقع، سيتجنّبون اللحم المتطاير، ويكنّسون الأعضاء الداخليّة حتى بداية السنة الجديدة.

بائعو النواصي يصرخون معلنين عن طبعة صحيفة الفينديكايتور المسائيّة. دوم غليسون البدين يعزف على كمانه، ويقرأ نثراً بديعاً محاولاً المحافظة على هدوء عيد الميلاد.

العنوان الرئيسي: مكتبة t.me/ktabrwaya

أوقفوا الجنون!

لكنّ عائلات رايزز توحّدت بشكل لم تشهده من قبل، وتحضّرت جيداً للتحرّك بوجه عصابة فانسي.

نظرت غيرلي إلى شارع دي فاليرا بحزن. ليتها لا تزال تملك القوة لمشاهدة عراك لائق. مرّت أمامها نوافذ القطار 'أل' مُهَسهسةً، بوميضها الأصفر، فتشوّش مشهد الشارع، وتاه عقلها معه. إنه فراغ الرأس. وسافرت غيرلي إلى زمن بوهاين الماضي الضائع.

كان غانت برودريك غجريّاً في العاشرة من العمر، وهو طفل وسيم وكئيب، زرقة عينيه شديدة، يطوف دائماً في شارع داف بحثاً عن فرصته الأهمّ. إنّه فتى محترس. يحذّركم من أبسط الأمور على خط الترام. كان والده سكّيراً سيّئاً من نوثين، قضى نصف حياته غارقاً في وعاء من جعة راسلر، وكان عاطفياً كمجموعة من الأغاني الشعبيّة. عاشت الأُسرة بشكل متقطع في سهل المستنقعات: نصف وقتها في شقة في ترايس، والنصف الآخر في منازل متنقّلة في بيغ نوثين. غانت هو الأكبر بين أشقّائه، وسرعان ما راح يركض بحريّة

في ترايس. أَحَبّ التسكّع مع نصّابي فانسي، وتحوّل إلى ما يُشبه تميمة تجلب لهم الحظّ، وكان يقضي لهم حاجات كثيرة. انشغل بأعمال كهذه منذ نعومة أظفاره. تشاجر مع رجال راشدين على أرصفة الميناء. لو شاهدتم حركاته لراهنتم أنّه الفتى الأكثر رجولةً في أرض نوثين. كان فتىً مؤدّباً لكنه كان عزيز النفس. لا تهينوا الغجر أمام غانت، لئلا يمحو معالم وجوهكم. راح يكبر في فورات متلاحقة سريعة. أَحَبّ العمل كممثّل عن العصابة. رأته غيرلي عندما نزلَت يوماً إلى باك ترايس، يمضي بسرعة ليقوم بعمل شرّير، فمدّت قدمها وعثّرته قائلةً: «إلى أين تذهب أيّها الغجريّ؟».

نهض الفتى غانت ببطء، وحدّق إليها، وهو يتراجع. أبقى نظره مسمّراً عليها، فقد كان يتمتّع بثقة بالنفس تجعله لا يهاب ذلك. ولا يستطيع كثيرون أن يدّعوا امتلاك تلك الثقة. عرفَت غيرلي من نظرة واحدة عن كثب مستقبل غانت فقالت: «احذر الأماكن التي تطأها يا بني».

عادت غيرلي؛ تركت بوهاين القديمة وشأنها، الآن على الأقل، لكنّها كانت تعلم أنّ الماضي لم يمت في هذه المدينة، بل استمرّ في الغليان والتخمّر هناك، وألقى بظلاله على الحاضر. ماذا ستكون نتيجة عودة غانت؟ ذلك هو الأمر المحيّر.

تهاوت للحظة فقط، فغرزت أظفارها في مخمل الستائر. أخذت نفَساً عميقاً. فتحت عينيها وجهدَت لرؤية حانة أليادوس، وراحت تركّز في اللحظة التي كانت تنتظرها.

خرج وولفي ستانرز وفاكر بورك من الحانة. لطالما كانت غيرلي

تراقب الشبان القادمين. فالشبان هم من يشكّلون حاضر المدينة. شاهدت الأصهب القصير القامة البدين. كانت تعرف والدته. وابتسمت حين تذكّرت الطريقة التي كان يمشي بها دائماً مُغلقاً قبضتيه الصغيرتين. يجب ألّا تعترضوا طريقه. كان الأخرق النحيل إلى جانبه، فتى بورك، وهو صاحب ابتسامة تجعل القلوب تقفز من مكانها. فكّرت غيرلي: «ما من خوف من فانسي إذا حافظنا على حياة هذين الشابين».

شاهدت الشابين يتوجّهان نحو ترايس شمالاً. عرفت أنّ وجهتهما هي الميدان ٩٨. سيعلَن العداء رسميّاً.

في بوهاين، في هذا العصر، لكي يبدأ النزاع بالفعل يجب أن يعلن خطيّاً ويُقبَل. ويُعرف قبول النزاع من الطرف المتحدَّى ’بوصل الاستلام‘. لهذه العملية آدابها؛ فنحن لسنا بهائم. كانت زمام فانسي في قبضة غيرلي المسترجلة.

شعرت بالقوة تعود إليها، فاستقامت في وقفتها. وبينما كانت تنظر إلى الشوارع في الأسفل، رأت أنّ بوهاين تتشبّث بالشتاء، كما يتشبث كلب عجوز ببطانيته.

كانت بوهاين مبتلاة بالشتاء كما يُقال.

أعطِنا يوم ثلاثاء بائساً من كانون الأول، ورياحاً شديدة عاصفة بنا، ومطراً يجنح باتجاهنا من المحيط القبيح اللعين، وعنباً يكاد يتجلّد، وجليداً قذراً على أسطح البُرَك. ولسنا سعداء، تحديداً، لكننا راضون بيأسنا.

كما لو أنّنا نستطيع أن نقول...

الآن!

هل تفهمون، الآن، ما نحن بصدده؟

الميدان ٩٨

انطلق فاكر بورك وولفي ستانرز يواجهان الرياح الشديدة وهما يتسلّقان الجُروف. كان وولفي يلتحف سترة منتفخة من المخمل المزيّف تصل حتى عنقه، ولم يكن يظهر منه سوى رأسه الصغير الخبيث. تأرجحت عيناه يساراً ويميناً للتحقّق من عدم اختباء مشاغبين في الممرّات. وكان فاكر يرتدي قميصاً رسميّاً مخطّطاً مصنوعاً من قماش أصفر، كالذي يُستعمل لخياطة أكياس الجبنة. كان من الشبان الذين لا يشعرون بالبرد؛ ذلك أن ناراً غريبة كانت تتأجّج في داخله. مشيا بسرعة في ترايس، وتوجّها نحو الميدان ٩٨. كانت رياح الشتاء الشديدة مخيفةً، وأزقّة ترايس حالكة الظلمة كحجرة الموتى.

لا بدّ أن تشعر برطوبة الهواء البارد. بوهاين مدينة تجذب التهاب الرئة كغانية في هذا الوقت.

يستقرّ الإحساس في أعماق المكان، نعرف ذلك. ترايس تشهد في هذا المساء وميضاً غريباً متوتّراً. سوف تسيطر عليها تلك الأجواء عندما يشتعل فتيل العداء القصير.

وصل فاكر وولفي إلى الميدان ٩٨. كان أول بوي مانيون قد جهّز لهما ممرّاً إلى رايزز لم تطأه قدم من قبل، لكن لهذا المساء فقط، ولهذه الغاية فحسب.

الميدان ٩٨ مرتفَع شديد الانحدار. وبينما كانا يصعدان، كانت نورث سايد رايزس تظهر، وباك ترايس تختفي.

من الجادّات الواسعة المهجورة، خدشت أصوات النوريين السماءَ الرطبة، وهمهم المنشدون أغنيةً حربيّةً قديمةً، ورقص لهب النار، وتطايرت شرارات منها.

اقترب وولفي وفاكر من قمة المرتفَع وخفتت الأصوات قليلاً، وحلّت محلّها سلسلة صفير طويل رخيم.

كان من الواضح تماماً أن مراكز المراقبة في رايزس ترقب صعودهما.

راح فاكر يصلّي في صمت أن يكون مانيون صادقاً، وأن يكون الممر آمناً. لكن إذا لم يكن كذلك، فلن يرى أنجلينا عزيزته من جديد، ويغرق في بحر عينيها، فصلّى أن تجد مضجعاً سعيداً في مكان آمن، حيث قد تنساه بعد فترة.

لم يلجأ وولفي ستانرز إلى أيّ مجير، بل إلى نبض قلبه الشرس المنتظم من باك ترايس. أخذ يتفرّس من دون خوف في جادّات رايزس، وهما على وشك الوصول إلى نهاية المرتفَع.

كانت جادّات رايزس عريضةً، خاليةً من الأشجار، مهدّمةً،

ومصمّمةً بنمط سوفياتيّ تقريباً. وكانت واجهات أبراج الشقق الشاهقة الأسمنتية مشقّقةً جراء عقود من الجليد وانصهاره، ومن ثورات رياح بيغ نوثين الشديدة. كلاب شرسة تقوم بدوريّات عند الممرات. لايزال الصفير البطيء مسموعاً. زعق بهما صوت حادّ خرج من ظلال الليل: «ارحلا من هنا يا حثالة ترايس!».

ابتسم وولفي وقال: «هل هذا أفضل ما لديهم؟».

لاحت أبراج الشقق الشاهقة من جانبَي الجادة العريضة التي كانا يسيران فيها. وعندما نظرا مباشرةً أمامهما، شاهدا وميضاً عند الأطراف. ثمة حركة. نعم، كان المشاغبون يحيطون بهما. الفتيان النوريون القصيرو القامة الأشرار. كانوا يصفّرون، لكنّهم ظلّوا في الخلف، في حين راح ثنائي فانسي يقترب.

هسهسوا من الخلف، وبصقوا قليلاً، لكنّهم ظلّوا على مسافة منهما.

تغيّرت نغمة الصفير، وأصبحَ إيقاعها أسرع، فأدرك الشابان أنّهما يقتربان من أرض عائلة كيوساك.

قال فاكر بنبرة مرتعشة: «يبدو أنّنا نثير جنونهم».

لم يرفّ جفن لوولفي، وهزّ كتفيه.

كان عدد المشاغبين خلفهما يزداد كلّ دقيقة. وما أقلق فاكر هو عذوبة نغمة صفيرهم.

اقترب منهما كلب مسعور، كان قرب نار مشتعلة عند جانب

الطريق، زمجَر وتمايل وكشّر عن أنيابه، لكنّ وولفي قفز قفزةً صغيرةً سريعةً في الهواء، وركل أنف الكلب الهجين الذي عاد بسرعة من حيث أتى.

قال وولفي: «لعنة النوريين على هذا المخلوق».

كانت المجموعة التي تلحق بهما تطلق كلاماً ساخراً وتهديدات. لكنّ وولفي استدار بأناقة، بحركة التفافيّة جديدة بحلبة رقص، وراح يسير القهقرى. ابتسم للمجموعة، فظلّ أفرادها على مسافة رغم السخرية.

كان يقال هذا الشتاء في بوهاين إنّ أحداً لن يُثير الخشية أكثر من مساعد لوغان هارتنت المتجوّل وولفي ستانرز، الرجل القصير القامة، الأصهب الشعر، صاحب النظرة الماكرة الشريرة.

اتّجه وولفي وفاكر مباشرةً نحو أبراج كروبي بوي.

وهي مجموعة أبراج شقق شاهقة تتمركز فيها عصابة كيوساك. تبدأ هذه البقعة بأرض وعرة غير معبّدة، حيث تشتعل نيران في البراميل، ويقفز أطفال الأبراج الهائجون كالهررة عن أعمدة قديمة، وتهبّ رياح نوثين الشديدة من الفجوات بين الأبنية، وتهيمن في الأجواء لسعة تهديد ثقيلة.

كان يتصاعد من قبو أحد الأبراج، إيقاع جهير لموسيقى «تروجن داب». عرفا فوراً أنّه من حانة الأبراج غير المرخّصة وتوجّها نحوها؛ تسارعت أنفاس فاكر، وأخذ وولفي نفساً عميقاً.

في نورث سايد رايزس، كانت العادة آنذاك أن تضمّ كل مجموعة أبراج حانتَها غير القانونية الخاصة. وكانت تقع في أحد أقبية الأبراج، وفيها يحتسي الشبان الجعة، ويدخّنون الحشيشة ويستمعون إلى الموسيقى، ويتكلّمون على النساء، ويتمرّسون في استخدام الخناجر.

اقترب وولفي وفاكر من حانة كيوساك غير المرخّصة.

كان ثمة حارسان يقفان في خمول شديد عند مدخل السلالم. يحمل كل منهما سلاسل إطارات ويعلّق على صدره خنجراً مائلاً ويداه تتحرّكان على بنطلونه بتراخٍ. صوّب وولفي وفاكر نظريهما إلى الحارسين الشاخصين إليهما. حلّ صمتٌ ثقيل، ثم تباعد الحارسان لكنّهما فعلا ذلك ببطء شديد.

فُتحَ الآن أمامهما مدخل حانة القبو غير المرخّصة.

كانت بالفعل حانةً سيئة السمعة مكتظةً بالكيوساك القذرين. وقف الموالون للعائلة حاملين زجاجات فينكس وغلايين الحشيشة المحترقة، وتردّد إيقاع جهير متموّج في الهواء، يشعر به المرء في نخاعه الشوكيّ.

لم يكُن من داعٍ لإعلان وصول وولفي وفاكر.

توقفت الأسطوانات الموسيقية بسرعة، واستدار أفراد عصابة الحانة كشخص واحد لمواجهة الشابين الواقفين عند الباب. همسات غامضة، صفير أشبه بفحيح، لكنّ فانسي هارتنت لطالما عُرِفت بجرأتها ولامبالاتها، وكان هذان الشابان يجسّدان هاتين الميزتين:

حدّب وولفي ظهره ونظر بحدّة، وشدّ كفّيه الصغيرتين في قبضتين صلبتين.

وقف فاكر مسترخياً، متسلّحاً بسمعته كشخص لا يمكن التنبؤ بردود فعله.

كانت حثالة الكيوساك تنعق كطيور الشارع، فطائر الزرزور رمزها. لكنّ العصابة لم تقترب بل تباعدت.

أضيئت الأنوار القويّة، واشتدّ وهج المصابيح المبهر.

سُمع نباح شديد من خلف العصابة فرُدّ عليه، بطريقة شعائرية، بوابل من نباح مجنون تصاعد من أرجاء الحانة المسعورة كلها.

تحت النور الساطع، بدت بشرة أفراد عصابة كيوساك المجدورة بأوشام طائر الزرزور السيئة التي غطّتها، أكثر سوءاً. لون بشرة الناس عموماً في نورث سايد رايزس سيئ إلى درجة يفضّل معها عدم الكلام فيه.

نظر وولفي وفاكر إلى عرين العدوّ:

على الجدران علامات تصوّر رموزَ رايزس: كلاب بيتبول تتعارك؛ مومسات المجمعات السكنيّة بأشكالهن الشيطانية وأجنحتهن، وغرابة مظاهرهن؛ ونُصُب تذكارية لحاملي الخناجر الموتى بحسب تعاليم نورث سايد.

لم يبدُ وولفي وفاكر متأثرين بتاتاً، حين صوبا نظراتهما إلى عصابة الكيوساك.

اعتمد أفراد العصابة في هذا الموسم لباساً موحّداً هو عبارة

عن بنطلون قصير من قماش الدنيم وسترة بلا أكمام، وريش طائر الزرزور، بلونه الأسود المتدرّج إلى الأخضر القُزَحيّ البرّاق، مثبّت على أطراف قبّعاتهم القصيرة. كانوا محدودي الذكاء، وهذه صفة مشتركة بينهم جميعاً، ما يجعل نظراتهم هائمة كنظرات كلّ أغبياء نورث سايد.

سُمع النباح مجدداً، ورُدّ عليه بوابل نباح. وها هو آيز كيوساك شخصياً، ملك النبّاحين نفسه، يشقّ طريقه وسط أفراد العصابة.

كان عاري الصدر إلا من سلاسله الذهبية، قويّ البنية، مربوعاً، وكان فمه ممتلئاً بأسنان ملبّسة بالذهب. راح يبتسم بحقد، وهو يقترب من الشابين.

توقّف على بعد خطوات منهما.

تفرّس في وولفي مخمّناً قوّته.

هزّ رأسه تقديراً وقال: «ليتقدّم الفتى».

فرك ذقنه مفكّراً، ودنا منه قائلاً: «هل ينفّذ الفتى خطته الخاصة، أم أنه يرعى شؤون عائلة فانسي؟».

أرخى كتفيه بحزن وأكمل: «لأنك يجب أن تعرف يا فتى أنّ لدينا مجموعةً من الكيوساك يحملون ندوباً وجروحاً سبّبتموها أنتم في المرّة الفائتة، هل تفهم؟».

وافق وولفي بحزن وقال: «كانت المعارك شرسةً بالفعل يا «كيوس»، لكنّ الجميع حصلوا على ما استحقّوه».

دوّت هسهسات ونعيق وهدير؛ فرفع آيز كيوساك يده لإسكاتهم

وقال: «اسمع يا فتى، دعك من المعارك، اتفقنا؟ ثمة جثث طفت على مياه نهر بوهاين على مرّ السنين، ولهؤلاء الموتى أحباء وأصدقاء هنا، هل تفهم؟».

طأطأ وولفي رأسه قليلاً، وجال بنظراته في أرجاء الحانة بتجهّم، وقال: «أنا آسف لمشكلاتكم».

انتفضت العصابة، واقترب أفرادها؛ لكنّ آيز كيوساك رفع يده المبقّعة المملوءة بالثقوب مجدداً وصرخ: «اهدأوا، اهدأوا الآن!».

هدأت العصابة مرغمة، ورغماً عن طاقتها الرهيبة المكبوتة. أما آيز كيوساك فقال بتعجب:

«الفتى شجاع جداً، هل أنت متأكد من أن عروقك لا تجري فيها دماء النوريين؟».

جفل وولفي، ثم قال: «الشيء الأصفر الوحيد فيّ هو ما تبوّلته هذا الصباح».

زمّ آيز شفتيه وألقى نظرةً على فاكر، وقال: «وهذا الأخرق ورث شيئاً من التلال، أليس كذلك؟ انظر إلى هاتين العينين الخضراوين».

بصق فاكر والتوى وحدّق بحدّة إلى كيوساك، قائلاً: «إننا هنا في مهمّة فلا تهتمّي بالكلام الجارح القديم يا «كيوسي» الصغيرة».

استدار آيز نحو عصابته، ابتسم ورقص رقصةً إيقاعيةً وقال: «لا يدرّب الطويل المخنّثين ليكونوا مساعدين. أرسل إليّ أفضل غجريَّين، لكنّه لا يستطيع أن يأتي بنفسه، أليس كذلك؟ لا يا سيّدي،

الطويل يبقى في البيت ويراقب فناءه. ألستُ محقاً أيّها الأصهب؟».

أجاب وولفي: «السيد هارتنت منشغل».

فردّ كيوساك: «حقّاً؟ بمَ هو منشغل؟ بعينَي عاهرته، أم أنه يدبّر شيئاً مع أمّه؟ إنّه صغير أمّه، أليس كذلك؟ يريد أفراد هارتنت القيام بالأعمال في نيو تاون الآن طبعاً، أليس كذلك؟ لم تعُد تكفيهم الحشيشة والعاهرات. لا سيّدي. الآن يريدون حافلات الترام والقصور، أليس كذلك؟».

لوّح وولفي بيده المنمّشة مشيراً إلى انتهاء الحديث عند هذا الحدّ، وقال: «نريد أن نسلّمك شيئاً».

مدّ يده إلى سترته، وأخرج مغلّفاً من الرقّ الفضيّ، برز عليه نقش شعار هارتنت فانسي، وهو رأس تيس، وفي داخله إعلان العداء.

قدّم وولفي ستانرز المغلّف إلى آيز كيوساك.

«دوم»، ثم صمتٌ غريب.

ذاك الصمت جعل وولفي يفكّر أنّ الثقة بالنفس قد لا تكون عالية بالقدر الكافي في صفوف عصابة كيوساك. لكنّ آيز أخذ المغلّف، وحشره في حزام بنطلونه وأخرج من جيبه الخلفيّ قطعة ورق قذرةً مطوّيةً مرّتين، وأعطاها لوولفي.

فتحها وولفي، ووجد عليها رسماً بسيطاً جداً، وكأنّ طفلاً قام بخربشته. رجل نحيل مرسوم بأقلام تلوين على جبينه قضيب وخصيتان.

قال آيز كيوساك: «'وَصْل الاستلام'، فليحاول رئيسك أن يجد تشابهاً مع الرسم».

أومأ وولفي بلباقة، واستدار راحلاً جنباً إلى جنب مع فاكر، وقال: «سأعِلمه أنّك قبلتَ».

فقال آيز كيوساك: «أعلِمه يا فتى، وسنراكم تحت، مفهوم؟».

أجاب وولفي: «اختاروا الوقت الذي تريدونه يا «كيوس»، ما من مشكلة لدينا، اتفقنا؟».

سارا مجدداً في جادّات رايزس الوعرة. علت فيهما الآن موجة حرارة عارمة، وشعرا بهدير عظيم في الأجواء. سيندلع قتال لم تشهد له مدينة بوهاين مثيلاً منذ دهور ودهور، هل تفهمون؟

حساء السلطعون الأسود

مقهى هو بي تشينغ أو-كاي، بعد منتصف الليل مباشرةً. حمل العمّ تشينغ، صامتاً متجهّماً، ثلاث قصعات حارّة من حساء السلطعون الأسود، قادماً من المطبخ الخلفيّ.

وضعها بصورة رسميّة جداً أمام:

- السيد لوغان هارتنت، الذي كان جالساً هناك مسترخياً، يزيل كتَل الكاجو من الفجوات الكائنة بين أسنانه الصفر بمسواك. وكان يرتدي بذلة رمادية من الفينيل ذات قصّة مستقيمة متزمّتة، تلمع في وهج النور الرقيق في هو بي. ويضع معطفاً واقياً من المطر من القماش واللون أنفسهما على ظهر كرسيّه. يا له من أنيق، عليه اللعنة!

- الآنسة جيني تشينغ، زعيمة هو بي منذ أن رمت أمّها السوداوية المزاج بعظامها المعتوهة النحيلة في نهر بوهاين ركضت من المقهى بسرعة ومن دون تردّد، بسبب ديون المراهنة على قتال الكلاب كما قال البعض، أو بسبب صفة الجنون الموروثة الدائمة في عائلة تشينغ كما قال آخرون. حدّقت جيني إلى الحساء الدهنيّ القشديّ الذي قدّمه عمّها بنظرة ازدراء،

ودفعت بالحساء جانباً. كانت ترتدي بذلةً جلديّةً بيضاء من قطعة واحدة مع جزمة عالية بسحّاب، كالتي ينتعلها خيّالة الشرطة، وقد أرخت شعرها الجميل على كتفيها. كان شعرها ممشّحاً، قُصّ هذا الموسم بخط مستقيم فوق جبهتها، وراحت تنفخه جانباً بنفخات إيقاعية منتظمة من دخان سيجارتها.

- السيدة ماكو هارتنت التي وُلدت ماكو سيمهاو، وريثة مقهى أليادوس، ملكة فانسي باك ترايس، في فستان ضيّق من الكشمير تحت معطف طويل رقيق منتفخ من الأسفل قشديّ اللون، لم يكلّفها شيئاً أياً يكن المتجر الفاخر الذي اشترته منه في نيو تاون. راحت تتفرّس في جيني بشدّة وفي لوغان، وفكّرت: «إنني في الثالثة والأربعين، أجلس كي أتكلّم عن شجارات العصابات اللعينة؟».

سألت جيني: «هل سيرسل كيوس عائلات كثيرةً بالإضافة إلى عائلته؟».

أجاب لوغان: «أظنّ ثلاث عائلات كحدّ أقصى. ستكون عائلة «مكغرورتي» معه طبعاً. «المكغرورتي» يولدون جامحين. «المكغرورتي» قد يخوضون عراكاً بسبب تزاوج ذبابتين. ستكون معه عائلة «لينداين» أيضاً. هذا أمر مؤكّد، «فاللينداين» عائلة يمكن شراؤها ولطالما اشتُرِيَت. في النهاية...».

لوّح لوغان بيده في الهواء، صارفاً النظر عن المسألة، للتعبير عن ضعف تحالف الرايزس.

فقالت ماكو: «لا بدّ أن لديهم أعداداً كبيرة يزحفون بها علينا من الأعلى، إذا كانت ثلاث عائلات في صفّهم».

فقال لوغان: «إذا أردتِ أن تكوني سلبية في تفكيرك يا حبّ حياتي، فقد يكون هذا رأيك».

في الحقيقة، لم يسعه إلاّ أن يسمعها: كانت جروف مدينة بوهاين المرتفعة تضجّ بأناشيد النوريين العدائية.

فقالت ماكو: «رأيت مشاعل كثيرةً تحترق يا لوغان. رأيتها وأنا أهبط من البيت».

حبال من نار على طول الجروف، وكانت الرسالة: عائلات النوريين على أهبة الاستعداد للحرب.

فقال لوغان: «يمكنهم إشعال نيرانهم الصغيرة قدر ما يريدون. وتذكّري هذا يا ماكو من فضلك. لم يراودكِ يوماً في حياتك اللعينة شعور مريح عشيّة 'عداء'، أليس كذلك؟».

فأجابت: «قد يأتي وقت ندخل فيه 'عداءً' آخر يجعلنا نتخطّى الحدود، هل تفهم؟».

تفرّس في زوجته، لكنّه أبقى غضبه مكتوماً، وحوّله وصوّبه ببرودة نحو مساعدته الصغيرة قائلاً: «أفهم أنّك أصبحتِ من زبائن بوهاين آرمز الدائمين، يا صغيرتي جيني».

لم يرفّ جفن لجيني تشينغ، وقالت: «وجدتُه مكاناً تسمع فيه قصص مثيرة للاهتمام عن زمن بوهاين الضائع».

سألت ماكو: «حقاً؟ قصص بشأن ماذا؟».

ردّت جيني: «كل أنواع القصص، عن ارتقاء الناس وسقوطهم من جديد».

«كانت والدتي العزيزة لتُخبرك قصصاً هناك بالتأكيد».

رمقت جيني ماكو بنظرة حادّة، وأكملت: «وعن الأمكنة التي يأتي منها الناس، في الأصل».

أظهرت ملصقات مجلّدة على جدار «هو بي» ديوكاً وخنازير وجرذاناً. وعُلّقت حبال المصابيح الصغيرة من جدار إلى آخر فوق طاولات الفورمايكا، واشتعلت بتوهّج شاحب. بدا لوغان مبتسماً وهو يتناول حساءه. كان يحبّ قتال القطط.

قالت ماكو بتهذيب أشبه بتسرُّب سمّ: «ومن أين قدمت عائلة تشينغ في الأصل يا صغيرتي جيني؟».

انتزعت جيني من جيب صدرها، سيجاراً رخيصاً، وقصّت طرفه وأشعلته. ثم سحبت نفساً عميقاً، ونفخت دخاناً بنيّاً، وقالت: «جذور عائلة تشينغ من بوهاين، وتعود إلى ما قبل الزمن الضائع. بُنيَت سموكتاون بدماء «آل تشينغ». جذورنا ضاربة في القدم. نحن لم نصل مع الموجة الأخيرة سيّدتي».

رسمت بيدها التي تحمل السيجار حركةً في الهواء، ببطء وبشكل دائريّ، للإشارة إلى الموجة، فشكّل الدخان إشارات يتعذّر فهمها في وهج «هو بي» الحالم.

قالت ماكو: «بالطبع لا، فآل تشينغ يسعون كالأفاعي في الأزقّة منذ زمنٍ لا أستطيع تذكُّره. ويتدخّلون في شؤون الجميع».

تدخّل لوغان قائلاً: «سيّدتيَّ، من فضلكما».

أبعَدَ حساءه. شبك أصابعه الطويلة على بطنه النحيل. لطالما استمتع بعشيّة 'العداء'. كان يعلم أنّ آيز كيوساك لن يترك كلابه مربوطةً لوقت طويل، فكان مزاجه ينمّ عن حماسة ولهفة. عندما تدير فانسي فإنك تحتاج إلى إظهار غضبك بانتظام لإبقاء المدينة تحت السيطرة؛ وإبقاء شبان فانسي في أفضل حالة يكتسب الأهمّية عينها. تناولوا الكثير من الطعام الحلو والخفيف، وأصبحوا بدينين، كثيري التبسُّم بشكل مزعج، وزائدي الاهتمام بمجلاّت الموضة.

نقلَت جيني تشينغ نظرها من لوغان إلى ماكو، ثمّ إلى لوغان مجدّداً.

رفعت حاجبها، ونفثت الدخان نحو سقف هو بي النحاسيّ المطروق.

وأسرّت إلى نفسها قائلة: «أهذا ما يدير فانسي اللعينة في باك ترايس؟».

ثم سألت: «هل سترفعون الأعلام؟».

ردّ لوغان: «حتماً، إذا أردنا القيام بذلك، فسوف نقوم به كما يجب».

فقالت: «الأعلام مزعجة جداً. لمَ ينبغي لنا السير بالأعلام سيّد

هارتنت؟ هل هذا استعراض عيد «القديس باتريك»، أم ماذا؟ اخرجوا إلى الشوارعِ، واقضوا على الملعونين القذرين! لن تُحدث الأعلام وألوانها فرقاً في الضرب الذي سنبرّح به قذارة رايزس، هل تفهمني؟».

تنهّد لوغان بشكل أبوي لطيف، وقال: «لسنا متوحّشين يا جيني. إذا كان ثمة شبّان سيُدفنون في المقبرة غداً، فلن يُقتلوا من دون أن يعرفوا من المسؤول عن قتلهم. ستُرفع أعلام فانسي».

ردّت: «هذا هو الهراء الرديء الذي يثير غضبي. أعلام وشعائر لعينة...».

تدخّلت ماكو قائلة: «وكأنّ غيرلي تتكلّم».

فابتسم لوغان قائلاً: «بالفعل».

عُرفَت غيرلي منذ وقت طويل بأنّها تزدري التقاليد. وهي ترى بوهاين مدينة عاطفية أكثر من اللزوم. هذا لم يمنعها بالطبع من قضاء وقت طويل في تذكّر الزمن الضائع.

قالت جيني: «كل ما أعنيه هو أنّ لدينا الكثير من العمل غير القيام بالسيرك المعتاد...».

فردّ لوغان بحزم: «جيني، لا تسمّيه سيركاً».

أردفت: «كل ما أقوله...».

فقاطعها: «انسي الأمر من فضلك يا جيني».

فأكملت: «لكنّ غيرلي تقول...».

أجاب: «لا تهتمّي «لغيرلي» اللعينة، أنا من يدير فانسي!».

فقالت: «حقّاً يا «أيتش» (أي هارتنت)؟ إذاً لِمَ يجب أن توقّع غيرلي على 'العداء'؟».

نظرتُه الباردة قادرة على تجريد ولد أضعف، من جُرأته، لكن ليس جيني، فقال: «هذه شكليّات؛ بروتوكول. أدعها تعتقد أنّها لا تزال تشترك في العمل. هذا يعطيها دفعاً، هل فهمت؟».

عمّ الصمت.

عبس لوغان.

دخّنت جيني.

ونظرت ماكو إلى الخارج، إلى ضباب سموكتاون الليليّ المخضّر. ما رأته كان استعراض متعاطي المخدّرات والسكارى والمتحرّشين بالعاهرات في ساعات النهار الأولى. فتساءلت رغماً عنها إن كان هو في شارع ما، وإن كانت ستتعرّف إليه إذا رأته، وإذا كان لا يزال يمشي بالطريقة عينها. لم تَرُدّ على رسالته، ولم تسمع عنه خبراً بعد ذلك. مرّ ستّون يوماً على تلقّيها الرسالة.

انزلقت جيني تشينغ من مقعدها، واتّجهت نحو الباب. عندما فتحته، ارتفع ضجيج الثورة الهادر من الشارع، فسألت: «كم من الوقت تعطيهم يا أيتش؟».

أجاب: «لن يتأخّروا إذا كنتُ أعرف آل كيوساك».

فسألت ماكو: «هل فانسي جاهزة؟».

أجاب: «كفّي عن القلق يا فتاة. إنها جاهزة منذ أسابيع. أليس كذلك يا «جان»؟».

فردّت «جان»: «فانسي قادرة على أكل طفل يا أيتش».

أنهى حساءه، ووضع ملعقته في الوعاء، وشبك أصابعه النحيلة عند وسطه، وقال: «اذهبي وتأكّدي في أيّ حال يا جيني».

صرخت ماكو: «شجارات! ونحن قد تجاوزنا الأربعين من العمر!».

لوغان: «هذه هي الحياة يا فتاة».

«إلى متى يا لوغان؟».

لوّحت جيني بيدها، وهي تخرج.

فصرخت بها ماكو: «قولي «لغيرلي» إنّني سألتُ عنها».

تمتمَت جيني شتيمةً بصوتٍ خافت.

فسألتها ماكو: «ماذا قلتِ يا فتاة؟».

ردّت جيني: «لم أقل شيئاً سيّدة هارتنت».

ماكو: «سأتخلّص منكِ أيّتها الآسيويّة الدنيئة، هل تسمعينني؟».

لوغان: «سيّدتيّ، هلاّ توقّفتما من فضلكما؟».

ماكو: «لكن هل سمعتها يا لوغان تتمتم بشأن حَوَلي؟».

وولفي: ولاءاته

تدلّى وولفي ستانرز بقبّة سترته من تعليقة معاطف في حجرة المعاطف بالمدرسة. انتحب طالباً النجدة قائلاً: «هلاّ يأتي أحد بحقّ الجحيم!».

لكنّ أحداً لم يأتِ لتحريره.

كان في العاشرة من العمر، وأصغر قزم في بوهاين. استدارت عيناه بنظرة خطرة في رأسه المستدير الصغير، في حين راح ينفض قدميه في الهواء وصرخ: «أرجوكم! فليساعدني أحد!».

لم يأتِ أحد.

ضربت أنفاسه جدران صدره بقوّة، فشعر بأنّه سيتقيّأ.

عاود الصراخ: «هيا، فليأتِ أحدكم!».

لم يأتِ أحد، وترجَّح من تعليقة المعاطف، وبلّله عرق الذعر.

ثمة طفل بدين من رايزس هو من علّقه هنا، وقال له: «هذا ما تتلقّاه من التحرّش بالفتيات أيّها الأصهب القذر!».

في الحقيقة، حاول وولفي التسلل تحت تنورة فتاة صغيرة من النوربين، لمجرّد إلقاء نظرة؛ لكنّ هذه عدالة قاسية.

فكرّر: «أرجوكم، فليأتِ أحد!».

تدلّى هناك، واهتزّ في الهواء وكاد يخنق نفسه، فصرخ: «هيا، فليساعدني أحد!».

لكنّ صراخه راح يضعف، وبالكاد سُمع صوته.

مدّ ذراعيه خلف رأسه؛ لكنّه لم يستطع بلوغ التعليقة. شدّت قبّة السترة على حنجرته، وحاول استعمال وزنه لتمزيقها؛ لكنّها صمدت. فازرقّ وولفي.

«ماذا تفعل معلّقاً هناك يا ستانرز؟».

كان ابن «بورك» في العاشرة فتى أخرق طويل القامة وأحمق أيضاً. بدا مشوّشاً هناك تحت وولفي في حجرة المعاطف. نظر إليه الفتى الصغير بعينين نصف مغمضتين لكي يراه بوضوح، فعرف أنه ذلك الفتى الطويل النحيل ابن الأزقّة، فاكر، هذا كان لقبه.

فقال له: «هيا، أنزلني من هنا!».

لم تتخطَّ ذراعا فاكر بورك الهزيلتان ثخن عيدان الأكل الصينيّة، لكنّهما قويّتان كما لو أنهما صُنِعتا بخيط فولاذي. فرفع وولفي بسهولة من أطراف أصابع قدميه عن تعليقة المعاطف، فترنّح القصير إلى إحدى زوايا حجرة المعاطف، وأفرغ أمعاءه على الأرض.

فقال فاكر بورك: «انتبه لحذائك».

مسح وولفي لعابه، واستدار نحو فاكر، ثم نظّف فمه بكمّه، وكان يشعر بالرهبة في حضور مخلّصه، فقال: «هل ستساعدني على الانتقام منه؟».

أحَبّ فاكر أسلوب الفتى الأصهب، حتى لو لم يعرف بالتحديد ما الذي دفعه إلى الابتسام. إنّه التهديد الشديد اللهجة، فقال: «أعرف أين يمكننا الحصول على المازوت، هل تفهمني يا صديقي الأصهب؟».

لاحقاً:

تهادى الفتى البدين من رايزس، في أزقّة ترايس، وتوجّه نحو الميدان ٩٨ عصرَ أحد أيام الشتاء القذرة. انقضّت طيور النورس المجنونة على كيس طعامه؛ لكنّه أبعدها بذراع بدينة قليلة الصبر.

مشى البدين كالبطّة. ها هو رأسي، وها هي مؤخّرتي قادمة. ومضغ قطعةً من حلوى اللوز بقوة، حتّى أن حركة فكّيه قد أحدثت هديراً رعَدَ في أذنيه.

لم يسمع وولفي ستانرز يقترب منه من جهة، ولا فاكر بورك من الجهة الأخرى.

أمسك فاكر بذراعَي الفتى ولواهما وشبكهما خلف ظهره، وسار به في زقاق مسدود، فسأل الفتى: «اللعنة، ما الأمر؟».

رافقَ سؤاله صراخ نوري خائف.

أجاب وولفي: «أصبحتَ كبيراً الآن، أليس كذلك؟».

أمسك فاكر به جيداً. وقام وولفي بركل الفتى على قصبتيّ ساقيه إلى أن تداعيتا تحته، فوقع البدين على ركبتيه مُوَلوِلاً. ركع فاكر خلفه وشبك ذراعَي الفتى بإحدى يديه، وبيده الحرّة، شدّ له شعره لإرجاع رأسه.

صرخ الفتى عالياً، وأظهر لوزته الحلقيّة الزهريّة الكبيرة لسماء بوهاين.

سكب وولفي المازوت من عبوة في الحَلْق المفتوح. فاختنق البدين وبصق، فصفعه وولفي؛ وضحك فاكر.

سكب وولفي المازوت على ثياب الفتى وشعره أيضاً بعناية شديدة. فهو يتمتّع بمسحة أناقة في سلوكه الشرير. وأخرج علبة الثقاب متباهياً، وأشار إلى فاكر بالتراجع بسرعة، فتراجع. انتزع وولفي عود ثقاب، أشعله ورماه.

عدا الفتى البدين المحترق متهادياً في أزقّة ترايس، وركض إلى رصيف النهر وقفز، ورأسه إلى الأسفل، في ماء النهر الأسود الهادر. تخبّط فَرُشَّ الماء وقرقر، وأحدث المنظر هيجاناً وصراخاً على حجارة رصيف الميناء. رمت بعض الأمّهات الآتيات من سوق ترايس كرنبهنّ وملفوفهنّ في الهواء، وأحدثنَ جلبةً كبيرةً، فأنت لا ترى كل يوم طفلاً بديناً مشتعلاً، وحتى في ميناء بوهاين. هرع بطل من شرطة رصيف الميناء ببطنه المترجّح، وأخرج شيئاً فشيئاً الفتى البدين من الماء بخطّاف رافعة.

ثم مدَّده على الرصيف، مُطفَأ، لكنه لا يزال يئزّ.

لم يكن المنظر جميلاً. أصبح وجه الفتى البدين كوجبة بوريتو من سموكتاون. وعانى الكثيرون سواه في المدينة على الأيدي نفسها بمرور السنين. وبعدد الذين ظلّوا يتنفّسون لإخبار تلك القصة، كان هناك مَن يسمّنون الديدان في المدافن المخيفة. هذا ما جرى في عمق ترايس منذ أن عمل وولفي وفاكر معاً.

أدركا ذاك اليوم أنّه مهما ارتفع نبض قلبيهما ليبلغ شفير الوحشية، فلن يتراجعا عنها، أبداً. ورأى وولفي أين يمكن أن ترسلهما هذه الموهبة في بوهاين.

لكنّنا الآن عشيّة «عداء»، وفي ساعات الليل المتأخّرة المشؤومة، مشى وولفي في باك ترايس وحده، وشعر بالخوف من معرفته القاتمة:

لم تحمل يوماً عصابة فانسي في بوهاين اسمين.

حاول تأديب أفكاره. كان جَيَشان أفكاره السوداء شرّيراً بقدر جيشان النهر. مشى في الميدان ٩٨، وشعر بسقوط نظرة غريبي الأطوار عليه، أولئك الذين احتشدوا تحت الأشجار، التي عرّاها الشتاء، بمعاطفهم الطويلة، مع أكياسهم المملوءة بالنبيذ البرتغاليّ، وعرف أنّ اسمه كان ينتشر وقوّته تتزايد. لكنّه أدرك أنّ خلفه قوة فاكر المهووسة أيضاً. عرف أنّ آخرين في العصابة لديهم طموح مثل طموحه. وعرف أنّ لا شرّ يعادل شرّه سوى شرّ فاكر، وجيني.

هبّت الرياح الشديدة، ودوّت أناشيد النوريين في البعيد، واحتشد أفراد فانسي في أنحاء سموكتاون. سينضمّ إلى العصابة بعد قليل.

شعر بوخز قارس في عموده الفقريّ. فكّر في أنّ ثمّة مَن يطارده؛ فألقى نظرةً حادةً خلفه، لكنّه لم يرَ أحداً، وقال في نفسه إنّ جوّ 'العداء' هو ما يوتّره.

قرّر أن يشرب بهدوء كأساً في حانة واحد من أزقّة ترايس؛ فلطالما كان يسترسل بالتأمُّل عشيّة عنف كبير.

دفع الباب ليجد الصمت مخيّماً. كان هناك مُسنّان، أو ثلاثة، قد جلسوا إلى الطاولات المنخفضة. جلس وولفي إلى البار، وطلب نصف قنينة من جعة «راسلر» القويّة. قالت له الساقية العجوز إنّ هذا سيقوّيه حتماً. هذا دواء لك يا فتى. والابتسامة التي رسمها وولفي عندما راقت له الجعة وضعت حداً لأي حديث. جلس مع كأسه وأفكاره، وكانت الليلة هادئة، بالمقدار الذي يمكنك أن تجده في ترايس، مع اقتراب 'العداء'. وكان قد غادر مَن استطاع من الناس. جلس وولفي هناك، وقد اجتاحته العاطفة والقلق في الضوء الشحيح الذي عمّ البار القديم الرطب.

ارتدى وولفي:

سترة كرومبي متقنة التفصيل لونها رمادي داكن، فوق بنطلون واسع من الأعلى ضيّق من الأسفل، صُنع من الصوف الأخضر، وقميص أبيض منشّى، مع قبّة مفتوحة لإبراز ربطة عنق نقشت بألوان المهرّجين. وانتعل حذاء فاخراً بنيّ اللون مستورداً من زغرب. إنهم ماهرون في صنع الأحذية برأي أهل فانسي، فإذا لم ينتعل الطويل حذاءً برتغالياً فسينتعل حذاءً كرواتياً.

ارتشف وولفي «الجعة» التي تفوح منها المرارة. بدا متجهّماً. لم يفارقه التجهّم يوماً، مذ كان في سنّ التاسعة، ومنذ الليلة التي رُكلت فيها والدته «كاندي» حتّى الموت في ترايس. كانت نشّالة خفيفة اليد وسكّيرةً متعجّلة، ولم تخَف من استعمال الخنجر. كانت تتجوّل في شارع دي فاليرا المتعرّج. وكان هو يقف على مقعد في الشارع مترقّباً الشرطة. ابتسم وهو يشرب الجعة، ويتذكّر «كاندي» داخل متجر هورغان الكبير تسرق أقلام الكحل وحناجير المَسْكرا كي تبيعها لعاهرات سموكتاون في الحانات الرخيصة بعد الظهر. كان ذلك مال الشرب. تذكّر تجوالهما كل ليلة في ترايس. وتذكّر كيف كانت تجرّه قربها منحنيةً ثملةً تدندن أغاني قديمةً، نغمات الزمن الضائع. ولا يزال يشعر أيضاً بخفقان قلبها السريع والطريقة التي داعبت بها عنقه. كانت تختفي لفترة في وقت لاحق من الليل. وذات ليلة لم تَعُد. وُجدت عند مرتفع الميدان ٩٨. أخذت نساء من ترايس وولفي إلى هناك. لم يبكِ بتاتاً لكنّه تمدّد قربها بضع دقائق حيث دُهِسَت، وشعر ببرودة الأرض ترتفع فيها. ثم جُرّ بعيداً ودُفِنَت «كاندي».

لام النوريين. أنهى كأس الراسلر، وطلب أخرى. شرب متجهّماً؛ وخمّر أفكاراً رديئةً.

وصل رجل مسنّ آخر من الزقاق، نفخ على يديه، ومسّ وولفي بلطف أثناء مروره بجانبه. أراد رؤية نفسه في المرآة. وجلس، من ثَمَّ، إلى البار. طلب كأس جايمسون بلا ثلج. كان عجوزاً طويل القامة، صوته كصوت ممثّل، كشيء ما آتٍ من مجمّع «كريسنت هول». ولاحظ وولفي يديه؛ كانتا ضخمتين، ممتلئتين بالندوب، قاسيتين.

استمرّ وولفي في مراقبة العجوز عبر المرآة فوق البار.

بدا نصف مجنون. تكلّم مع نفسه. ذقنه عريض، وهو بوسامة ممثّل عتيق، لكنّه أصبح معتوهاً. دار العجوز نصف دورة على كرسيّه المرتفع، وهمس: «هل ستقوم بحركة يا وولفي؟».

إنّه همس ممثّل، خافت وصاخب في الوقت عينه. لكنّ وولفي لم يولِه أيّ اهتمام. بقي جامداً.

فقال الرجل العجوز: «هل وجد الفتى فرصته؟».

أدار وولفي عيناً نحوه وحدّق إليه. ابتسم العجوز، وهزّ رأسه وقال: «ما من خبر عن تلك التصفية، أليس كذلك؟».

شعر وولفي آنذاك بقشعريرة.

أكمل العجوز: «سيّدتي، اسكبي كأساً أخرى لهذا الفتى. وجهه أصبح شاحباً».

نظر وولفي مباشرةً أمامه، وتلمّس الخنجر الذي يبلغ طوله أربع بوصات في حزام سرواله. لقد اختفى.

فقال غانت: «إنّه شاحب كسيّده». وأخرج الخنجر من جيبه، وزحلقه على البار وقال: «انتبه له أكثر».

نادراً ما كان فم وولفي ستانرز يجفّ، لكنّه بدا جافاً بالتأكيد.

فسأله غانت: «لا بدّ أنك تلقّيت الرسالة يا وولف؟».

تجرّع الموجودون في الحانة شرابهم، وأخلوا المكان بسرعة، وجلسَت الساقية العجوز أبعد ما يكون عند طرف المنضدة.

لم يردّ وولفي على غانت برودريك، بل اكتفى بالتحديق إليه.

فسأله غانت: «تحت الجسر يا وولفي؟».

هزّ غانت رأسه حزناً، وقال: «الرحمة على روح ذاك الرجل المسكين. يا لنهايته الفظيعة!».

حثّته غريزته على مغادرة الحانة، لكنّ نظرة غانت الداكنة فتنته.

فسأله غانت: «هل تضع خطةً، يا وولفي؟».

أشاح وولفي بنظره عنه، ونظر أمامه.

فأكمل غانت: «من الأفضل أن تكون في هذه المرحلة أيها الفتى، بالنظر إلى الطريقة التي ستتفتّت بها فانسي».

لم يُجِب وولفي.

فقال غانت: «تعال معي فقد نستطيع أن نتكلّم قليلاً».

توجّه غانت إلى طاولة منخفضة في مؤخر الحانة الخافتة النور، ووجد وولفي نفسه ينزلق عن الكرسي المرتفع، ويذهب بهدوء للانضمام إليه هناك.

اليوم الأقصر

حلّ الانقلاب الشمسيّ، ونشر نوره الشاحب على مستنقعات بيغ نوثين. استرق ابن عرس نصف مستيقظ النظر بخوف من وجاره في جدار من الحجارة المرصوفة بلا أسمنت. ووقفت أنثى أيّل هزيلة مسنّة متنبّهةً متيقّظةً على نتوء كلسي. مشهد شتائيّ قاسٍ شحيح النور. حلّقت مجموعة غربان باحثةً عن طعام، وانزلق ثلج منصهر على منحدر التل، في حين اشتعلت الشمس في البعيد، ورعى تيسٌ بكآبة على تل عالٍ. جرى نهر بوهاين كعادته مقتاتاً بجليد المستنقع الذي انهمر عليه، في حين زاد ارتفاع شمس اليوم الأقصر. لم يكن يُسمع سوى هدير الماء حين وقف أُول بوي مانيون في نور الانقلاب الأول، على ضفة مرتفعة من النهر، وبوّل فيه متفكراً.

انتهى، وأقفل زمام بنطلونه، وبقي واقفاً مصغياً لبعض الوقت.

من آراء أُول بوي الباطنية أنّ سهل المستنقعات قد أصبح على مرّ السنين... غير مرصوص بشكل غريب، ويستمدّ الآن معظم طاقته من الخثّ. وقد أزيلت المستنقعات وبعثرت في كل مكان. وأزيلت غالبية طبقته العليا. ومن يعلم أيّ المسارات التي تؤدّي إلى عالمه

السفليّ قد أُفسِدت؟ جرى العبث بطبيعة المستنقع السريّة، تندّب جسده، تُركَت جروحه مفتوحةً، وهل يكون هذا أيضاً سبباً لوصمة بوهاين؟ لن يفاجئ ذلك أُول بوي مانيون على الإطلاق.

عقد رباط بنطلونه، وترك الرياح الشديدة تعصف به من الخلف، وتوجّه نحو جسر الأميال الثمانية.

شعر أُول بوي بوخز الحماسة في جسمه هذا الصباح. وعرف أنّ سببه احتمال سفك الدم؛ فشعر بالخجل من هذا.

سوّدت وصمة بوهاين كل واحد منّا؛ حتى الأشخاص الكبار في السن الجديرين بالاحترام كأُول بوي.

أرسل فتى إلى المدينة ليراقب المستجدّات في الليل. فـ'العداء' أشبه بجمرة موضوعة تحت كومة قشّ. لا أحد يعرف متى ستشتعل الشرارة، لكنّها ستشتعل حتماً، وأُول بوي متأكد، كل التأكيد أن اندلاع الشرارة لن يكون هنا. منذ وقت طويل، أقسم أُول بوي أن يحافظ على حياته. لا يبقى شخص مسنّ على قيد الحياة في طرف شبه الجزيرة الغربية هذه عن طريق الخطأ، بل عن طريق التصميم. فالحياة المديدة قرار يجب اتخاذه.

كاد يحين الوقت المرتقب لوصول الفتى إلى الحانة عند الجسر؛ فسار أُول بوي نحوها، واستمر يراقب زاوية الشمس لمعرفة الوقت.

انتعل أُول بوي جزمة عالية ذات قطع ذهبية تطقطق على الأرض، وارتدى بنطلوناً ضيّقاً عند الوركين من طراز بنطلونات ركوب الخيل، لونه بنفسجيّ باهت. وعلّق حول رقبته عدداً من السلاسل الذهبية،

واحتمى من أسوأ هجمات الرياح العاصفة بمعطف فيزون سميك، واعتمر قبعةً صغيرة لا حافة لها من جلد الماعز، وضعها على قمّة رأسه على الطريقة الغجرية.

الحقيقة هي أن هذا الرجل هو المسن الأكثر أناقةً بين جميع مَن قد تقابلهم من سكّان بوهاين كلّهم.

ذهب إلى جسر الأميال الثمانية عبر التلال. اعتمد دائماً تكتيك البقاء على مسار مرتفع، والسير بصمت كالشبح قدر المستطاع. فتلك هي الطريقة للبقاء على قيد الحياة في نوثين. ارتسم ظلّه طويلاً نحيلاً تحت شمس الشتاء البيضاء، وهو يتسلّق سفوح التلال. لكنّه لم يكن منيعاً كلّياً ضدّ السحر الأسود الذي سار فيه.

ألوان نوثين في أوائل كانون الأول:

لون القصب الذابل الذهبيّ الناعم: باهت كذهب خاتم زفاف قديم.

بريق معدن الميكا المائل إلى الزرقة في الروابي الصخرية: تحديداً كبريق عينَي النورس.

ودرجات الأرجواني المميّزة في الوزّال النائم.

تابع أُول بوي سيره، وهبط نور الشتاء على بيغ نوثين مائلاً على مضض. كان سهل المستنقعات على مسافة بعيدة جداً من الشمس، ويحمل كل رائحة البُعد، أشبه برائحة قبر عفنة.

راح مانيون يجترّ أفكاره وهو يمشي. أمل أن يشتعل 'العداء'

بسرعة، وينطفئ بالسرعة عينها، وأن يكون له التأثير المجدّد لنار الوزّال. فيتمكّن بعد ذلك من العودة، ليطوف خلسةً وسط المدينة، ويرى كيف استتبّت الأمور.

قطع الامتدادات المرتفعة على حدود أرض الغجر، وتساءل عن الرسائل التي قرأها أولئك الناس الغامضون مؤخراً في انتظام السحاب وانتشار النجوم.

عرف الغجر وقت تخمّر المشكلات.

بدأ يهبط نحو جسر الأميال الثمانية. وسار لفترة على ضفة النهر العليا، وسَحَره انعدام الرحمة فيه. وصل أخيراً إلى الجسر، وعبر حجارته الكبيرة، وهدر نهر بوهاين من أجل المدينة. لوّح إلى السكارى المبعثرين تحت قناطر الجسر: أصحاب العيون الحمراء الذين ألف رؤيتهم هنا، يشربون النبيذ البنّي، وقد كانوا مقرّبين من أُول بوي أيضاً. ولكن مَن الذي لم يكن مقرّباً منه؟

هبط الدرجات الحجرية الثلاث إلى الحانة، ودفع الباب.

طالعه دخان الخثّ (النباتات المتفحّمة)، زوايا مخبّأة، بخار المِزر (وهو نوع من البيرة الساخنة).

توجّه نحو البار، وأومأ برأسه إلى الساقية. كانت أرملةً بدينة الفخذين جريئة العينين. رمقته بنظرة لعوب بالتأكيد.

التقط أُول بوي قبلةً، وكأنّ الساقية رمته بها، وداعب بها خدّه بلطف، وطَرَفَ بعينه وقال: «اسكبي لي مشروباً يا عزيزتي، واسكبيه ببطء كي أنظر إليك بإمعان».

ضحكت له بصوت أجشّ، وقالت: «لم تفقد حسّك قطّ يا «بوي مانيون»».

قضى أُول بوي حياته من دون أن يمتنع يوماً عن مغازلة العاملات. حتى وإن كُنّ عاديّات المظهر. لقد اعتبر المغازلة كياسةً ضروريةً. إذا لم نمتلك تهذيباً في الحياة، فنحن لا نمتلك شيئاً يُذكر. أخذ الكأس عندما قُدّمت إليه، وضرب شلناً على المنضدة. مدّت يدها نحو القطعة المعدنية. ثمة رجفة شهوة لا تزال في المرأة العزيزة، مع أنّها تقترب من الأربعين. لكنّه ضرب يده فوق القطعة المعدنية في اللحظة الأخيرة، فوقعَت يدها على يده. ترك أُول بوي هذه اللحظة تدوم، وطَرَفَ لها من جديد قائلاً: «ألَم يظهر بعد أي أثر لذلك الفتى المخبر يا سيّدتي؟».

ظهر الخوف على وجه الساقية، وكتّفت ذراعيها على صدرها، ثم رفعت إحدى يديها، وأمسكت رقبتها بقوّة. كانت هذه إشارة نساء شبه الجزيرة للدلالة على الأوقات المضطربة.

ثم قالت: «ألسنا كلّنا في انتظار الفتى عينه يا سيد مانيون؟».

أخذ أُول بوي كأس الجعة، وطَرَفَ مجدداً، وتسلّل في أرجاء الحانة. تستّر محتسو المشروب المعتادون في بيغ نوثين في الزوايا الممتلئة بالدخان. شهدَت ساعة الصباح هذه حشداً كبيراً. فعرف الجميع أنّ أخبار وضع بوهاين وشيكة. جلس أُول بوي في زاوية المدفأة، وارتشف مزر فينكس المرّ، وانتظر.

ارتشف.

وانتظر.

أصغى.

وارتشف.

وقبل حلول الظهر، دُفع الباب، وملأ دفق رياح شديدة الغرفة بسرعة، ما جعل الدخان يتصاعد من المدفأة. ومع إغلاق الباب، هدأ دخان الخثّ مجدداً، واستدار الجميع ليروا إن كان الفتى المخبر هو الوافد، لكنّه لم يكن كذلك. كان بيغ دوم غليسون هو الذي وصل.

وقف الصحافيّ البدين وسط القاعة، وهو يرتدي معطفاً طويلاً زمرديّ اللون، وينتعل حذاءً خاصّاً به يعلو إلى ركبتيه. أغمض عينيه وهزّ فكّيه الضخمين، مستغيثاً وأطلق أنيناً كالفيل: «آه!».

ترنّح.. ترنّح! - وتوجّه نحو كرسيّ أُول بوي وانهار.. انهار! على كرسيٍّ إلى جانبه، وامتدّت أصابعه الضعيفة القصيرة والعريضة نحو ذراع أُول بوي، وارتعش قائلاً: «آه...».

فقال أُول بوي: «أعلم يا دوم، ذبحَتُك الصدريّة».

جلبت الساقية كأس براندي لدوم. بكى... بكى! شاكراً لها. تمسّك بيدها، ووضعها على جبينه.

فقالت: «نعم، أعلم سيّد غليسون، أعلم».

وهي تبتعد رافعةً عينيها نحو سماوات سهل المستنقعات. نظر أُول بوي نظرة العالِم إلى بيغ دوم، وابتسم وقال: «إذاً كنت في الداخل تشاهد الاضطرابات؟».

أجاب بيغ دوم: «بالطبع لا، لن تطأ قدمي غبار تلك المدينة المريعة!».

فسأل أُول بوي: «إذاً رحلتَ بسلامة؟».

ردّ دوم: «نعم سيّد مانيون». وربّت ساقيه البدينتين غامزاً، وتابع: «هربتُ في وقت باكرٍ أمس. أشكرك كثيراً على إعلامي».

رشف أُول بوي مشروبه، وسأل: «إذا لم تبقَ في الداخل لمشاهدة 'العداء'، فما سبب حالة كربك إذن؟ لا تقُل لي يا دوم إنّك كنت مختبئاً في بيت من بيوت تين لايت؟».

تين لايت قرية في تلال نوثين، تكتظّ فيها بيوت الدعارة الريفيّة.

أغمض دوم عينيه، وقد استولى عليه الخزي، وهزّ رأسه متجهّماً.

فتابع أُول بوي: «دعني أحزر يا دوم... دخّنتَ غليون حشيشة... وابتلعت البراندي الفرنسي... وضاجعت قاصرات ممتلئات؟».

فصرخ بيغ دوم: «أنا ضعيف، أنا رجل ضعيف!».

فُتح الباب من جديد. ومن جديد نفخَت الرياح الشديدة الدخان من نيران الخثّ، ليسكن من جديد، عندما أُغلق الباب بركلة. وهذه المرة، بالفعل، ظهر فتى شاب قصير القامة: إنّه الفتى المخبر.

سقط الفتى من فوره على ظهره وسط الأرضيّة المبلّطة بالمربّعات الحجرية.

حدّق بشدّة وباضطراب كبير إلى السقف، وفي عينيه رعب.

أصابت الفتى نوبة ارتجاف.

ذهب أُول بوي إليه وركع، ووضع رأس الفتى بين يديه وصرخ للساقية: «كأس من مشروب بيست سيّدتي، وبسرعة!».

جلبت من تحت المنضدة زجاجةً من خمرة غير مرخّصة هي البيست، التي خُمّرت في الأراضي المرتفعة من نَجْد نوثين على أيدي شقيقين متخلّفَين عقلياً يتمتّعان بموهبة التخمير. تحلّق كل مَن في الحانة حول الفتى. أعطت الساقية أُول بوي الزجاجة، ففتحها، وملأ غطاءها بالسائل المؤذي، ووضعه على شفتَي الفتى المرتجفتين. نقّط السائل بحذر. لهث الفتى وبصق وتقيّأ، ثم ابتلع القليل من المشروب، وتحسّن لون سَحنته قليلاً. فتح فمه لقطرة أو اثنتين أخريين. فأعطاه أُول بوي القليل. من الواضح أنّ الفتى المخبر قد شهد أحداثاً داكنةً.

باحترافية كبيرة، نُقرُّ له بها، أخرج بيغ دوم دفتراً بملفّ من جيب معطفه الداخليّ، ولعق طرف قلمه.

قال أُول بوي: «اهدأ الآن وحاول أن تخبرنا، اتفقنا؟».

أعطى مشروب البيست مفعوله، وزوّد الفتى شيئاً فشيئاً ببعض الاحمرار والقوة. حاول التفوّه بكلمة؛ فاقترب الجميع أكثر. قال: «بو...».

كان صمت الغرفة مميتاً، في حين أن الفتى قد كافح لنطق الكلمة. أُسقطت بضع قطرات أخرى من البيست في فمه. أشعلت نارُ المشروب كلامَه، فقال: «بو... هاين!».

فقال أُول بوي بنبرة جافّة: «ممتاز، لكن ماذا عنها يا فتى؟».

فقال الفتى: «بوهاين ذهبَت... إلى... إلى... السماء!».

أمسك أُول بوي بيد الفتى، وهزّها بلطف، وقال: «أخبرنا قدر استطاعتك يا بنيّ».

زادت قوة الفتى الآن بضع درجات. فقد اقتات جيداً بمشروب البيست وبالاهتمام أيضاً. فقال: «سدّت الشرطة كل الطرقات».

فعمّ صفير خافت الحانة المدخّنة.

زفر أُول بوي: «هاي بورين؟».

فقال الفتى: «طوّقوها سيّدي».

«كيف خرجتَ يا بنيّ؟».

«عبرتُ المستنقع».

ارتجف الحاضرون لفكرة عبور الفتى المستنقع في وسط الشتاء. فذلك مُجهِدٌ لرجل بالغ قويّ البنية. ومن الغريب أنّ المستنقع لم يلتهم الفتى الصغير. أضاء وجه بيغ دوم، وهو يكتب ملاحظات لمقال ملوَّن لفينديكايتور.

همس الصحافيّ: «كيف الأوضاع هناك الآن يا بني؟».

أغمض المخبر عينيه، وروى القصة ببطء: «تنقّلت النيران طوال الليل في رايزس، ككلاب تتوق إلى لعق عظمٍ يا سيّدي».

فقال أُول بوي: «بالطبع، نعرف هذا. وقد شوهدت النيران حتى من طريق المزرعة».

فقال الفتى: «عند بزوغ الفجر، مشى المصفّرون النوريون، ولحقت بهم المزامير والطبول...».

أعجبت القصّة بيغ دي فصاح: «أوواه!».

فتابع الفتى: «ثم نزل المنشدون النوريون يا سيّدي، بأعداد لم نسمع بها من قبل».

فقال دوم: «تابع أيّها المخبر. نريد المزيد».

«ثم رأيتُ بعينيّ هاتين، رأيت...».

«قُلها يا فتى!».

«رأيتُ... ثماني عائلات تنزل علينا سيّدي».

انهارت الحانة في هذيان ونحيب ودموع. وسُكارى بيغ نوثين، كما في كل أوقات المِحَن، لجأوا بالفور إلى الدِين قائلين: «يا والدة المجير الحبيب!».

«هلاّ تأتي إلينا يا مجيرنا كي تحمينا!».

«ارحمنا أيّها المجير!».

«ارأف بنا أيّها المجير!».

«لا تتخلَّ عنّا يا مجيرنا، لا تتخلَّ عنّا الآن!».

«فليكُن حبّ المجير الحبيب معنا!».

t.me/ktabrwaya مكتبة

«فليكُن مجيرنا الحبيب معنا دائماً!».

فصرخ أُول بوي: «توقّفوا باللّه عليكم! يا لكم من قطيع غنم لعين!».

انحنى مقترباً من المخبر، وقال: «من فضلك، كلّمني الآن يا بُنَيّ، هل أنت متأكّد من أنّ العصابة مؤلّفة من ثماني عائلات؟ هل عددتَ ثمانياً؟».

فقال: «سيّدي، جلب آيز كيوساك عائلة مكغرورتي، وعائلة ليناين، وعائلة ديلون».

فقال أُول بوي: «هذا ليس جديداً، لطالما جلب هؤلاء اللعينين».

فتابع الفتى: «ولكن معه آل هالبين يا سيّدي، وآل فيتزهنري، وآل لانيهان أيضاً...».

فقاطعه الحاضرون قائلين: «لا تتركنا الآن يا مجيرنا!».

«اهبط علينا يا مجيرنا! انزل يا مجيرنا!».

فصرخ أُول بوي: «من فضلكم! دعوا المجير وشأنه! فهو لن يساعدكم الآن!».

ركّز المخبر عينَيه في أُول بوي، وثبّتهما فيه، فعرف أُول بوي أنّ الفتى يقول الحقيقة.

فأكمل الفتى: «ومعه عائلة مكغراث سيّدي، هل تفهم؟».

فصفر بيغ دوم صفيراً خافتاً، قائلاً: «هذه هي العائلة الثامنة». وكتب الرقم ٨، وأكّده بعلامة تدقيق.

لم يَرُق هذا الخبر لأول مانيون على الإطلاق. وهيمن عدم التصديق والخشية والرعب على مَن حوله في الحانة. هذه معلومة تساوي الكثير: حلّت أيام سوداء كثيرة على بوهاين، شبه الجزيرة البائسة، مذ رأينا أمثال عصابةً من ثماني عائلات تنزل من نورث سايد رايزس.

قال أُول بوي حاسباً: «ثماني عائلات... قد يعني هذا حتّى... لا أعلم... كم العدد يا دوم... مئة وخمسون معتوهاً جامحاً؟».

فقال بيغ دي: «على الأقل».

فقال المخبر: «ما لا يقلّ عن مئة وخمسين سيّدي، إذا اعتمدتَ على ما رأتهُ عيناي».

فقالت الساقية: «هذا عدد كافٍ للاستيلاء على ترايس».

تنهّد بيغ دوم، قائلاً: «أودّ التفكير في مقال خاصّ من اثنتين وثلاثين صفحةً».

فقال أُول بوي: «اسكتْ! ودع الفتى يخبر القصة».

فقال الفتى: «استولوا على ترايس بالفعل يا سيّدي».

أدّى هذا القول إلى حالة من الذعر في الحانة، والمزيد من النحيب. لكنّ أُول بوي رفع يداً حازمةً لإحلال الصمت، وسأل الفتى: «ماذا تعني يا بنيّ؟».

أجاب: «هجر هارتنت ترايس... تركها لهم!».

أحدث هذا القول صدمةً، وهسهسات سخط، لكنّ أُول بوي ابتسم وقال: «أين فانسي؟».

فردّ الفتى: «لم أرَ ذلك بنفسي يا سيّدي، ولكن يقال إنّ فانسي احتشدت، وتحضّرت من الجهة المقابلة لجسر مشاة سموكتاون».

فسأل أُول بوي: «إذاً أقفلوا ترايس كلّها، هل أنا محقّ؟».

أجاب الفتى: «أقفلوا كل شقق ترايس بوجه هجوم النوريين، من قبل بزوغ الفجر. لم ترسل فانسي أيّ رجل لاستقبالهم يا سيّدي».

قال أُول بوي: «فهمتُ. يبدو أنّ الطويل يريد أن تقضي عصابة النوريين على نفسها».

فقال بيغ دي: «فهمتَ بسرعة سيّد مانيون، إنّه يعطيهم إحساساً خاطئاً بالأمان!».

فقال أُول بوي: «على الأقلّ، هذا ما نأمله يا دوم. هل نظرتَ عن كثب إلى العائلات يا فتى؟ هل تبدو كعصابة تنوي الأذيّة؟».

فقال الفتى: «معهم عصيّ خشبيّة وفؤوس ومطارق وخناجر تلمع وآجر يرمونه علينا. يقتلون كلّ ما يتحرّك في ترايس، لكنّ شيئاً لا يتحرّك يا سيّدي، ما عدا بضعة كلاب وسكارى».

فقالت الساقية: «أليس من المريع أن يجري 'عداء' كهذا في بوهاين، ولا تفصلنا سوى ثلاثة أيام فقط عن ميلاد مجيرنا الحبيب؟ ما خطبنا؟».

فقال بيغ دوم متأمّلاً: «يقول البعض يا سيّدتي إنّ ذلك ينبع من النهر...».

فنبَح أُول بوي قائلاً: «كف عن ذلك! أكمل يا فتى».

فأكمل هذا: «عصابة كيوساك تخرّب ترايس. تدمّرها الآن، وتضرم نيراناً في الساحات».

فسأل أُول بوي: «هل هم يتصرّفون كالمسعورين؟».

ردّ الفتى: «وبشدّة يا سيّدي. يشربون نبيذ موسكات من الأكياس الجلدية، ويعبّون بقوّة من غلايين الحشيشة. حتّى أنهم جلبوا بعض عاهراتهم، وراحوا يمارسون الجنس معهنّ على مرأى الجميع في الأزقّة».

فصرخ دوم غليسون: «ليس لديهم أي رُقيّ!».

أضاف أُول بوي: «لا يستطيع النوريون، حتى استئجاره».

فتنهّدت الساقية مستمتعةً بكلّ لحظة، قائلةً: «انقسمَت بوهاين إلى نصفين».

فسأل أُول بوي: «هل تظنّ أن هارتنت مستعدّ؟».

توقّف الفتى ليرتشف جرعةً من البيست، فقد أدمن الصغيرُ اللعينُ المشروبَ، ثم تابع: «يقال إنّ الفتى ستانرز يقود عصابة فانسي».

فقال أُول بوي: «آه».

وأكمل الفتى: «ما من أثر للطويل بعد. يقال إنّ الأصهب حشد

ثمانين شخصاً من فانسي، حملوا كلّهم الأعلام. وهُم ينتظرون إشارةً».

فسأل أُول بوي: «أيحملون الأعلام؟».

فتابع الفتى: «باللونين البنفسجي والأسود يا سيّدي».

أردف أُول بوي: «بالفعل». وكما شعر بكامل رعب ذلك اليوم، شعر أيضاً بفخر عظيم.

فسأل بيغ دوم: «وما هو تكتيك الشرطة؟».

ردَّ الفتى: «سدَّت كل الطرق سيّدي. كل شيء من جهة ترايس في داف مغلق».

فقال بيغ دوم: «إنّهم يحاولون تطويق الأمر. حظاً موفقاً لهم».

فسألت الساقية التي بدأ الخوف يخامرها: «هل يمكن أن يمتدّ ذلك إلى نوثين؟».

فكّر أُول بوي، وقال: «يصعب إعطاء جواب يا سيّدتي. نعرف حال بيغ نوثين. قد ينقلب التعاطف هنا بهبّة ريح. لدى الكثير منّا أصدقاء في ترايس. لكن لدى الكثير منّا أصدقاء في رايزس أيضاً. هل تفهمونني؟ لن يمتدّ ذلك إلى منطقة المستنقع حتى تقاسي إحدى العصابتين بشدّة».

كانت حالة المخبر الآن قد تحسّنت كثيراً. أجلسوه على كرسيّ منخفض قرب النار ودلّلوه. أعطوه حليباً ساخناً، والمزيد من كؤوس البيست. مال بيغ دوم إليه، وانتزع منه المزيد من التفاصيل الخلفية

بالملاطفة. شعر الفتى بالكثير من الفخر لمشاهدته اندلاع 'عداء' بوهاين. وفجأةً، أصبح جوّ الحانة في ذاك اليوم الشتائيّ احتفالياً وحماسياً.

ترك أُول بوي الحشد يثرثر، ويزقزق، وجلس على كرسيّ مرتفع هادئ في إحدى الزوايا. تساءل إن كان من الحكمة أن يسمح الطويل «لستانرز» بتولّي دور بهذه الأهمية في قيادة عصابة فانسي مجتمعةً.

انضمّ إليه بيغ دوم بعد أن قرأ ملاحظاته، فقال له أُول بوي: «يبدو أنّك اخترت يوماً مناسباً للذهاب إلى مكتبك في نوثين يا دي».

فقال دوم: «أشكرك مجدداً على إعلامك إياي سيد مانيون».

جلسا وسط الأضواء المرتجفة ودخان الخثّ، وأطالا التفكير في الوضع. راحا يقلّبانه بصمت.

ثمّ: سأل أُول بوي: «كيف تقرأ تكتيك هارتنت يا دوم؟».

رفّت رموش الصحافيّ البدين بسرعة، وقال: «تعني السماح للفتى وولفي بالبروز؟ يبدو لي أنّه يلمّح إلى أنّه يريد المَضيّ قُدماً سيد مانيون».

فسأل هذا: «إلى مَن يلمّح؟».

«إلى زوجته؟».

فقال أُول: «قد تكونُ محقّاً يا دوم».

«ربما أرادته أن يقضي المزيد من الوقت فوق في الفناء، هل تفهم؟ ويساعدها على العمل في حديقة الورد».

وأكمل أُول بوي: «أو ربما توجّه إلى مجال عمل أكثر احتراماً. فلا ريب في أنّ الموازنة بين الحياة العائلية وإدارة فانسي أمر صعب. أنا أتعاطف معه».

فردّ دوم: «لا يريد أن يترك أيّ...».

«بالفعل، لكن أليس من الغريب أنّ قدوم غانت قد يجلب الحظ لوولفي؟».

«أستغرب ما قد يُحدث تغييراً في فانسي يا سيد مانيون».

وأضاف أُول بوي: «وتغييراً للمدينة أيضاً».

غرق الثنائيّ في الأفكار، وراحا يتأمّلان في مناورات الحب الساكنة والحاسمة، وتشكّل مدينة بأكملها بحسب هذه المناورات، وتشكّل إقطاعية وعالَم. طلب أُول بوي كأس ويسكي أخرى و«دوم» كأس براندي فرنسي.

إذاً هل سيتولّى الفتى وولفي القيادة؟

آخر المطاف، يُصنَع الممثّلون عن بوهاين في أوقات 'عدائها'.

النور الذي لا ينطفئ أبداً

هاكم ما حدث:

غانت برودريك الذي لم يغمض له جفن لثلاثة أسابيع متتالية، طاف خلسةً شوارع نيو تاون المهجورة، في أعتى طقس في شهر كانون الأول. وتوجّه، يحدوه الأمل، نحو جُروف بوفيستا.

وبينما كان يصعد من ترايس، سمع من البعيد صراخ الأعداء النوريين، وتهكّمهم.

في هذا الوقت، بقيَت عصابة فانسي بلا حراك في سموكتاون، تنتظر اللحظة الحاسمة وأمر الأمهق.

لاحظ غانت فجوةً بكل تأكيد.

كان يعيش حالة الكآبةِ التي تضرب في منتصف الشتاء. كل ليلة أرق في سرير منزله المتنقّل بدَت كدهر. وكان يشعر كل صباح كما لو أنّه خاض حرباً. لقد سئم ذاك المنزل المتنقّل. لم يُفلِت من وصمة بوهاين رغم كل السنوات التي غاب فيها. عصفت أفكار عنيفة في رأسه المُتعب القسمات. لقد قام بجهد جبّار في الأمس حتى لا

يخنق الأصهب المزعج على الفور؛ فيوفّر عليه انتظار مصيره المحتّم. ولكن كان لدى غانت عمل يقوم به. لقد جرى الاتفاق على القيام بعمل ما، وعلى دفع ثمن معيّن مقابل عودته.

لم يستطع أن يهدأ. كان مستوى شهوته الثائرة لا يوصف. وقد تخطّى حنينُه الحدّ المحتمل. تطايرت أفكاره المجنونة في كلّ اتجاه تحملها رياح السماء الأربع. كان فريسة صراعٍ داخلي محتدم بين وجوهه المتعدّدة المختلفة، صراع يرافقه بعدد تكّات عقارب الساعة. تطبّل بطنه، وتورّمت عيناه، وأصبح صوته أجشّ لشدّة انفعاله. وها هو على الرغم من كل شيء، يقدّم نفسه إلى الحبّ.

غريب.

صعد جروف بوفيستا. وفي النهاية وصل إلى بوهاين الأكثر لطفاً. المشهد الصارم، للأشجار المنتصبة هنا على طول المصطبات الكبيرة، بأغصانها المتشابكة التي جرّدها الشتاء وشوّشها المطر، جميل بما يفوق الوصف، فترقرقت برفق دمعة على خدّ غانت. قفزت الأبراج والمداخن الطويلة لتلامس سماء الشتاء القاتمة؛ وعرف بالتأكيد إلى أين يتوجّه، فهذا ليس صعوده الأول إلى الجُرف في هذا الفصل.

لقد راقبها في الفيء وتأمّل ظلّها؛ راقبها طوال الشتاء، لكن من بعيد.

رطّب بطرف لسانه إبهاماً بعرض علبة سجائر، وملّس إلى الوراء خصلة شعره العنيدة التي تسقط دائماً على جبينه، ثم فكّر في أنّه قد

ينجح في تذكيرها به، وأنّ عليه ترك خصلته كما هي متهاوية على جبينه بشكل صبيانيّ. راح فجأة يضحك. كاد يختنق للمهزلة الفظّة، ومنعطفات المراهقة التي يسلكها ذهنه. لقد شعر بالشباب يعود ثانية. كان غانت في الخمسين، ولكن ها هو عالق في فخّ غراميّ مجنون.

قضى ليالي الشتاء، وهو يحضّر الكلمات الأولى التي سيقولها لها. بسطها ووزنها. قدّمها إلى قمر بيغ نوثين وإلى التيوس الهائمة. حاول التنبّؤ بردّ فعلها على هذه الكلمات. حاول تصوّر الكلمات، وهي تدخل. لليالٍ طوال لا تنتهي حاول فهم معنى صمتها ورفضها الردّ على رسالته. أشار ذلك إلى وجود خوف في داخلها. بلا ريب، خوف ممّا قد تعنيه عودته. هذا الخوف كان مصدر أمل «لغانت». يا لصعوبة المسارات التي يسلكها الحبّ الطويل القديم! إنها كالمنعطفات اللولبية التي ترسمها قطرة مطر تتدحرج على نافذة.

بلغ مصطبتهما. بطنه منتفخ لشدة الرّعب، وتوتّر أعصابه أرهقه. قد ينتهي كل شيء هنا والآن. ولكن كما مع الموت، يشيح المرء بوجهه عندما يقترب الظلام. ها هو واقف ببابهما، يقرع، وفي تلك اللحظة ضاعت كل الكلمات التي حضّرها، نسِيَها، تلاشت كلّها، لتبقى له كلمة واحدة. فتحَت الباب حالما قرعه؛ فنطق بتلك الكلمة:

ماكو.

لوغان وفاكر يلتقيان غجر الرمال

ساء اليوم الأقصر، والوقت يتقدّم. ومع حلول الظلام، أصبح أقذر ما يكون في الخلق. هناك، في هوّة كانون الأول القاتمة، هطل المطر مائلاً، وجاءت هجماته الباردة كضرب السياط. سيطرت الرياح الشديدة في أنحاء المكان، عدائيةً كأم ساقطة مشوّهة الوجه. انبعث ضباب جليديّ من المحيط يجمّد الألسنة في الأفواه. سار لوغان هارتنت وفاكر بورك وسط الرياح الشديدة، ولكمات العاصفة، وكانا غافلَيْن عنها، لأنّهما كليهما من أبناء بوهاين الأصليين.

خرجا من طرف سموكتاون الخلفيّ، وبلغا الطريق التي تقود إلى سلسلة الكثبان. الطريق قديمة. في وقت من الأوقات، ولم يكن اليوم ولا أمس، كان الشبان ينزلون عليها لتنشّق هواء البحر، وتطيير الطائرات الورقيّة، ومغازلة حبيباتهم. لكنّ أيام الطائرات الورقيّة ولّت في بوهاين. التفت فاكر إلى لوغان، وقال: «لمَ بحقّ الجحيم سنزور غجر الرمال اللعناء، يا أيتش؟».

«ما نقوم به بحقّ الجحيم يا فاكر هو التفكير بعقلانية. مفهوم؟».

«لكن سيد أيتش، غجر الرمال؟ هل تريد الصراحة؟ إنهم أخسّ من الخِسّة».

ترك لوغان الفتى يهزّ كتفيه كآبةً. أخطأ اليوم في حساباته، ولم يكن بمزاج يسمح له بمناقشة أخلاقيات غجر الرمال مع «بورك» الأخرق، ثم قال: «أعرف أنّ معاييرك رفيعة يا فاكر، لذا سأفسّر التكتيك مجدداً. نحن نتعامل مع ثماني عائلات نزلت من نورث سايد رايزس، قلتُ ثمانياً! لم نرَ هذا العدد الكبير من المشاغبين ينزلون من مرتفع الميدان ٩٨ منذ الزمن الضائع. لكن، ومع عددهم الكبير، لا يزال العيب القديم فيهم. أصغِ إليهم هناك...».

هزّ إبهاماً فوق كتفه، وبالرغم من عويل الرياح، سُمع الصوت الصاخب للمشاغبين النوريين في باك ترايس.

وتابع لوغان: «هؤلاء السادة لا يتمتّعون... بضبط النفس يا فاكر. يظنّون أنّنا قد هربنا، وتركنا المدينة لهم. يمارسون الجنس في الأزقّة. يفرطون في تناول الخمرة والحشيشة كما لو أنّهما اختُرعتا للتوّ. بعد ساعة أو اثنتين على هذا المنوال، سيُنهَكون بالكامل. ومادامت أعدادنا توازي أعدادهم، فستكون العملية عملية تنظيف بسيطة».

فردّ فاكر: «ولكن سيّد أيتش... أنستعين بغجر الرمال للدعم؟ أتريد ولاء غجر الرمال لفانسي باك ترايس؟».

توقّف لوغان فجأةً عن المشي، وانتبه فاكر لهذا بعد لحظة.

على تل مرتفع، في ظلام الغسق، ظهر صفّ من غجر الرمال من دون أي ضجة.

هل تفهمون؟

غجر الرمال صامتون للغاية هناك في النور المتكثّف.

في شبه جزيرة بوهاين، كان ثمّة مَن يقول إنّ غجريّ الرمال هو أظرف شيطان على الإطلاق. ويقال بالمقابل إنّ غجر الرمال قد عاشوا في التلال المخفيّة. ويقول آخرون إنّ غجر الرمال من شعب الغجر، لكنّهم تحديداً من طرف شبه الجزيرة هذا، وهو قطعة أرض فضّية صغيرة خارج سموكتاون، حيث يصل قصب الرمال سلسلة تلال شامخة بعضها ببعض، إنها سلاسل كبيرة ضعيفة من قصب الرمال بكثافة حبال المراسي في البحر. وتزعم الأسطورة أنّ في تلال الرمل هواء يجلب النحس. لكنّ غجر الرمال هم من عزّزوا الأسطورة. ربما أرادوا الاحتفاظ بالمنطقة لأنفسهم.

وقف اثنا عشر شخصاً منهم على التل المرتفع، ومع ضفائرهم وريشهم وشعائرهم، بدوا كطيور غريبة بالفعل.

فقال لوغان: «دعني أنا أتكلّم يا فاكر».

وعند غسق اليوم الأقصر، تسلّق لوغان هارتنت وفاكر بورك سفح تل الرمل. ووقف الغجر في صفّ يراقبون بصمت اقتراب الثنائي، وغنّت حفنة يتيمة من أشجار الصنوبر في الضباب المظلم، في حين أمالت الرياحُ الشديدة قممَ التلال.

يرتدي الغجر ستراً طويلة بلا أكمام طوال السنة، ويجدلون شعورهم في ضفائر ثخينة، ويزيّنون رؤوسهم بريش طير العقعق، ويغطّون صدورهم بشعائر من رماد لا يستطيع أحد غيرهم قراءتها.

كانوا شهداء الحشيشة؛ يشبه صمتهم وحذرهم صمت وحذر أرانب الرمال البرّية، جارتهم في التلال، وفريستهم، أحياناً، في الأوقات الصعبة.

نادى لوغان هارتنت بنبرة ابتهاج: «كيف الحال الآن؟».

استقرّ إخوتنا غجر الرمال في التلال الرملية منذ زمن بعيد. امتلكوا كور حدادة صنعوا فيه أسلحةً للحماية وللتجارة. وصنعوا أيضاً بوابات من ستة قضبان باعوها للأخويّة الزراعية: مزرعة بيغ نوثين. شربوا جِنّ الخمان (البيسان) وتزوّجوا في سن الرابعة عشرة، واستمتعوا بعزف الكمان العاطفيّ. نادراً ما كانوا يشاركون في 'العداء'، لكن عندما كانوا يشاركون، ما أدراك ما كانوا يفعلون؟

قيل إنّ ما من منظر في شبه الجزيرة مخيف بقدر منظر غجر الرمال في المواجهات.

أصبح لوغان وفاكر قريبين بما فيه الكفاية الآن لرؤية وجوههم. إنها وجوه جعدة، تحمل قسمات غجر الرمال النموذجية، ويعود ذلك إلى أنهم كانوا، على مدى أجيال، ينظرون، وعيونهم نصف مفتوحة، إلى امتداد التلال الرملية المغبرّ. كما أن عقوداً من نفخ الرياح للرمل الدقيق في وجوههم، أعطت لسحناتهم بريقاً فضيّاً غريباً، وكأنّ غجر الرمال ولدوا في كوكب بعيد، في مكان مؤلّف من معادن وغازات مختلفة.

لم يردّ أحد على نداء لوغان، لكنّه استطاع أن يرى أنّ الغجر قد بدوا هادئين، بما فيه الكفاية.

من المعروف أنّ غجر الرمال يصغون في المساء بكثير من التركيز إلى نغمة الرياح ويخمّنون الرسائل التي قد تأتي بها من بيغ نوثين. إذا كان هناك، ولو قطرة واحدة من دم الغجر في عروقكم، فسوف تعتبرون بيغ نوثين بيتكم الروحيّ ومستنقعكم الأم، هل تفهمون؟ قرأ غجر الرمال أيضاً رسائل في السماء ليلاً. وصلَتهم الأخبار في طريقة انتظام النجوم. عرف لوغان أنّه لو أراد ضمان مساعدتهم ذاك المساء، لاعتمد ذلك بشكل كبير على ما سمعوه من الرياح، وما قرأوه في السماء. هذا هو مستوى الأمور عند التعاطي مع غجر الرمال.

توقّف لوغان وفاكر على بعد أمتار من صفّ الغجر، فقال لوغان: «ابتسم يا فاكر!».

ألصق فاكر ابتسامةً مصطنعةً على شفتيه، وهدأت الرياح الشديدة، وعمّ الصمت للحظة. ومرت أرانب برّية رماديّة على قمّة أحد الكثبان، على مسافة منهما، وانتصبت على ساقيها الخلفيتين وتجمّدت وهي تراقب الرجال، واختُزِن سحر الكثبان بطريقة ما في جمود جسمها النحيل.

والأمر هو أنّ غجر الرمال آمنوا بخرافات عن معنى الأرانب البرّية الرماديّة. لكنّ هذه مسألة معقّدة سندعها ليوم آخر أقلّ إنهاكاً.

قال لوغان هارتنت: «ليس هذا مساءً سيئاً على الإطلاق!».

«هل من قائد لغجر الرمال»؟

«نعم. إنّه الشاب البدين بعض الشيء الذي لقّب نفسه بـ «برينس تابي»».

خرج الآن من صفّ الغجر، وكان شابّاً كبير الجسم بالفعل. بلغ عرضُ كتفيه عرضَ كتفَي حصان الجرّ. من المعروف أنّ لديه ثماني زوجات بين الرابعة عشرة والسادسة والأربعين، وكلّهنّ حسناوات، وكلّهنّ سوداوات العيون ومنحوتات البنية، ثلاث منهنّ شقيقات. وقد أنجب منهنّ اثنين وعشرين ولداً حتى الآن. وكأنّ برينس تابي يريد رفع عدد سكان غجر الرمال بمجرد ضربة من عضوه فحسب.

حدّق إلى لوغان وفاكر.

أصدر ضحكةً مكتومةً.

خلا وجهه من أي تعبير، وبدا باطنياً غامضاً.

فقال: «أنا وأنا، العين الناظرة».

بلغت ضفائر شعر برينس تابي خصره، وكانت بسمْك قصب الرمال. أدخل أسفل بنطلونه المخمليّ الأحمر القذر في جزمته الجلديّة. وكانت سترته مفتوحةً على صدره العاري العريض الذي أظهر وشم عين شريرة بالحبر الهنديّ.

قال فاكر: «اللعنة، ما الذي قاله يا أيتش؟».

أجاب لوغان: «هذه لهجتهم القديمة، اصمت يا فتى».

اقترب برينس تابي من لوغان وفاكر واطئاً التلة بجانبَي قدميه بأناقة غجر الرمال. وبدا عن قرب كقرد عَوّاء منتفخ.

فسأل: «هل أنا أكلّم الأمهق؟».

أجاب لوغان: «أنا لوغان هارتنت يا برينس. وهذا مساعدي فاكر بورك».

مرّر الغجريّ يده ببطء بين خصلات شعره، ثمّ أغلقها مشكّلاً قبضةً ضربها بقبضة لوغان ساخراً.

فسأله فاكر: «هل أنت بخير؟».

ابتسم له برينس بلطف فخفّض فاكر عينيه. وتساءل إن كان يستطيع غجريّ أن يعرف من نظرة إن كان يجري فيك دم غجريّ. أشار برينس إلى طاقمه الرثّ الثياب خلفه، أنّ بوسعهم الاسترخاء، ونظر برقّة إلى لوغان، ورفع عينيه في سؤال مهذّب.

فقال لوغان: «هل يمكننا الكلام على انفراد؟».

أجاب برينس: «هذا ليس ضرورياً أيّها الأمهق».

فتعجّب لوغان: «حقاً؟».

قال برينس: «أنا وأنا، العين الناظرة».

حثّه لوغان: «كنت تقول».

تابع برينس: «أنا العين الناظرة مهتمّ بعراك بوهاين».

فسأله لوغان: «وما رأيك بهذا يا برينس؟».

هزّ برينس تابي رأسه حزناً، وقال: «أنا وأنا لدي شعور بأنّ الأمهق يواجه مجموعةً قذرةً من مشاغبي أعلى المدينة».

فقال لوغان: «إنك تنطق بالحق يا برينس».

فصحّح تابي بلطف قائلاً: «أنا وأنا لا أحتاج إلى مَن يقول لي إنني أنطق بالحق. فكلّ ما يخرج مني أنا وأنا حقيقة آتية من مجيرنا الحبيب. أنا وأنا العين الناظرة».

هدّأه لوغان قائلاً: «إذاً زيارتي إليك لا تفاجئك».

ردّ برينس: «لا أيّها الأمهق. وسأعرض عليك ثمناً، هل تفهمني؟».

سارا نزولاً إلى مخيّم الغجر. وهرع أطفال ونسوة خارجين من الظلام فاتحين عيونهم للمشاهدة: ثمة غريبان على التلال. أطفال الغجر بالطبع نسلٌ غريب، لا يمشون حتى سن السابعة؛ لكنّهم تعلّموا الزحف على الأربع بسرعة كالسحالي. اقتربوا من ثنائي فانسي، وأصدروا أصوات هسيس. صُدم فاكر قليلاً بصراحة، وزادت صدمته عندما سمع جلبةً غريبةً، نوعاً من النحيب في الجوار فسأل: «ما هذا يا أيتش؟».

أجاب لوغان: «أقفاص كلاب الجوّاس»(*).

سأل فاكر: «هل هي موجودة حقـ...».

أسكته لوغان، قائلاً: «توقّف فاكر!».

اقتربا من النار وسط مخيّم غجر الرمال، حيث تنتصب أعمدة مستدقّة الرأس بارتفاع عشر أقدام تقريباً، رُتّبت بهدف شعائريّ حول النار، وفي أعلى كل عمود سُمّرت فروة رأس.

(*) الجوّاس كلب هجين يُستخدم على الأخص في الصيد غير المرخّص.

نظر الغجر المسنّون إلى الأعلى، وهم متحلّقون حول النار، ومرّروا زجاجات صغيرةً من مشروب البيست. فاح عطر تبغ ثقيل، وصرخ رجل مسنّ يردّد أغنيةً شعبية من زمن الغجر الضائع. وكان خفقان كور الحدادة الثائر محسوساً في الجوار.

حافظ لوغان على هدوئه قدر الإمكان؛ وأبقى فاكر عينيه منخفضتين.

سأل لوغان: «قلتَ إنّ لديك سعراً يا برينس تابي؟».

ربض كل رجال الغجر حول النار، وجلسوا كلّهم على الأرض، فانضمّ لوغان وفاكر إليهم، وهمس برينس تابي لبعض الوقت.

نادراً ما يخرج غجر الرمال من مخيّمهم. قد يخرجون بالطبع لفترة من أجل مطاردة الجياد الذهبية اللون، أو لملاقاة بائع مازوت صاحب شاربين في كلار أو غالواي. لكنّهم يعودون إلى الكثبان بعد وقت قصير، مع ندوب جديدة وسُمرة داكنة، والمزيد من القصص الكئيبة. وفي أكثر الأحيان، مع فروات رؤوس جديدة لتعليقها على الأعمدة. يجب ألاّ يعارضهم أحد في الأعمال. والطويل عرف ذلك، فأومأ برأسه موافقاً عندما عرض برينس تابي سعره.

جرى الاتفاق بالبصق والمصافحة.

وهكذا، وبعد أقل من نصف ساعة، اتّخذَت إدارة الحياة في شوارع بوهاين مجرى مختلفاً وغريباً. أقسم لوغان لغجر الرمال بإعطائهم ثلث حصة في تجارة سموكتاون ودوراً في إدارتها اليومية،

مقابل استعدادهم للمساعدة على إخراج المشاغبين النوريين من باك ترايس.

عجز فاكر بورك عن إخفاء صدمته فقال: «غجر يا أيتش! ستعطيهم ثلث أعمال سموكتاون؟».

فردّ لوغان: «أغلق فمك اللعين يا فاكر، من فضلك!».

ظهرَت رؤيا شيطانية مع حلول الليل. من الكثبان العالية، وبقيادة برينس تابي، نزل صفّ من أربع دزّينات من الغجر الأقوياء، وكانوا مسلّحين للقتال في 'العداء'.

حملوا فؤوساً وقضباناً حديديةً وقطعاً من رفارف قديمة، وعصيّاً من خشب الزعرور مغمّسةً في محلول ملحيّ لزيادة قساوتها، وآجراً وخناجر وحجارةً ومطارق ومفكّات براغيّ. حملوا هذه الأغراض... بلا مبالاة رائعة.

سار فاكر بورك ولوغان هارتنت في مؤخر الصف.

حمل فاكر على وجهه أمارات اليأس والارتباك.

وحمل لوغان حبلاً.

داخل قصر بوفيستا

أُفرِغ هيكل القصر القديم كلّه لترك مساحة فسيحة وداكنة. يبلغ علوّ الجدران المطلية بالجصّ أربعين قدماً تقريباً من بلاط الحجر الكلسي إلى قنطرة السقف الخشبيّة. النوافذ المثبَّتة بأطر رصاصية ضيّقة ومستدقّة الرأس، صارمة ككنيسة، وزجاجها قاتم وأكمد. وقد أحاط طابق أوسط البهو بالكامل، عند ثلثَي ارتفاع السقف، وأُوصلَت إليه سلالمُ لولبيّة في جهتَي البهو المتقابلتين. وقد صُفّ هذا الطابق الأوسط كلّه بمشاجب لتعليق ملابس؛ وُضعت المئات منها حول محيط البهو، في صفوف تصيب بالدوار. ملابس له وملابس لها. عُلّقت على المشاجب كل ألوان الموضة المتقلّبة من المبهرج إلى الرقيق... بدت رموز شبه الجزيرة على الستائر المتدلّية المربوطة بعوارض السقف السنديانيّة. ارتفعت مدخنة طويلة جداً من موقد مركزيّ إلى عَقد الغرفة المرتفع. اشتعلت كمية من خثّ نوثين في الموقد، ورقص بصيص اللهب على ماكو، التي جلست قرب الموقد على مقعد منخفض، وشبكت ساقيها. لم يتغيّر نحول جسمها، لكنّ عمرها بدا على وجهها.

ارتدت ماكو:

بنطلوناً حتى الربلتين من جلد مزأبر، دُبغ بلون قريب من لون الكركم الباهت، مع قميص أسود مضلّع من حرير شفّاف يعانق جسمها الرشيق، والتفّت بدثار من الفرو الذهبيّ المأخوذ من وشق(*) أيبيريّ. في عينيها ذهولٌ ساحر، وعلى فمها تعبير تتعذّر قراءته.

أضيئَت الغرفة، على مسافات قوطيّة، بشمعدانات معلّقة بدعائم من حديد صُبَّت على جصّ الجدران الصقيل.

جذبَت البقعةُ التي يقع فيها السرير نظر غانت السقيم. حُشر السرير في زاوية خلفيّة، وكُدِّس عليه فرو وأغطية؛ وكان لوحه الأماميّ مقطوعاً من خشب طافٍ.

شعر بوخز الغثيان في حلقه.

عُلِّقَت صورة واحدة عملاقة في إطار على الحائط، كانت فائقة الضخامة مثلها مثل ما فيها: كلب ذئبيّ إيرلنديّ بملامح حزينة.

قال غانت: «ما اسم هذا الكلب؟».

نظرت إليه ماكو بهدوء وسألت: «لِمَ عُدتَ يا ’غ‘؟»

جلس على مقعد قبالتها عند الموقد. جلس قبل أن تنهار ساقاه. لم يستطع تحمّل نظرتها لأكثر من لحظة كل مرّة. كل حركة، كل حالة مرّت على وجهها كانت ألماً له. رأى الآن بوضوح كبير العمرَ الذي تسلّل. رأى علامات العمر الباهتة والتجاعيد التي تشتدّ وتجفّ مع مرور الفصول الرديئة.

(*) الوشق الإيبيري: نوعٌ من السنوريات مهدّدٌ بالانقراض.

فقال: «لا يمكنني أن أجيبك».

لم تضطرب عندما رأته عند الباب. فتحته كأنّها تتوقّع وصوله. تنحّت كي تدعه يدخل الغرفة الكبيرة المعقودة. شعر أنه مدرك لكل حركة يقوم بها. شعر أنّه في التاسعة عشرة مجدداً، وحاول ألاّ يتصرّف كمرابٍ من بيغ نوثين.

فقالت: «يسمّى الكلب ألفي. كان يسمّى ألفي. دهسه قطار أل».

فسألها: «قطار لوغان؟»

فأجابت: «قطارنا نحن».

فقال: «إنّه جميل».

وأضافت: «وأحمق».

فتابع: «غالباً ما يتلازم هذان الوصفان يا ماكو».

لاحظ أنّ ومضة فكاهته قد طمأنتها. لكنّه قال في نفسه: «احذر يا غانت، لا تبدأ الآن بإطلاق جملك 'الحكيمة'؛ لست بحاجة إلى إثارة ردود أفعالها».

فقالت: «يا لمظهرك!».

فقال: «أعلم».

فسألته: «أين كنتَ غانت؟».

لم يكن هناك جواب سريع عن ذلك السؤال، سوى أن يقول إنّه زار أكثر الكهوف ظلاماً، حيث تلوح الغيلان بأجسامها الضخمة.

فقال: «كنت مسافراً».

فقالت: «أعرف هذا. كنّا...».

(مستعملةً ضمير الجمع لتعظيم الشأن).

«... سمعنا لو كان غير ذلك».

حفّ يديه الواحدة بالأخرى ليلهيهما كيلا ترتجفا. كلّ كلمة تفوّهَت بها أرسلَته إلى الزمن الضائع. كان من الأفضل ألاّ ينظر إليها، ومن الأفضل أن يدع الحلم يدوم.

قال: «تنقّلتُ كثيراً».

فقالت بدهاء: «ما من استقرار في تلك العظام. أنت غجريّ أصيل».

فردّ عليها بدهاء مماثل: «شممت رائحة دخان المخيّم، ووجدتُ الكثير من الدم المسفوك هنا يا ماك».

لم يكن الفتى لوغان الشاحب فرداً من عصابة فانسي منذ وقت طويل. كان طويلاً ونحيلاً وأنيقاً. كان خبيثاً كحيوان الفيزون ووسيم الطلعة أيضاً. ماذا تفعلون بمن تخشونهم في فانسي؟ تُبقونهم على مقربة منكم. وهكذا أصبح لوغان مساعداً «لفانسي برودريك». احترس غانت منه، وأوكل إليه المهمات الأصعب. ربما أمل ألاّ يعود منها، ربما حضّر هذه المهمات فقط لكي... لكن كلّمها يا غانت، ولا تدعها تراك تسافر بفكرك إلى الماضي. لا تدعها ترى ضعفك.

فقال: «أرى أنّ ثمة شبّاناً مخيفين في ترايس».

فردّت: «قذارة النوريين».

فكّر غانت في أنّ كل ’عداءات‘ بوهاين تعود إلى زمن بعيد، في حين جلس على المقعد، وجفّ في دفء الجوّ الخانق. يا لها من مدينة صبيانيّة لعينة!

تذكّر الفتى الذي غطّاه الشبان النوريون بالقطران والريش ذات ليلة على رصيف النهر؛ وقد وجده غانت يتخبّط في السائل الأسود اللزج، وبدا كالطير الذي يأتي في الكوابيس. كان الفتى من عصابة غانت، وكان الانتقام ضرورياً. فأرسِل لوغان الغرّ للانتقام. وبعد انتقامه، عجز حتى شبان فانسي عن النظر إلى عينيه.

ثم قال غانت: «تعرفين أنّني كتبت إليكِ».

أجابت ماكو: «تعرف أنّني تلقّيت الرسالة».

فأضاف: «ليس فقط تلك الرسالة يا ماكو، بل المئات منها. كتبتُ إليك على مدى عقود يا فتاة. لكنّني لم أرسِلها قط».

كان لوغان هادئاً في كلامه.

لم يستعرض لوغان ذكورية شبان فانسي.

كان لوغان... أكثر برودة.

فقال لها: «رأيتُه في المنطقة».

فقالت: «حزرتُ أنّك تسير في الظلال يا «غ». لطالما كنتَ ماهراً في الاختباء... بالرغم من ضخامة جسمك».

فقال: «هذه موهبة. لا يبدو سعيداً».

فقالت: «مَن السعيد في بوهاين اللعينة؟ هل تظنّني سعيدةً؟».

رأى فيها، للحظة فقط، الفتاة الكئيبة التي عرفها من قبل، لكنّه أصبح يعرف الآن أنّ زمنهما قد ولّى. رأى ذلك بوضوح كحدّة الصداع.

كانت ملابس لوغان تختلف عن ملابس الباقين قليلاً. ربما عُزي ذلك إلى وشاح عنق منمّق، أو إلى حذاء مختلف في قَصّته. فإذا انتعل الجميع مقدّم حذاء مربّعاً، فلن يميّز شيءٌ لوغان هارتنت عند وصوله إلى أليادوس إلّا انتعاله حذاءً مدبّب المقدّم، ووجهه المتجهّم الماكر. نظر إليه شبان فانسي الباقون، ودرسوه منتظرين خطوته التالية. كان غانت يملك أفخر الملابس بالطبع، لكنّه لم يستطع منع نفسه من الشعور بأنّه يرتديها كعامل يقطع الخثّ في المستنقعات.

قالت ماكو: «آسفة لعدم ردّي على رسالتك. لكن ماذا كان يُفترض بي أن أقول؟».

تذكّر كيف علقت بلوغان. استطاع رؤية الأمور تتطور بهذا الاتجاه؛ هناك، في مقهى أليادوس. لوغان عند طرف البار، قرب الصندوق الموسيقيّ، يطلب نغمة كاليبسو بطيئةً. يركل زاوية الصندوق بحذائه، ضربة ماهرة بإصبع قدمه تُميتُ دودةً. وما إن انتعل الجميع أحذيةً مدبّبة المقدّم، حتى انتقل لوغان إلى انتعال مقدّم حذاء مربّع.

في الليل، كان غانت يكلّم ماكو عن لوغان. أحسّ بتردُّدها

عندما كان يتكلّم. عجز غانت عن إخفاء أيّ شيء عن نفسه. عرف أنّ لوغان سيعاملها بقساوة.

قال: «ماكو، لا أحتاج إلى...».

لم يستطع إيجاد كلماته. تخبّط غانت في الغرفة الغريبة والمظلمة. نظرت إليه، وثبّتَت نظرها فيه وابتسمت. كانت جميلةً ولكن في الثالثة والأربعين.

فقال: «لا مجال لسحب الكلام، أليس كذلك؟».

خلال كل تلك السنين التي غابها، تذكّر أحاديثهما كلمة بكلمة:

«هذا كل ما تستطيعين بلوغه في هذه المدينة. ألم يحن الوقت لنرحل إلى هاي بورين يا فتاة؟».

لم يستطِع البقاء في المدينة من دون أن تفسده وَصْمَتُها.

لوغان لن يغادر أبداً، وماكو أيضاً، فهي ابنة بوهاين حتى العظم. ماكو من أولئك الذين يبقون.

اقترب غانت من موقد بوفيستا، وقال: «سألتك، هل تذكرين؟ سألتك أن تأتي معي».

فردّت: «آه، من فضلك يا غانت...».

فقال: «عرفتُ أنّك لن ترافقيني».

تقدّمت في مجلَسها، وشبكت يديها ووضعتهما للحظة على فمها. ثم تكلّمت إليه برقّة كبيرة قائلةً: «غانت، تواعدنا على مدى ثلاثة أسابيع».

فشعر بالغثيان وقال: «أعلم، أعلم أنّ هذه كل المدّة».

فسألته: «لمَ أتيتَ يا غ؟».

رسم الواقع بواسطة ضوء النار خطوطَ جلدها المسنّ. لم تَعُد ما احتاج إليه أو ما أراده. أصابه الواقع بمرارته وحقيقته. فظهر له بسرعة مسار جديد له منطقه العذب والانتقامي، فقال: «سأخبرك بالضبط سبب حضوري».

'العداء'

تجمّعت فانسي هارتنت تحت أعلامها عند طرف تلّ سموكتاون. كان وقت الغروب في أطول ليل من السنة. كانت فانسي متوتّرة. تدفّقت شحنة الأدرينالين الحارّة بسرعة، ثُنِيت القفّازات، طُقطِقت مفاصل الأصابع، أُطبِقت الفكوك، وأحدثت الأعلام المصفوفة جلبةً مشؤومة. خلق اللونان الأرجواني والأسود في الأعلام مظهراً كهنوتياً، كاثوليكياً جديداً، ورُسِمت على الأعلام، من غير إتقان، رموز وشعائر فانسي باك ترايس:

الرموز:

عفريت برأس تيس.
خنجر معقوف.
قمر الشعرى اليمانية(*).

الشعار:

الحقيقة أو الثأر

(*) «أسطع النجوم في السماء ليلاً، ويُرى في اتجاه كوكبة الكلب الأكبر، وهو رابع ألمع جرم في السماء بعد الشمس والقمر وكوكب الزهرة». ويكيبيديا.

سموكتاون في حالة من الهيجان. من النوافذ العالية، زعقت ساقطات ذوات عيون مجنونة، شحنتْهنَّ إثارةُ 'العداء'، بكلمات إعجاب بذيئة على مسامع شبّان فانسي.

أومأ شبّان فانسي بأيديهم إلى الساقطات وحاولوا، على الأقل، إظهار ما يشبه، الروح المرحة.

وقد أفاد روّاد الحانات الرخيصة وأماكن تدخين الحشيشة في سموكتاون، بحسب ما لاحظوه بكثير من الرهبة والارتياب، أن غجر الرمال المخيفين قد اختلطوا الآن بشبّان فانسي.

أظهر غجر الرمال هدوءاً كلياً. نفضوا أطرافهم، وقاموا بحركات جمباز لتمديد عضلاتهم، ورموا فؤوسهم في الجو للتباهي، وعادوا إلى التقاطها مجدّداً وراء ظهورهم، وراحوا المرة تلو المرة يملأون الغلايين المعلّقة برقابهم بقطع صغيرة بحجم الخرز من الحشيشة الشديدة السواد، ويسحبون أنفاساً عميقة مشبعة. إنهم المجرمون القتلة في نظام الكثبان.

أصبح شبّان فانسي المعتادون والمرتزقة من غجر الرمل، معاً، بعدد يكاد يضاهي مشاغبي عائلات النوريين الثماني الذين يعربدون في الجهة المقابلة من النهر، في بوهاين ترايس.

تجوّل لوغان هارتنت برقّة بين مقاتليه، ووزّع الابتسامات وهمسات التشجيع. هناك ثقة في النفس يمكن قراءتها في زمّة شفتيه الماكرة؛ وقد لبس، بشكل رسمي، بزّة رمادية ذات قصّة بالغة الأناقة، وقبّعة عالية رمادية فاتحة.

في هذه الأثناء، مرّت أمّهات شبّان فانسي وأخواتهم وحبيباتهم عبر الحشد، ذارفات الدمع ناثرات أيقونات المُجير في سَيْرِهن. أحضرنَ الأيقونات للحماية.

راح فاكر بورك يقفز من مكان إلى آخر، كما لو أنه يتنقّل على نوابض، وصفّر مشجّعاً الفانسي، وأمسك بيده رسناً خاصاً بالقتال قابلاً للتمدّد، ربط به كلبته الحبيبة أنجي، وهي من نوع الراعي الألماني، حيث كانت تثب ويسيل لعابها، ويعكس وميض عينيها توهّج قمر كانون. كان فاكر عاري الذراعين تحت صدريته الجينز. وقد انتعل أجمل جزمة لديه، وهي ذات مقدّم نحاسي. راح يشعر بتيّارات متسارعة من الفخر والانفعال والخوف. وقد أبقى أنجي ثلاثة أيّام من دون طعام.

اندفعت جيني تشينغ وسط الحشد المجتمع، وصرخت بأعلى صوتها بشتائم صينية مجنونة. وقد حملت كرةً شائكة في طرف سلسلة راحت تديرها فوق رأسها. كانت ترتدي بزة نايلون سوداء من قطعة واحدة، ملتصقة بجسمها إلى حدّ أنك قد تعتقد أن البزّة عبارة عن طبقةٍ من الدهان الأسود رُشَّت عليها رشّاً، وراحت تدخّن سيجار شيروت أسود يتناسب معها. وبدا فمها كجرحٍ عميقٍ أحدثه أحمر شفاهٍ قرمزيّ.

ولكن التفوّق كان، باعتراف الجميع، من نصيب وولفي ستانرز. فقد ارتدى بزة سكا(*) زرقاء صارخة، وانتعل حذاءً من الفينيل الأبيض

(*) نوع من الموسيقا نشأ في جامايكا في الخمسينات، تستعمل أزياءه العصابات إجمالاً.

مع مقدّم حديدي مزخرف. وفي متناول يده، أربعة خناجر ضُمَّت في حزام بعرض الصدر، صُمّم خصّيصاً لهذه الغاية. رقص على طول صفوف رجال فانسي. حدّق إلى وجه كلٍّ منهم على حدة، وأومأ بذراعيه باتجاه باك ترايس وراءهم، حيث يمكن سماع المشاغبين النوريين يولولون مطلقين شتائمهم وعباراتهم الساخرة المهينة.

قال وولفي، وهو يهسّ استهجاناً: «هل ستقبلون ذلك؟ قلت هل ستقبلون ذلك؟».

اقترب لوغان من الشاب، وعانقه وهمس في أذنه؛ هزّ وولفي رأسه موافقاً.

ثمّ أطلق وولفي صفرةً قصيرة من ثلاث نوتات، فحلّ صمت مطبق في تلك اللحظة على رجال فانسي.

كانت الصفرة لحناً بسيطاً ارتفع مرّةً واحدة ثم هبط، لحناً كئيباً، لحناً نشأ في زمن بوهاين الضائع، وهو ينطوي على قوّة خاصة، قوّة لا أستطيع حتّى أن أحاول شرحها لسيّئي الحظ منكم، الذين لا يأتون من هذا المكان؛ وقد جرى الردّ عليها بعد فترة من الصمت، من قِبل رجال فانسي، بلحن حزين رقيق. وبهذه الموسيقى البسيطة أقسموا بولائهم لباك ترايس، وكرجل واحد تحرّكوا لاستعادتها.

اللعنة! حتّى غجر الرمل ساروا بالحركة نفسها.

وفي حين سار الحشد في شوارع سموكتاون، أصبح لحن الصفير نشيداً عاماً، وبلغ الجهة المقابلة من جسر المشاة. وفي أزقّة باك ترايس وزواريبها، عرف المشاغبون أن هجومهم لن يبقى من دون ردّ.

سحب ذلك الدم من وجوه أولئك الخسيسين، بالتأكيد.

أما عائلات ترايس الممترسة في شققها طوال مدّة الهجوم، فقد سمعت أيضاً صفرات رجال فانسي، فركض الجميع إلى سطوح أبنيتهم وحبسوا أنفاسهم فخراً عندما شاهدوا هناك، في الجهة المقابلة من نهر بوهاين، الأعلام المرفوعة تقترب شيئاً فشيئاً، وكان الليل قد صفا، كما لو أنه أُعطي إشارة بذلك، وكل نجوم السماوات الباردة الوحشية قُذِفت بابتهاج في الأرجاء.

سار لوغان هارتنت، الخارج عن القانون الملكي، في مؤخّرة جمع فانسي الزاحف. كانت البزّة الرمادية أنيقة بشكل صارخ، وحادّ، يكفي لشقّ مقلة العين. وكانت القبّعة العالية مائلة بأسلوب جريء. لم يكن مثقلاً بالأسلحة، باستثناء لفّة الحبل تلك، الملفوفة بغير إحكام حول كتفه. من الصعب ألاّ تشعر بالارتباك أمام أناقة ذلك العتيق النحيل التي تنمّ عن رباطة جأش.

وصلت فانسي إلى جسر المشاة، واجتازته إلى واجهة نهر بوهاين، وقام رجال الشرطة المؤلّلة المتجمّعون على طول رصيف النهر بإدارة جيادهم وظهورهم بحذر. نظرت الشرطة في الاتجاه المعاكس. كما لو أن 'العداء' سوف يدور في شوارع نيوتاون الجميلة.

تنقّل فاكر وجيني وولفي بسرعة واندفاع صعوداً ونزولاً بين صفوف رجال فانسي المتقدّمين، وشجّعوا المقاتلين. غمز وولفي جيني لدى مروره بها، وأرسل إليها قبلة، وحيّا فاكر برفع ذراعه، وضرب كفّاً بكفّ.

ولكن وولفي هو مَن تولّى القيادة العامة «لفانسي» في سيرها عبر الرصيف المرصوف بالحصى إلى ترايس. فعظم ذلك الفتى من ترايس وعروقه من أزقّتها.

أطلق وولفي عواءً يمزّق الآذان خاصاً بباك ترايس، وسمعه كل مَن ساروا خلفه في أعماقهم، وشعروا بالقوّة.

سُحبت الخناجر من الأغماد، وأديرَت السلاسل ورُفِعت عصي الزعرور.

حتّى السماء كادت تنشقّ من صيحات فانسي.

دار وولفي على كعبه، وهرول إلى الخلف بحيث واجه الصفوف المتحرّكة، وأدّى رقصةً أنيقة بكثير من المتعة والمرح، وهي الحركة المميّزة «لفانسي هارتنت». وحملت هتافات التهليل التي علت خشونة مرعبة فجّة، حملت رغبةً شديدة وتوقاً، توقاً إلى الدمّ، هل تفهمني؟

استدار وولفي مجدّداً، ودخل ترايس.

أنار السماء وميض أزرق، ملتقطاً صرخة المعركة التي أطلقها.

الرسالة التي تركَتها ماكو للوغان

هذه هي النهاية يا لوغان. أنت مريض جداً الآن. الغيرة تسمّمك. كيف استطعت فعل أمر كهذا بذاك الرجل المسكين؟ زارني الليلة. ولو رأيتَه لفُطر قلبك المريض اللعين. لم أعُد أستطيع البقاء معك. لم أعُد أستطيع سماع صوتك. لا أعلم إلى أين سأذهب؛ لكنّني راحلة. وسأطلب إليك ألاّ تحاول إيجادي، لكنني أعلم أنّك ستحاول ذلك. سترسل شبّانك للبحث عنّي كما فعلوا في المرة الأخيرة، وكما يفعلون دائماً. لكنّ هذه هي النهاية يا لوغان. لا تحاول إيجادي. لم تَعُد تستطيع تغيير رأيي. يجب أن تدعني وشأني الآن يا لوغان. من فضلك، هلاّ تركتني يا لوغان؟

الغرفة المظلمة

هَدَرَ الليل الأطول، وثار 'العداء'. وتحرّك الأحدب «غرايمز» بسرعة في أزقّة ترايس، وهو يرزح تحت وزن كاميرا لايكا من القرون الوسطى.

شاهد الأحدب «بالتزار غرايمز» اندفاع عصابة فانسي الهائل عند اصطدامها بصفوف مشاغبي الشمال المنتظرين، وصوّر الاصطدام بلا خوف.

صوّر الأحدب «بالتزار ماري غرايمز»، مصوّر «بوهاين فينديكايتور» الأهمّ، الكثير من العداءات في زمنه، لكنّ القليل منها فقط ضاهى هذا 'العداء' شراسةً.

عندما اقترب 'العداء' من نهايته، انطلق من ترايس على ساقيه القصيرتين السريعتين المعوجّتين، واندفع بين صفوف الشرطة في شارع دي فاليرا.

فابتسم له شرطيّ بدين ابتسامةً متكلّفةً، وقال: «هل الخبر دسم يا بالت؟».

فهزّ الأحدب رأسه بحزن، وتابع ركضه. فثمة مقال خاص من اثنتين وثلاثين صفحةً على المحكّ، ووجب عليه ملء صفحاته.

تقع مكاتب الفينديكايتور في أحد شوارع نيو تاون، ضمن مبنى إدوارديّ الهندسة متين ضخم، من أحجار جيريّة رماديّة. هبط «بالت غرايمز» إلى قبوه، على طول الأدراج المعدنية الصدئة.

أقفل باب الغرفة المظلمة خلفه، واستند إليه، وشعر بالخفّة وبالفخر لإنهاء مهمّته.

بدأ بإفلات البكرات، وغمسها بالماء.

من حوض المُحمّض، الذي بات يُجلب غالباً عن طريق لشبونة، ظهرت سلسلة صور من السائل الأزرق. رُفعت الصور من الحوض وعُلِّقَت على الشريط. سار الأحدب إلى جانب الشريط مفكّراً، في حين جفّت الصور، وكتب ملاحظات لعناوين الصور.

رأى:

رجال فانسي المحتشدين يدخلون ترايس... فاغري الأفواه بشراسة، وهم يصرخون بحسب التقليد أسماءً عشوائيةً لقتلى باك ترايس... من المثير للاهتمام... أنّهم بدوا كغربان صغار ينتظرون الطعام؛

الفتى وولفي ستانرز، وهو يقود مجموعة تابعين إلى الميدان ٩٨، وشعر عنقه منتصب ككلب مسعور؛

صفّاً من الرجال النوريين، مكشوفي الصدور، وهم يهسهسون وينعقون... وهناك أيضاً تفصيل رائع: الطريقة التي ثبّتوا بها ألسنتهم

بين أسنانهم لإصدار الصوت... وعلى صدورهم النحيلة، رسموا بالفحم صوراً بسيطةً لرمزهم طائر الزرزور.

لقطة عن قرب: شخصٌ يبدو كأنه نتيجة تزاوج بين سلالة كيوساك وسلالة مكغروتي، ينظر إلى ستانرز نظرة اهتمامٍ مباشرةً، بعينيه اللّتين أفسدهما تدخين الحشيشة، ومظهره المسحوقٍ بشكل ما، وغد كلاسيكيّ من النوريين؛ شدّ الأحدب غرايمر على عينيه للتأكد من المشهد؛

لقطة عن قرب: الفتى عينه على ركبتيه، بعد وقت وجيز، ووجهه مشقوق بضربة سلسلة، وولفي يهمس في أذنه، وهو يتحضّر لنحره بخنجر معقوف. (إنّه مجرّد فتى، ربما بلغ السادسة عشرة من العمر)؛

مجموعةً قذرةً من أفراد عائلة مكغرورتي في ظل زقاق، يبدون غير متأكدين على الإطلاق من أنفسهم؛

وولفي يبدو وكأنه يحلّق في الهواء القذر - صورةٌ ممتازة للصفحة الأولى - وهو يهرع نحو عائلة مكغرورتي في اندفاع قاتل؛

وجهاً محطّماً؛

فتى نحيلاً من النوريين مخلوع الكتف. رائعة، الطريقة التي التُقطت بها ملامحه وفمه مفتوح في تعبير عن ألم حيوانيّ.

لقطة عن بعد لنسوة وأطفال من ترايس على السطوح، وهم يهتفون بصرخات التشجيع. وهي صورة غير واضحة، وغير مفيدة؛

خدشاً؛

ركلاً؛

طعناً... هذه صورة قاسية أكثر من اللازم... الأعضاء الداخلية المندلقة جليّة... يفضّل رمي هذه الصورة؛

وولفي، من جديد، يبدو قصير القامة، غارقاً الآن إلى العنق في دماء النوريين؛

غجريّ رمال ضفائره ترفرف، وهو يتعارك بالأيدي مع شاب من عائلة ليناين. لن يكون هناك سوى نتيجة واحدة؛

الفتى بورك، المعروف بفاكر، مع كلبة من نوع الراعي الألماني مربوطة بزمام، في الميدان ٩٨، يصدّ رجلين من النوريين بحذائه، في حين تقتات الكلبة على دم مُراق؛

الفتاة تشينغ - وهي صورةٌ ممتازة للصفحة الأولى - تسدّد ركلة طائرة لتشقّ رأس آيز كيوساك بذاته، بمقدّم حذاء فولاذيّ؛

لقطة عن قرب، للصفحة الأولى: آيز كيوساك ينزف، مع اتّضاح الواقع؛

لقطة عن قرب، للصفحة الأولى: لوغان هارتنت... الطويل... الأمهق يستند إلى جدار زقاق، مكتوف الذراعين، حاملاً حبلاً ملفوفاً على كتفه، وما من شعرة واحدة في غير مكانها. يدخّن سيجارةً؛

لقطة واسعة: غجر رمال يقهقهون، ويطاردون مجموعةً هاربةً من النوريين؛

لقطة عن قرب: فاكر مع خصلة شَعر في يده، يبدو... مثاراً جنسياً. يُستحسن رمي الصورة؛

لقطة عن قرب: أنجلينا يسيل لعابها؛

الفتاة تشينغ، في صورة ممتازة، تثبّت رأس آيز كيوساك بين ذراعيها؛

وولفي يرمي بآجرة على مؤخر رأسٍ متملّص من النوريين يفرّ من المكان. صورة هزليّة، الصفحة... ٦؟

شبان فانسي المنتصرون يؤدّون رقصة صبيانية في الميدان ٩٨. صورة رائعة، تغطّي صفحتين؛

لقطة عن قرب: جبين فاكر مجروحاً ومقشّراً بسبب النطح؛

لقطة عن قرب: الطويل، بوجه جامد كالحجر تحت قبّعته؛

جيني تشينغ تصل إلى الميدان ٩٨، في لقطة ممتازة، وآيز كيوساك أمامها، وفي حلقه خنجر، ويداه مكبّلتان خلف ظهره؛

مشهداً رائعاً: قنطرة جسر مشاة سموكتاون العالية، منقوشة بأسلوب جميل في ظلام الليل، وفاكر وجيني آيز يرفعان كيوساك إلى السياج، ويحضّر لوغان العُقدة، وولفي ينتظر؛

مشهداً رائعاً: يضع وولفي له الأنشوطة برقّة، وهذه الصورة دراسة مثيرة للاهتمام، فتعبيره يكاد يكون... قدسياً، هذه صورة يجب الاحتفاظ بها، حتماً، لأنّ آيز يحافظ على كرامته أيضاً. ويستحقّ الاحترام؛

مكتبة t.me/ktabrwaya

لقطة واسعة: على طول المرسى، صفوف خيّالة الشرطة وقد أبقت خيولها تنظر في الاتجاه الآخر. هذا رائع؛

وصل الأحدب بالت غرايمز إلى نهاية السلك وابتسم ساخراً. يبدو أنّ تهديد النوريين لم يدُم طويلاً، وأنّ جماعة باك ترايس دائمة ومستمرّة.

لقطة الصفحة الأولى: آيز كيوساك معلّق بعنقه من جسر مشاة سموكتاون.

٢٢ كانون الأول،
الساعة ١:١٢ بعد منتصف الليل

اجتمع رجال السلطة الاثنا عشر في بوهاين، لتدخين سجائر غنية بالقطران وارتشاف قهوة رديئة في فناجين ورقية. كان كلٌّ منهم شاحب الوجه كشحوب الموتى، عيونهم حمر وأيديهم مرتجفة. دار الحديث على نحو هستيري حول طاولة المؤتمرات عند تقييم آثار 'العداء'.

«ما النتيجة أيها الشباب؟»

«يبدو أنّ لدينا اثني عشر قتيلاً».

«وأصيب ضعفا هذا العدد بالعرج أو العمى أو بالإعاقة عموماً».

«يا مجيرنا! وكأنّ صيتنا لم يكن سيّئاً أصلاً!».

«سيضحك جميع اللقطاء خفية في أرجاء الوطن هذه الليلة!».

«هذه نهاية ترام بوفيستا!».

«هل تظنّون أن هؤلاء اللقطاء قد عاملونا بحقدٍ من قبل؟ سيعاملوننا الآن بالتأكيد بمزيد من الحقد!».

«ليس ثمة خبر عن أول مانيون، أليس كذلك؟».

«عادوا إلى الأمر عينه! هذا ما سيقولونه جميعهم! نصف بوهاين يحاول أكل النصف الآخر!».

كان رجال السُلطة أشخاصاً يائسين يتقاضون أجوراً منخفضة، ويعيشون في أقصى سلام ممكن في المصطبات المتواضعة التي ترتفع باتجاه مرتفعات بوفيستا، من دون أن تبلغها. يبقون دائماً في جهة نيو تاون من شارع دي فاليرا. يؤدّون أعمالهم بتوتّر في مدينة حيوانيّة. وعملهم هو إبقاء المدينة متحضّرة بطريقة ما. وهذه وظيفة مُضنية.

وأكمل الحديث:

«ماذا نعرف عن الفتى ستانرز؟».

«كانت طفولته صعبةً، فقد تيتّم باكراً. إنّه صديق ابن آل بورك».

«يُعرف باسم فاكر. همجي حقيقي».

«كما أنه ليس ذكيّاً، في الحقيقة، بل هو شرّير ليس إلاّ. فيما يقال إنّ وولفي القصير القامة ذكيّ بقدر ما هو شرّير».

«نعرف أنّه مرتبط بابنة آل تشينغ».

«فليأتِ المجير ويحفظنا!».

كان هناك الكثير من المشكلات في بوهاين، حتى في أفضل الأوقات. يجب إبقاء قطار 'أل' شغالاً، ويجب إضاءة مصابيح بخار

الصوديوم لعدد، ولو قليل، من ساعات الليل التي يمكن تأمينها. ومن حين إلى آخر يجب على الأقلّ إزالة الكلاب الميتة وحِقَن المخدرات ولفافات الطعام من بواليع الطرقات. لقد اهتمّ رجال السُلطة حقيقةً بأن تحافظ مدينة بوهاين، التي كانت في ما مضى مدينة عظيمةً وجامعة، على مظهر مدنيّتها القديمة، على أقل تقدير.

«يجب أن تراقب الشرطة عائلات النوريين عن كثب. فلا نريد أن يأتي شابّ أحمق إلى الميدان ٩٨، ليجعل من نفسه شهيداً من أجل آيز كيوساك».

«هذا مؤكد».

«هل السيد مانيون في قطار 'أل'؟».

«هذا ما سمعناه. إنّه آتٍ من نوثين».

تمنّى رجال السُلطة أن تبقى مراسي السفن مفتوحةً وشغّالةً. تمنّوا أن تُخمّر الجعة، وأن تُوَضّب النقانق. تمنّوا ألاّ تصل العلاقات بين الفصائل إلى حدّ الاقتتال. تمنّوا أن يُسمح للسادة من إنديفر أفنيو بإدارة أعمالهم. تمنّوا أن يتلاشى وقت بوهاين الضائع مع السنين ليصبح ذكرى أقلّ ألماً.

«ما هي حال مستشفى مورسي؟».

«استدعينا الأطباء المتوفرين. تعاطى المستشفى مع أوضاع أسوأ من هذه».

«هل وافقت غيرلي على استدعاء الغجر؟».

«لا بدّ من أنها قد وافقت! وإلا لما تمكّن لوغان، الطفل الصغير، من استدعائهم من دون موافقتها».

فُتح باب غرفة الاجتماعات، وظهر أُول بوي مانيون بكثير من الأناقة. نهض رجال السُلطة كرجل واحد، وتجمّعوا حوله في فوضى كبيرة.

صرخ أُول بوي: «صه! هلاّ صمتم! أنتم كالدجاج اللعين في باحة مزرعة».

هدّأهم، وبسرعة؛ فهو متمرّس في هذا الفن. وسرعان ما جلس الجميع واستأنفوا التدخين حول الطاولة الطويلة. وقف أُول بوي عند رأس الطاولة ورفع كفّيه مرةً أخرى لإسكاتهم وقال: «علينا ألّا نبالغ في ردود أفعالنا أيها الشباب. فقد حدثت مناوشات بسيطة بين شباب منطقة باك ترايس في المدينة. يمكننا تخطّي هذا. سوف نأخذ الجثث تحت جنح الظلام إلى معمل تدخين السمك عند النهر. ونحرقها قبل بزوغ الفجر. هل لدينا ما يكفي من المازوت؟».

أكّدوا له أن بالإمكان جمع كمّيات كافية لهذا الغرض.

فأكمل أُول بوي: «حسناً. الآن يجب أن نبقي آيز معلّقاً في الهواء ساعة أخرى. أهل فانسي يرغبون في النظر إليه طويلاً، فدعوهم ينظروا. لا نريد تكدير الشباب، وهم في مزاج احتفاليّ. سيشغّلون موسيقى كاليبسو، ويدخّنون غلايينهم. غداً، سنسمح للفينديكايتور بنشر المقال الخاصّ، فالمدينة تشتهي قراءته، لكنّني سأطلب إلى

دومينيك ألاّ يذكر عدد الجثث. بعض الصور الدمويّة ستُفرح بوهاين بما فيه الكفاية. تعرفون كيف تسير الأمور أيّها السادة. طبعاً على الشرطة أن تراقب الميدان ٩٨ جيداً في فترة الاحتفالات. نريد كل الوحدات في الشوارع: خيّالة الشرطة وكلابها والأفراد الأقوياء البنية».

قرقرَت السُلطة إجماعاً كالدجاج.

فأكمل أُول بوي: «هل نعرف مستوى الوحشية الحيوانية التي تعرّضَت لها ممتلكات ترايس؟».

أعلَموه بالضرر المعروف.

تابع: «على الأقل، يبدو أنّ قماش مظلّة السوق سليم. هذا جيّد. إذا استطاعت أمّهاتنا عبور السوق في الصباح وشراء بعض الكرنب، سيبدو الأمر وكأنّ العالم بألف خير. علينا من ثمّ الاهتمام بغيرلي».

عمّت المكان رجفة ارتعاد، اعترف بها بإغماض عينيه حزناً، وقال: «ما من مهرب، علينا إرسال وفد إلى العجوز اللعينة. يجب أن نوضّح لها أنّنا إذا سمحنا بإعطاء غجر الرمال حصةً في تجارة سموكتاون، فعليهم أن يكونوا لائقين بعض الشيء. لا يمكننا ترك المدينة تذهب إلى الجحيم بالكامل. يمكننا أن نفترض طبعاً أنّ وعد فانسي للغجر ليس نابعاً من القلب في أفضل الأحوال، وأنّ فانسي ستحاول غشّهم بمنحهم إدارة بعض بيوت الدعارة، والدخول المجاني إلى صالونات تدليك الأقدام...».

ظهرَت ابتسامات باهتة، ابتسامات الليل الأولى. كان فهم أُول

بوي وسيطرته على الأمور مطمئنَيْن جداً، فتابع: «لكنّ هذه لعبة خطيرة لآل هارتنت. كما يعرف كبارنا، ما من شيء مرعب أكثر من غجريّ رمال يشعر بأنّه تعرّض للغشّ. لا أقصد إهانة تراثهم العرقيّ...».

رفع حاجبيه، وأكمل: «لكن لا نريد أن يحصل هؤلاء اللقطاء على موطئ قدم. فاسم بوهاين سيّئ كفايةً، بشكلٍ مبرَّر. فهذه مدينة من النوع الفاسد الشرير».

ارتعش رجال السُلطة موافقين بحزن.

فتابع أُول بوي: «كل ما أقوله هو أنّ آخِر ما نريده هو أن نُعرف بمركز الغجر. الأمور سيّئة كفايةً أيها الشباب. يجب أن نجعل غيرلي تقف بوجه دفق الغجر. الآن، بخصوص وضع غانت برودريك...».

تحرّك رجال السلطة إلى الأمام على كراسيّهم.

فتابع أُول بوي: «كلّمتُه غير مرة، لكن أعترف بأنّني مازلت أجهل دوافعه. لا أعلم بالتحديد سبب عودة غانت. ما أعرفه هو أنّه يسبّب لياليَ من الأرق لامرأةٍ شاحبة الوجه. كيف عرفتُ هذا؟».

ابتسم أُول بوي بدهاء، وتابع: «لدينا غانت والطويل وماكو الحسناء. فكّروا يا رجالي الأعزّاء. هذه فوضى غرامية بالتأكيد، وقد تلهي شعب بوهاين في هذا الطقس. وقد تنسيهم 'العداء' بسرعة...».

أومأ رجال السُلطة ببطء، وقد أدركوا معنى كلامه.

فصرخ أُول بوي: «اسمعوا! يجب ألاّ تكون مدينة بوهاين دائماً

قصة قتال بين العصابات. يمكننا منحها لمسة غرامية تقليديةً، هل تفهمون؟».

القسم الثالث

... نيسان ...

نحو مدينة الفساد

مزّق عويلٌ حارّ ليل نيسان في سموكتاون.

ألقى لوغان هارتنت، رئيس عصابة فانسي الحزين العينين، نظرة كسولة على النافذة العالية في حجرة صالون تدخين الأفيون. كانت النافذة مفتوحة على حرّ الربيع الشديد ومقاطع الصراخ اللفظية البيضاء قد شقّت الهواء. كان لوغان محطّم الفؤاد في الفصل القاسي. وأثناء تمدّده على السرير، شعر بالصراخ يسري في عروق دمه كلّها، وكأنّه محمول على ظهر جيش من النمل السريع الجريان. تركَتهُ المرأة التي لم يحبّ مثلها في حياته، فأغمض عينيه لينسى الصراخ، لكن جفنيه الزهريّين كانا ينبضان بارتباك. شعر بمجرى قطرة عرق بطيئة عابرة تترقرق من جبينه إلى طرف أنفه، وتسقط في الفراغ بين شفتيه الرفيعتين، وتقطر ببطء على شفتيه لتترك رواسب ملحيّةً حارقةً، وتتدحرج على ذقنه إلى أن أزالتها جيني تشينغ بمسحة واحدة من إصبع قدمها.

فتح عينيه ليرى الفتاة.

طَرَفت بعينها، في حين أرجعت قدمها من جديد. جلست

على ردفيها عند طرف المقعد قبالته. أخذت المدقّة ووعاء الهاون وطحنت المزيد من عجين رؤوس الخشخاش. مدّته على حارق الغليون، واقتربت منه على طول المقعد. تلفتك حركتها البطيئة والمتلويّة، وهي تجلب بلسماً لقلبه المفطور. ووضعت الغليون بين شفتيه وقدحت الشعلة وقالت: «أكثر».

مزّق العويل الهواءَ من جديد، لكنّه تكسّر عندما علق عند مُصدِره وتحوّل إلى سعال متقطّع، وتلوّى فتى في الخامسة عشرة في أحد الأزقّة عند طرف التلال الرملية. قبض بيديه الهزيلتين على جانبيه، ودلّكَت أطراف أصابعه أضلعَه، وعلى كل مفصلِ إصبعٍ، وُشِم رقمٌ بحبرٍ هنديّ أزرق باهت:

٢٠١١

٢٠٥٣

هذان تاريخا ميلاد والده ووفاته. في هذا الزقاق عينه، ضُرب والده حتّى الموت بجزمات شبّان من فانسي. عرف الفتى كانتيلون أنّ الانتقام قد يكلّفه حياته الشابّة، لكنّ صراخه أنبأ بالحاجة إلى الانتقام. تحسّس خنجره تحت حزام بنطلونه، متلمّساً أن يطمئنه مقبضُه العظميّ، وتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن تسنح له الفرصة. شوّشه ليل الربيع، وحافظ على صمت وجيز زاد من قلق اللحظة.

ثم جاش صخب وأناشيد جماعية على إيقاع التصفيق الموزون من حانة يديرها الغجر في الجوار.

كان عرض غجر الرمال في أوجه:

رُبطَت راقصة مستعبدة، رُسمَت على وجهها أشكال سحليات، بسلسلة من خصرها. وأمسك سائسها، وهو قزم مغطّى الرأس، بطرف السلسلة. تلوّت وفتلت في حلبة على شكل ماسة تحيط بها مشاعل قصب محترقة. نهض رجل بدين بزيّ كلب متوحّش، ثم دخل الحلبة على الأربع، فعلا التشجيع والصياح. ووثب الثنائيّ، من دون تحفّظ، ولمدة طويلة بغيضة، وحافظا على إيقاع جيد مع التصفيق المرافق.

طوال الوقت، كانت الراقصة تزمجر للمقامرين المصطفّين بصوت صاخب، أشبه ما يكون بثرثرة الشيطان. لقد علّموها ذلك في أقفاص تلال الرمال. وبدت عيناها شاحبتين في النور الخافت لحانة الغجر.

كان سائسها القزم يرخي السلسلةَ في بعض الأوقات، ويشدّها في أوقات أخرى؛ وهدفه من ذلك المساعدة على تصميم الوثب وتوجيهه. صفّق المقامرون بإيقاع ثابت من ثلاث نغمات، وصفّروا، وهسهسوا، ودخّنوا غلايين الحشيشة، ناظرين بعيون نصف مغلقة من خلال ضباب دخانهم الضارب إلى الخضرة. وتجرّعوا زجاجات من مزر فينكس، ضمن عرضٍ يمنحهم ثلاث زجاجات مقابل شراء اثنتين.

على ظهر الراقصة آثار الضرب التي تخبر عن أَسْرِها. إنّها من النوع الذي أُخذ على الأرجح في صغره من مرتفعات نجد نوثين، وتربّى في تلال الرمل. هذه هي القصص القديمة الحزينة التي تسمعونها في هذا المكان من العالم. وقد يجري شراء فتاة صغيرة مثل هذه الراقصة، مقابل بضع زجاجات بيست، وعلبة أساور ملوّنة.

كان رأي غجر الرمال أن تُشترى الفتيات في صِغَرهنّ.

نعم، حصل غجر الرمال على أكثر البطاقات إثارة في هذا الموسم في تلال رمال سموكتاون. لم تكُن المرأة والرجل الكلب سوى العرض الأوّل الليلة. ومع إرخاء الليل لسدوله الرهيبة، ازداد الجوّ حقارة وبهيمية، وظهرت المبتدئات والمعشوقات المعروفات والرجال المثيرون والرجل ذو الجسم الفائق الليونة والشاربين، والذي يدعو نفسه الساحر. ستحمرّ خجلاً لو أنك كرّرت تفاصيل ألعاب خفّة هذا الرجل. يكفي القول إنّ ما من هرة بقيت آمنةً لأميال.

وطوال هذا الوقت، كان برينس تابي، العين الناظرة، يراقب من المدخل، ويعدّ الجالسين في المقاعد حول الحلبة. قامت مجموعتان بأفعال إباحية، وهذا يحسّن الجوّ دائماً. احتسب رسوم الدخول التي قبضها، وهزّ رأسه بهدوء.

طلب برينس تابي رسم دخول زهيداً، ورفع سقف الاستدانة كثيراً للزبائن الدائمين، وقدّم صفقات على مزر فينكس، وجعة راسلر وتبغ بيغ نوثين. أضاء الطموحُ تابي كنجم في هذا الطقس. أصبح يحب العيش في المدينة. وضع يداً في جيب بنطلونه المخمليّ الواسع الساقين، وشعر بثقل القطع المعدنية وهزّها بمرح مُحدثاً رنيناً. حكّ خصيتيه، وأراد المزيد، المزيد! وتأمّل في الضعف الذي لاحظه في أفراد ترايس فانسي. الأمهق يلتجئ إلى الوحدة وتدخين الأفيون، وشبان فانسي يتهامسون.

خرج تابي لتذوّق الليل. تنشّق هواء سموكتاون. وقف حرّاسه في الأزقّة الواقعة على أطراف كثبان الرمل؛ ذلك أنه لم يثق برجال فانسي. وشعر بالاطمئنان لوجود رجاله. تنشّق الهواء ملء رئتيه. رفع عينيه وقرأ النجوم. لوقت قصير، عمّ مجدّداً شعور بالسكون في بوهاين.

ثم سُمع صوت طائر ليل غريب من أعلى الأشجار.

كان نداء الطائر كصوت محرّك قديم طنّان واضح سريع، وبلغ مسافةً بعيدة على طول قمم الأشجار المندّبة، وسمعه آخرون من جنسه وردّوا عليه. النداء، أي تلك السلسلة من الدقّات والطقطقات القصيرة الجَهوَرية، ارتفع ليصل إلى ردهة صالة فيتشتية، وتسلّل عبر نافذة جناح في الطبقة العليا؛ حتى بلغ مسامع بيغ دوم غليسون الصحافيّ البدين، وهو ممدّد على بطنه في أحد الأسرّة. كان يرضع براندي فرنسيةً من حلمة زجاجة أطفال، ويتعرَّق بغزارة، في حين كانت فتاة في السابعة عشرة من العمر تضربه مئة ضربة على مؤخرته العارية بفرشاة شعر مرصّعة باللآلئ.

تنهّد دوم قائلاً: «آه، أنا رجل ضعيف جداً».

ضربَته الفتاة المتجهّمة، وراحت تتمتم وهي تعدّ:

«ستة وسبعون... سبعة وسبعون... ثمانية وسبعون...».

وبين التنهّدات الخافتة وحلمة زجاجة الأطفال، فكّر بيغ دوم في طقطقة طائر الليل الدقيقة الغريبة، واستنتج أنّه طائر دخيل من عاصفة

محيطيّة؛ فهذا موسمها. راح يئنّ فرحاً وخِزْياً، واستمتع كالعادة بتغيّر الفصول البطيء وتقدّم السنة في بوهاين.

أكملت الفتاة العدّ: «تسعة وسبعون... ثمانون... واحد وثمانون...»

يا لمعصمها القويّ! وفيما استسلم، مرةً أخرى، لضعفه، آه يا دوم الباكي الفاسد أكملت هي العدّ.

«اثنان وثمانون... ثلاثة وثمانون...».

وتلذّذ بمدى الألم الذي استخرجَته الفتاة من عظامه الآثمة. راح يفكّر في العشاء أيضاً: هل سآكل الهلبوت؟ وكيف أن طقطقة الطائر الغريب شبيهة بصوت كاميرة لايكا التي يستخدمها الأحدب غرايمز، أليس كذلك؟ وافتتاحيته التي ينوي كتابتها أيضاً...

وأكملت الفتاة العد: «تسعون... واحد وتسعون...».

تلك الافتتاحية التي سيكتبها لعدد فينديكايتور المسائي التالي. بدأ نزاع على الخلافة في فانسي، لا شكّ في ذلك. هذا وقت صعب في المدينة.

الفتى ستانرز.

بورك الأخرق.

تشينغ المائلة العينين.

كلّهم يخطّطون. كلّهم يناورون. حتى في النصر، أظهر لوغان

هارتنت ضعفاً؛ فقد طلب الدعم من خارج أعلام فانسي. غالباً ما يكون إظهار الضعف بهذا الوضوح مُتعِباً في بوهاين. لكنّ دوم قرّر أنّ افتتاحيته ستلتمس الصبر وإبقاء الطويل في منصبه لبعض الوقت، من أجل الحفاظ...

وأكملت الفتاة العد: «ستة وتسعون... سبعة وتسعون...».

... من أجل الحفاظ على الوضع الراهن. في النهاية، يمكنكم قول ما تريدونه على الطويل، لكنّه يتحلّى بالرقيّ.

وأكملت العد: «تسعة وتسعون...».

وهناك أيضاً حقيقة أنه يظهر بصورة لائقة جداً. رجل طويل، نحيل، أنيق يتبع الموضة. أمر غريب، لكنّه سيُفتقَد. أعدّ دوم نفسه لضربة الفرشاة الأخيرة التي كانت الفتاة تحتفظ فيها دائماً بضغينة خاصة. وبالفعل، رفعت ذراعها عالياً وهبطت بضربة لذة فيها غضب عظيم.

قالت الفتاة: «مئة بالضبط يا سيد غليسون!».

تنهّد دوم بصوت مرتفع، وشعر هذه المرة أيضاً بالخجل! وخرج تنهّد الرجل البدين من النافذة وطفا نزولاً، بلطف، إلى أن التقطَته هبّة رياح شديدة، ورمَته فوق أسطح سموكتاون وأرسلَته إلى مياه نهر بوهاين السوداء. وتلاشى التنهّد في مساره وانخفض، تَلاه صوت شاحنات اللحم الحديدية في ترايس، وهي تعبر الطرقات المرصوفة مطقطقةً، ومُحدثةً قنوات في الطريق.

وفي حين كان أُول بوي مانيون وغانت برودريك يراقبان الشاحنات

تعبر السوق المقنطرة متوجّهةً إلى المسلخ، كانت النوبة الليليّة في أوجها. استندا إلى جدار آجرّي مبقّع عائد إلى مستودع قديم، وتكلّما بانزعاج في الضجيج. قال أُول بوي: «أرى أنّك تتكلّم بمرارة هذه الفترة يا غانت، إن سمحتَ لي بقول هذا».

فأجاب غانت: «هذا من طبعي يا بني».

فقال أُول بوي: «هلاّ توقّفت عن أداء دور الضحية!».

هزّ غانت كتفيه بمرارة، وقال: «هذا المكان هو السبب، أتعلم؟».

قرأ أُول بوي الطريقة التي أجال بها غانت نظره على اندفاع سواد النهر قلقاً. بدا مفتوناً. وليس بطريقة جيدة. تلفّظ أُول بوي ببضع كلماتٍ من الكلام المعسول المخملي: «لن يكون المكان سبباً لكل ويلاتك يا غانت. هل تفهمني؟ ولن يحلّ أيّ شيء محلّ ويلاتك أيضاً. لقد وضعت ثقة أكبر من اللازم في ... ».

قاطعه غانت قائلاً: «في حلم؛ هذا ما تقوله».

فقال أُول بوي: «كلّنا نحلم بالعودة إلى الشباب يا غانت! والرقص تحت نور القمر الشاحب والإمساك بمؤخرة شابة ممتلئة! وما يزيد من حلاوة الحلم، هو أنّه لن يتحقّق! لكن لا تُغرق نفسك في تلك الأشياء القديمة يا فتى. عليك أن تتخطّاها! ما أعنيه يا غانت هو أنّك واعدت الفتاة ثلاثة أسابيع لعينة! لكنّك تهدر وقتك بخمول في بورين مع فكرة محددة، وعيناك الصغيرتان المجنونتان تشتعلان في رأسك ...».

قال غانت: «رفضت أن تعرف يا أُول بوي».

فقال أُول بوي: «آه يا غانت، ما الذي توقّعتَه؟».

غانت: «لكنّ هذا ليس أقسى ما حدث».

فتساءل أُول بوي: «حقاً؟».

غانت: «أقسى ما حدث هو أنّني لم أرغب فيها».

أُول بوي: «لأنّ خمساً وعشرين سنةً لعينةً قد مرّت أيّها القرد المحدود الفكر! هناك أمور كثيرة تحدث، يا غانت. الحياة تحدث. لا تبقى الفتاة فتاةً في بوهاين لوقت طويل. وكما تعلم، يجب، من ثَمَّ، أن نقوم... بترتيبات مع أنفسنا، وإلاّ فكيف سنتحمّل الأمور التي قمنا بها والقرارات التي اتّخذناها؟ بوهاين اللعينة... انظر... هذه مدينة قاسية... إنها مكان...حسناً، حسناً، أعلم. ها أنا أكرّر الأمر اللعين عينه...».

غمز غانت عندئذٍ أُول بوي بمكر وقال: «هل تظنّني عدتُ بمحض إرادتي الخاصة؟».

عمّ صمت طويل، في حين فكّر أُول بوي في السؤال، وقال: «ما الذي تقوله لي، يا غانت؟».

غانت: «هل تظنّني حصلت على الإذن؟».

انتابت أُول بوي قشعريرة عندما أدرك ما قيل له فردّ: «ما تقوله...».

ابتعد غانت عن جدار المستودع، ومشى نحو الليل الغارق في ترايس وقال: «أقول إنّ لديّ عملاً يا بني». ثم نظر إليه بابتسامة شريرة وتابع: «ولكن لا تقلق سيد مانيون. ثمة أمور تشغلني... أنا أضع خطةً، هل تفهم؟».

ابتسم أُول بوي لفكرة وجود خطة، وكأنّ مدينة بوهاين المجنونة قابلة للتخطيط، ثم قال: «هل تريد إضحاكي يا غ؟ إذاً أخبرني عن خطتك».

راقبه وهو يبتعد: كبير الجسم، يمشي متباعد القدمين كملاكم قديم. ها هو ينعطف عند أحد أزقّة ترايس... مشيته، قوّته، كتفاه القرويتان تترجَّحان. ولكن حتى شخص، بدهاء غانت وشجاعته، لا يستطيع إخضاع بوهاين لرغباته. شعر أُول بوي بظلام وشيك.

الحزن عنوان النسيم الذي هبّ من النهر وأدفأ وجهه.

ورُغماً عنه أحدث إيقاعاً بأصابعه، فتناغمت طقطقة شاحنات اللحم مع إيقاع كاليبسو الذي تعالى من شارع دي فاليرا.

مجموعة فتيان يتمنّون الانضمام إلى عصابة فانسي، وهم في حوالى الرابعة عشرة، ثائرو الهرمونات، يعلو ذقونهم القليل من الشعر وتبدو عيونهم انتحارية، مع نعيق طموح متظاهر بالشجاعة في أصواتهم المتقطّعة، تمايلوا مع الإيقاع خارج حانة الكاليبسو، ورسموا دوائر في الهواء برؤوس أحذيتهم الباهظة. مرّوا بجانب عاهرة. دنا منها ثمانية منهم، وراحوا يراقبون، بخجل كبير، مقهى أليادوس في الزقاق.

قد ترون وولفي ستانرز يعبر هذه الأبواب، أو فاكر بورك مع كلبته الرائعة من نوع الراعي الألماني أنجلينا، أو الفتاة تشينغ القاتلة، نشوة النشوات، من حانة هو بي.

كانت هذه هي الأسماء الأسطورية على شفاه الشبان في بوهاين عندما حلّ ربيع العام ٢٠٥٤.

وهبطَت روح الليل الرطب في لحظة معيّنة على الفتية. وانتقل الشرّ (الوصمة) إليهم، وراحوا يردِّدون أغنيةً قديمةً جدّدوها مع جوقة موسيقى الدو ووب الأفريقية - الأميركية، وقد توافقت جيداً مع إيقاع الكاليبسو. وغنّوا مع بحّة في أصواتهم وحلاوةٍ، وهدوء مهدّد يرتسم على وجوههم الشابة.

نعم، بلغت الأغنية الأمّهات اللواتي كنّ ينشرن الغسيل على سطوح بيوت ترايس، فتوقّفنَ للحظة، وابتسمنَ حزناً، وغنّينَ الكلمات أيضاً بصوت أجشّ:

«... تحت قدميّ... بدأ ينهار... لن يموت حبّنا أبداً... من خرسانة وطين...»

ومع الأغنية سرى همس تغيير في هواء نيسان، وتغلغل عميقاً وطاف على ترايس وفي داخلها، فنبضَت الأزقّة القديمة حياةً مع الفصل الذي حلّ.

حرّكَت الكلاب خطومها من أروقة المباني السكنية إلى المداخل المدفّأة.

على أشجارِ المدينة الكثيرة التحمّل في ساحات ترايس، ظهر زهر غريب مخطَّط بالدخان، تفاوتت أزهاره بين الرمادي البحري وسواد السخام، واعتُبرت حالة الإزهار هذه تعويذةً في وجه شرورنا الكثيرة.

خلف المدينة، هدأ البحر بعد حدّة مدّ الربيع وجزره، وشدّ على مراسيَهُ بلطف. كانت إيقاعاته نبضاً خافتاً تحت جلد سكان بوهاين.

أومض الليل في باك ترايس بروعة داكنة. مرّ غانت في ترايس، وانعطف عند زقاق معيّن. وهناك، دخل حانةً. التقى في ظلّها، بحسب مخطط مسبق، الأخرق فاكر بورك الذي انحنى وقد اصطبغ بالخيانة فوق زجاجة من جعة راسلر.

أزاحها جانباً.

حدّق إلى الفتى وسأله: «هل فكّرتَ فيما قلتُه لك يا فتى؟».

أومأ فاكر برأسه.

تابع غانت: «يمكننا أن نقيم شراكةً طويلةً معاً، إذا كانت لديك أخبار لي».

فجاءت شهادة فاكر بورك، شهادة يهوذا، كموجة عاتية: «يجول الطويل حول أحواض السفن في الليل المتأخر. أعني أنه يتسلّل إلى الأرصفة بعد منتصف الليل، في أسوأ الأحوال. وآنذاك ستجده يسير في عمق ترايس، وهو يمشي بمفرده، هل تفهم؟ قد يكون متوجّهاً نحو مطعم تومي، هل تعرف المطعم يا سيّدي؟ يمكنني أن أرسم

لك خريطةً. لكن إذا كان مزاجه جيّداً، فقد يجرّ عظامه إلى الجهة الأخرى من جسر المشاة، ويتوقّف عند هو بي، مقهى عائلة تشينغ. قد يدخّن غليون حشيشة، لأن الطويل قد أدمن تدخين الحشيشة منذ أن هجرته زوجته الحولاء. ومقهى تشينغ معروف بجودة حشيشته. ولكن لا بد من أنك تعرف الفتاة تشينغ، جيني، الفتاة الآسيوية، التي تلعب لعبتها الخاصة، إذا سألتني رأيي. وقد أوقعَت صديقي وولفي بغرامها، مع أنّ وولفي لا يُغرم بهذه السهولة، لا سيّدي. وممّا أراه يا غانت، أن ما يجري في فانسي باك ترايس، أعني ما سيجري قريباً في عصابة فانسي، إذا سار كل شيء كما أتوقّع...».

الرحمة! فكّر غانت، فلا مجال لإسكات الفتى.

العباء

جال لوغان هارتنت في صباح يوم من شهر نيسان في وعورة ذهنه الضيّق الذي يركّز في شيء واحد فقط:

أين تنام الآن؟

كان ظل مرضه ظاهراً تحت كل بوصة من جلده. منذ أن هجرته، في الشتاء، أدرك مدى انتشار مرضه. هجرته عندما اختبرها، وربما هذا ما كان ينويه. ربما أراد أن تتحقّق أسوأ تخيّلاته.

أين تنام؟

عبَر جسر مشاة سموكتاون. مشى على واجهة بوهاين المائية. كان كئيباً بفعل الذكريات التي عاودته وأصابته بالغثيان في الصباح، وزاد في شعوره بالغثيان نعيق طيور النورس، وهدير المسلخ وطقطقة شاحنات اللحم. انعطف نحو شارع دي فاليرا. شعر بصخب حياة الشارع، كانت الوجوه مبهمة ومُخضرّةً في نظره المشوّه. توجّه نحو فندق بوهاين آرمز. لا يزال الناس في الشارع يخفضون عيونهم عند مروره، لكنّ علامة استفهام اقترنَت الآن بخوفهم. غيرته أضعفَته.

ترك خلفه ليلة أحلام محمومة وشبه أرق في مضجعه فوق مقهى هو بي شينغ أو-كاي. لم يعُد يصعد جُرف بوفيستا. لم يعُد بوسعه أن يواجه الجدران القديمة الوحيدة. أصبح يرسل جيني من حين إلى آخر كي تجلب المزيد من الملابس.

ارتدى لوغان:

بزّة بلون أخضر باهت، ضيّقةً، من القطن الربيعيّ الرقيق، وانتعل حذاءً بصلي اللون، منتفخاً في مقدّمه. ارتدى أيضاً قميصاً فضيّاً مع كشكش من الأمام، مفتوحاً عند العنق، ووشاحاً بنفسجياً لفّه حول عنقه، حيث بدا صورة شاحبة عن أناقة مهدورة بشكل رائع. كانت تسريحة شعره في هذا الموسم إلى الخلف، وقد تركه عند الجبين طويلاً قليلاً، كي يتدلّى بشكل غير مصفّف فوق قبّة سترته. وفضلاً عن كل ذلك، لم تُحلق لحيته منذ ثلاثة أيّام.

برأي الطويل، أن ألمه، على الأقل، قد زاد من وسامة نحوله. فقد امتلك كل حدّة الوسامة الناتجة من انفطار القلب.

بصق بلغماً أخضر في بالوعة الطريق، فقد أثّرت الغلايين في رئتيه. راودته صور إباحية عشوائياً، ظهرت فيها ماكو في استسلام ساخن مع مجموعة أشباح من العاشقين الشبّان، وهو يمشي ويتلذّذ بهذه الصور، كما يتلذّذ طرف اللسان بالخُرّاج.

شعر باحتراق في حلقه، بفراغ.

أين تنام؟

مرّ عبر بهو الفندق المظلّل الذي تنبعث منه رائحة القهوة الدافئة ويغمره هدوء ممتلئ بالغبار. وأدرك بالطبع أنّ مخبراً من مخبري السلطة كان يراقبه، وهو يجلس على أريكة قديمة من جلد مزأبر في الردهة. كانوا بانتظار سقوطه. انتفضت عينا المخبر المتحمّستان من خلف صحيفة الفينديكايتور المرفوعة بوضوح؛ فرمى لوغان المخبر الأحمق بقبلة من شفتيه الرقيقتين.

صعد. وراح يسمع طقطقة المصعد القديم الكئيبة وهديره وهو يرتفع على أسلاكه البالية؛ سمع لوغان صوت آلته تبطئ وتتوقّف بشكل حالم. فعبر بهدوء، وطرق طرقته المميّزة على باب الجناح الذي لا يحمل رقماً. فجاءت الإجابة: «ادخل إليّ أيّها القرد الطويل اللعين!».

كانت غيرلي مستندةً إلى دزينة وسائد في سرير شهر العسل. وكانت مفعمة بالحيويّة على ما يبدو: تورّد خدّاها بذلك اللون القرمزيّ الغريب. عندما كانت في الستين من العمر، قلِق من أن يعني هذا اللون موتَها الوشيك. أصبحَت في التسعين منذ وقت قصير. جلس لوغان على الكرسيّ المحاذي للسرير. راقبته، وتفرّست فيه، ثمّ نفخت خدّيها سخطاً، وقالت: «الليلة التي قضيتُها لا يستحقّها ولو كلب لعين!».

فسألها لوغان: «ليلة سيئة يا غيرل؟».

غزلَت عينيها مأساوياً في رأسها، وقالت: «نمتُ نوماً متقطّعاً طوال الليل. هل تعرف هذا الأرق؟ شعرتُ بأنّ أحلامي شبه حقيقية.

عند الرابعة فجراً، كنت مقتنعةً بأنّ يول برينر كان على غطاء السرير محاولاً التحرّش بي. قبل أن يصبح أصلع».

نفد صبر لوغان. فقد سمع هذا كلّه مرّات كثيرةً. نهض من جديد، وتوجّه نحو الستائر المخملية، وحرّكها قليلاً، وتحرّك على مفاصل أصابع قدميه. استند إلى قدم، ثم إلى أخرى، ونظر إلى سطوح البيوت في أزقّة ترايس.

هل هي في أعماق ترايس؟ المدينة كبيرة بما يكفي، ولكن بما يكفي لتضيع فيها. فقال: «لا تبدو الأمور جيدة هناك».

وأكملَت غيرلي: «ثمّ يظهر والدك، بكلّ مجده. ذلك البدين اللعين! إنّه آخِر سكير لعين أريد أن يقع نظري عليه. وهو على ذاك الجدار هناك، فوق مفتاح الضوء يعزف على بوقه الصغير. إنّه بحجم جرذ منتصب. إنها الأحلام! وبقيَت عيناي مفتوحتين، هل تفهمني؟

فقال لوغان: «أنا أتعرّض للضغط. زاد طموح غجر الرمال في سموكتاون. في الوقت عينه، يحضّر النوريون عملية غير نظيفة للانتقام».

أجابت غيرلي: «ولكن انتبه، كان والدك يستطيع جعل ذلك البوق يتكلّم».

لوغان: «لم أقابله قط. كل قزم أحول العينين وذي عضو بحجم حبّة الفستق يحمل خنجراً بالطبع، ويقيّم فُرَصه في فانسي الآنّ».

«حسناً، أنت تقارب الخمسين، أليس كذلك؟ ثم راودني

شعور حوالي الخامسة والنصف، على ما أظن. شعور بأنّني أُسحب إلى داخل حفرة في المستنقع. أنا! في الخارج، في نوثين اللعينة! تبتلعني كومة خثّ رطبة! أنا التي لم تغادر مدينة بوهاين منذ الزمن الضائع. أيها المجير! كم من ليالٍ مُقمِرة مرّت منذ أن رأيت سهل نوثين يا لوغ؟ لم أره منذ ضِعتَ أنت هناك في إحدى المرات، بحسب ما أعتقد».

كان فتى وحيداً حينها، وكان يسير في السهل على طول بورين. طاف خلسةً قرب أرض الغجر وقرى النجد والطرقات الداخلية والأكواخ المسكونة بالأشباح التي تداعت سطوحها. أنظر إليه في حقل قصب، وهو في العاشرة من العمر؛ ووجهه الشاحب فوق لون القصب الذهبيّ المشتعل تحت الشمس الغامرة، والقصب يطفو ببطء مع تمايل الرياح.

قال لوغان: «لم أتمكّن من العثور على ماكو، ولم أتلقَّ منها أي خبر».

«عليك ألّا تنزلق على عمود تعرٍّ في سموكتاون».

في نوثين، في طفولته، كان يصغي إلى المسنّين المتحلّقين حول نيران الغجر. وفي الحانات غير المرخّصة، كان يراقب تصرّفاتهم ومشيتهم. لا تُعلَّم هذه الأمور في المدرسة.

فقال: «إذا لم أجدها، فلا أعلم ما الذي سيجعلني أستمرّ».

أغلقت غيرلي قبضتها، وعضّت بضعف على مفاصل أصابعها المجتمعة ملتمسةً الصبر، وقالت: «وعند الساعة السابعة، أشرقت

الشمس ونعقت طيور النورس وطقطق قطار 'أل' المبكر، فاستيقظت من حلمي مجدداً».

جفل لوغان أمام بياض سماء الصباح فوق ترايس، وقال: «لا أعرف ما عليّ فعله يا غيرلي».

أجابت: «أولاً، كفّ عن تدخين غليون الحشيشة اللعين. في أيّ حال، استفقتُ من الحلم، وطفتُ من تلك النافذة نفسها التي تقف عندها بملامحك البلهاء اللعينة. رأيت أسطح البيوت. رأيت الصباح يتقدّم. رأيت الزحمة في سموكتاون ورجال الأعمال في إنديفر يرتشفون القهوة رافعين خناصرهم. ورأيت نسوة رايزس يضرمنَ نيرانهنّ في حلقات الأبراج السكنية. ورأيت طريقةً لحلّ كل المسائل، هل تفهمني؟».

استدار نحوها وابتسم. غالباً ما كانت غيرلي تكتشف مسارات جديدةً في رؤاها الطافية. عاد إلى الكرسيّ المحاذي للسرير وثنى عظامه فيه، وشبك ساقيه بشكل لائق. لم يكُن الرجل الأكثر رجولةً في العالم. مال إلى الأمام وأسند ذقنه إلى باطن يده وقال: «أخبريني أيّتها الساحرة العجوز».

مدّت يدها وصفعَت ركبته، وأحدثت الحركةُ نغمةً مرحةً. وبمرح، أبعد يدها عنه. لكنّ الصفع والصدّ، كما عرفهما، قد حملا معهما معنى أعمق: المواساة باللمس.

جمعية بوهاين
للأفلام القديمة والتاريخية

نادراً ما تأتيني نسوة جميلات. فزبائني هم عادةً من الرجال. تستطيع النسوة قمع مشاعرهنّ أكثر من الرجال بقليل. لكنّ الرجال يبلغون سنّاً يعجزون فيها عن كبت مشاعرهم. يجب أن يسترجعوا أيامَ صباهم المفعمة بالنزوات، والمدينة كما كانت آنذاك.

يقع متجري الصغير في باك ترايس. تجده في زقاق مسدود، على أحد جانبيه بائع أقمشة مسنّ غير متحضّر ترتجف يداه الممسكتان بشريط القياس؛ وعلى جانبه الآخر مطعم شواء تنبعث منه رائحة جلد الدجاج الحارّ المشويّ بدءاً من الساعة العاشرة صباحاً. متجري زجاجيّ الواجهة، لكنّ الزجاج مدخّن باللون الرماديّ الأكمد، وعلى الباب مجرد اسم صغير مكتوب على بطاقة بيضاء، وأحرف كلمتَي «أثرية وتاريخية» بالحبر الذهبيّ. لست بحاجة إلى الإعلان.

في صباح ذاك اليوم من نيسان، أعلن الجرس المثبّت بمفصلة الباب عن وصول زبون، فتقدّمتُ من خلف الستار متنهّداً، متوقّعاً أن يظهر أمامي الرجل الحزين العينين كالمعتاد، والمتدلّي الفم كالمعتاد، متقدّماً بطلبه المعتاد.

كان إذاً من الطبيعي أن ألتقط أنفاسي قليلاً أمام السيدة الحسناء التي ظهرت عند قرع الجرس. كانت طويلةً، إيبيريةً، خضراء العينين، ثمّة حوَل في إحدى عينيها. لكنّ الحَوَل أبرز، بطريقة ما، جاذبيتها. أما شفتاها فمتباعدتان قليلاً. أحنيتُ رأسي بصبر منتظراً كلماتها لكنّها تردّدت.

كانت ترتدي:

دثاراً ربيعياً خفيفاً من الحرير الأخضر الفستقيّ لفّته حول كتفيها، وقميصاً مقلّماً واسعاً عند العنق، وبنطلوناً من جلد الغزال ضيّقاً عند الورك، يصل إلى ربلتيها ويُبرز طول قامتها؛ وتنتعل خفّين خشبيين عاليَي الكعب، مستويَي النعل، زادا من طول كاحليها بشكل جميل.

بلمحة سريعة، لاحظت عند الكاحل الأيمن، وأنا دقيق الملاحظة لا يفوتني الكثير، وشماً صغيراً بالحبر الهنديّ، يصوّر خنجراً من بوهاين.

قالت: «كيف تجري العملية؟».

أومأتُ برأسي، وابتسمتُ، ورفعتُ بُوَيب المنضدة، وبحركة (كهنوتية، على ما أظن)، طلبتُ إليها الدخول.

دخلَت فباعدتُ بين الستائر وقدتُها إلى الغرفة الخلفية. تطغى هنا درجة من السواد شبيهة بلون معدن الميكا مع لمسةٍ من الفضّي، ولا تحوي الغرفة سوى شاشة العرضَ القابلة للفّ وكرسي طويل، وفي أحد الجوانب، ثمة فتحة تقود إلى حجرة جهاز العرض.

فسألتُها: «متى؟ تقريباً».

جلسَت على الكرسيّ، وأزالت الدثار، ولمعَ جلد كتفيها العاريتين في لون الظلام الفضيّ. شبكَت ساقيها، وسمّت الحقبة التي تتوق إليها.

ثمّ قالت بقلق: «هل يمكنك فعل هذا؟».

فأومأتُ وقلتُ: «تعود اللقطات إلى الثلاثينات».

انسحبتُ بتكتّم إلى حجرة العرض. نقرتُ عُلَب الأشرطة. نقلتُ إلى هذه الأشرطة ما أنقِذ من كاميرات الشوارع. سألتُها بصوت خافت عبر الفتحة الصغيرة: «شارع دي فاليرا؟ ترايس؟».

فقالت: «نعم ديف، ربما قرب مقهى أليادوس؟».

فهمستُ بعاطفة عميقة: «حيث يطلّ على في ترايس».

اخترتُ مجموعةً مفضّلةً عندي؛ شريطاً رائعاً. يُظهر تعرّج شارع ديف، في عمق نشاط الزمن الضائع وصخبه ووهجه، في الليل، مع اندفاع السير كما كان آنذاك، حيث السيارات الرياضية البيضاء الإطارات، سيّارات الشاباريل الضخمة، وسيارات سموكتاون السياحية، والحشود تتحرّك في كل اتجاه أمام الحانات غير المرخّصة، الرجال والنساء، وكان هذا عالماً مختلفاً ساطع الإضاءة.

تكون اللقطات صامتةً بالطبع عند إعادة عرضها في الغرفة الخلفية، فوضعتُ أسطوانةً قديمة من العام ١٩٧٨ على القرص الدوّار الذي أحتفظ به قرب جهاز العرض، وشغّلته ليرافق الصور. كانت موسيقى كاليبسو بطيئةً. شعرتُ بأنّها منحت المشاهد التي سارت معها حزناً جميلاً.

راقبتُ السيدة بتكتّم عبر الفتحة، وهي تنظر إلى الشاشة. كانت مسحورةً.

وبالرغم من أنني شاهدتُ هذا الشريط آلاف المرّات، فإنه قد جذبني كما في كل مرة. وقعتُ تحت سحر صخب المتردّدين على شارع ديف. قد يتغير كل شيء في بوهاين، لكن الناس يظلون كما كانوا، وسيبقون كذلك إلى الأبد:

تلك الرقصة المتمايلة.

تلك الأنوف العالية المتعجرفة.

تلك العدوانيّة.

الرؤية من سنّ الخمسين

ثمة قول مأثور قديم في بوهاين:

لا تبدأ الحكمة إلاّ عندما تؤمّن لنفسك سطحاً فوق رأسك.

عرف غانت بالطبع أنّ غجرياً عجوزاً يستطيع الهروب من طبيعته الهائمة بقدر ما يستطيع أن يسبق ظلّه. لكنّه كان مستعداً للمحاولة. فاق الوضع في بيغ نوثين خلال أشهر الشتاء طاقته على الاحتمال، إذ أصبحت بيغ نوثين شديدة الوحشة. شعر بأنّه يفقد حسّه بذاته مجدداً. تسلّل الظلام القديم من جديد عبر شقوق حياته. لذا، وبهدوء، استأجر غرفةً في باك ترايس. كانت باك ترايس مكاناً يستنشق فيه المدينة، ويكتشف الشعور الذي ينتابه من ذلك. كانت الغرفة عليّةَ بناء سكني؛ ربما بلغت مساحتها خمس عشرة قدماً بعشر أقدام مع سقف مائل. ضمت سريراً منفرداً وحوضاً وأرضيةً خشبية معوجّةً من الرطوبة تَصرّ وتغنّي متى زُرعت جيئةً وذهاباً. كان السرير أشبه بعشٍّ خربٍ يؤوي شخصاً يعاني من الأرق الشديد، وكان الحوض مكاناً للتبويل. أطلّت نافذة صغيرة في العليّة على ترايس: صعودها وهبوطها، نهوضها وتعثّرها، خطّ أفق بوهاين المنحرف، الأعمدة

الميتة والأسلاك الميتة، العصافير شبه الميتة وعيونها الخائفة، الزهور الداكنة الغريبة التي ترسم مسار سلالم النجاة المتزعزعة وفراغات الأزقّة الخضراء العميقة. الإحساس بأنه عالٍ فوق الأشياء منح غانت شعوراً بانقطاع النفس وبخطر الاقتراب من الهاوية.

طلب إلى جيني أن تكون مُخبرة له، لكنّ جيني لم تردّ عليه.

طلب إلى وولفي أن يكون مخبراً له، لكنّ وولفي لم يردّ عليه.

طلب إلى فاكر أن يكون مخبراً له، فسأله فاكر: «ما الفائدة من ذلك؟».

هزّ غانت رأسه لحماقة الفتى. أمل أن يغادر المنطقة الآن، وأن يتوجّه إلى بورين شرقاً، من دون النظر أبداً إلى الوراء، ولو لمرة واحدة.

هذا هو الخطأ، يا فتى: النظر إلى الوراء.

استمرّ النهار في الخارج؛ استمرّ العالم. نعقت طيور النورس بعدوانية: موآورك! وارتفعت أصوات الصباح من ترايس. جلبة السوق المقنطرة وتحضيراتها، الأمهّات المبتسمات المزقزقات. تعداد أسعار الخُضَر صياحاً، مساومة الأصوات المتصلّبة. الرجال المسنّون الجالسون على شُرفات منازلهم، مع المذياعات المشغّلة يدويّاً التي تبثّ أثير إذاعة «بوهاين فري راديو»، الغارقة دائماً في الماضي. أغاني الحب القديمة، إيقاعات الكاليبسو البطيئة التي أثارت ذكرى خطوات الرقص التي لا تزال متأصّلةً في عظام غانت، والتي كان يجرّبها من حين إلى آخر، ضاحكاً على أرضيّات الرقص المعوجّة.

مقاطع الأغاني جعلته يتحرّر. كانت الشوارع في الأسفل كنز ذكريات لغانت. كل قبلة، كل جريمة قتل، تذكّر كل شيء. كانت التفاصيل دقيقةً حاميةً أقرب إلى الهلوسة.

لم يقضيا معاً سوى ثلاثة أسابيع. الليلة التي هجرته فيها، تذكّرها في أعماقه. كان يستطيع استرجاعها متى شاء. ألوان الشارع الوحيد تلك الليلة؛ غثيان الهزيمة. عرف أين كانت وبرفقة مَن. اختبر مجدداً كل لحظة من تلك الليلة. رآها بوضوح تامّ. كانت الحقائق جليّةً:

كانت في الثامنة عشرة وكان لوغان أكثر هدوءاً وجاذبية.

هناك، في العليّة، عاد غانت إلى الحاضر، وثار مجدداً بحدّة الشباب. العاهرة التافهة اللعينة. في وهج الربيع، رأى الأمور بوضوح. خشي الآن من أن يكون قد عاد للانتقام من ماكو بقدر ما أراد الانتقام من لوغان. أرادها أن تُغرَم به من جديد، أن يهزّ خياراتها، أن يجعل عالَمها ينهار. ولكن في الليلة الأطول من فصل الشتاء، في بوفيستا، رأى أنّ الزمن سبقه في الانتقام من ماكو.

حدّق إلى الخارج فوق أسطح البيوت.

مدينة ضحلة لعينة.

راقب الشبان في صباح نيسان وهم يجولون في الأسفل. يمكنكم ملاحظة الدخلاء بكثير من السهولة: محدثي النعمة، المغامرين ذوي النظرات القاسية. بحسب التقليد القديم، يذهب هؤلاء في الربيع إلى مدينة بوهاين، ومعهم خناجرهم وغلايينهم وأحلامهم. انظر كيف يجرّبون مشيةً جديدة، فيها إتقان هزّ الوركين وإرخاء الكتفين

وانزلاق القدمين؛ فأنت لا تريد أن تبلغ عمق ترايس ماشياً كراعي بقر. ابتسم وعرف أنّه بطريقته الخاصة لا يزال يجرّب مشيةً ما. لا يزال يحاول أن يتعايش مع نفسه. في سن الخمسين! غ البائس، برودريك العُصابيّ، يا للعار المضحك لهذا العجوز الذي لا يكبُر.

ومع هذا، فقد بلغَته موسيقى الزمن الضائع بلا رحمة.

وضّب شبان فانسي سُتَرهم، وارتدوا قمصاناً بلا أكمام بألوان الباستيل الزاهية. عمِلَت محالّ دقّ الوشوم لساعات إضافية. كان بإمكانه سماع صرير إبَرِها: ززززت - زززينغ - زززينغزينغ؛ والنظر إلى الفتيات في الشارع بكعوبهنّ السميكة وسُتَر الفينيل المغلقة بزمام أماميّ والأزياء الملتصقة بأجسامهن التي يرتدينها وكأنّها مجرّد صُباغٍ نُثِر على أجسادهن. كلّهن يحاولنَ الاقتداء بجيني تشينغ. نعم، لهيَ مدينة سطحيّة لعينة.

الآن، تحرّك شيء بشكل حاسم، وظهرت بقعة جديدة من الوضوح، في حين راقب غانت الفتيات يعبرنَ، رأى انتقامه ينحرف إلى مسار أغنى.

رأى طريقةً بطيئة يجرح بها لوغان.

مكتبة t.me/ktabrwaya

المؤامرة في سموكتاون

انتزعت جيني تشينغ من جيب صدرها سيجاراً رفيعاً جديداً. قطعت طرفه وأشعلته، وأجفلها وهجه، كأنّ جرعة من نور الشمس القذر قد ملأت رصيف ميناء سموكتاون. نظرت إلى ترايس الواقعة ما وراء المياه الجميلة. استندت إلى مستودع القرفة القديم، الذي حُوّل مؤخراً إلى مطحنة؛ وأغمضت عينيها في ألم مديد. عضّت شفتها الجميلة. ثم أعادت فتح عينيها، وطَرَفت بهما بشدة، واستدارت إلى رئيس غجر الرمال الذي وقف مترهّلاً قربها. كان هذا لقاءً مدبّراً، وأشقّاؤه المجدّلو الشعر أقاموا الحراسة بحذر على مسافة قريبة. لامسوا بتوتر أغماد خناجرهم. ثبّتوا نظراتهم الحذرة على الفتاة الآسيوية. خُدِشَ حصى الرصيف القذر، خدشه كعب مسماري يعلو ستّ بوصات. امتصّت الصبر الذي قد يمنحها إياه القطران الأسود عبر رئتيها، وقالت:

«تابي، أريدك أن تسمع هذا الآن. لا أكترث للوحشية اللعينة التي تمارسونها هناك في التلال الرملية اللعينة، هل تفهمني؟ يمكنكم إنشاد لعناتكم الغجرية، ويمكنكم سلخ الأرانب البريّة ورميها في

قدور اليخنة، ويمكنكم بناء بوّاباتكم الحديدية ذات القضبان الستة في بيغ نوثين، ويمكنكم تعليق فَرَوات الرؤوس عليها، وطلاء رجالكم الأوغاد بالأزرق، وقراءة حركة النجوم اللعينة. يمكنكم تدريب كلابكم الهجينة ورشّ أقفاصها النتنة بخراطيم المياه. لا بأس! لأنّني غير مضطرّة إلى النظر إليكم حين تفعلون هذا. لكن اسمع أيّها البدين، أصغ جيداً، لأنّكم الآن في المدينة اللعينة، أليس كذلك؟ قلتُ انظر حولَك يا تابز! هذه مبانٍ، وهذه شوارع، وهؤلاء أناس لعينون! أحاول إبقاء المكان حول هذا المقهى متحضّراً بعض الشيء، هل تفهم ما أقوله لك؟ إذاً فلنبقِ كل شيء ملائماً للعمل أيّها البدين! هل تفهم؟».

كانت نظرة الفتاة القاتلة التي رمقته بها لتوقِف الشعر المحيط بخصيتي رجلٍ ضعيف، لكن برينس تابي ابتسم بهدوء. أخذ كيس الحشيشة المعلّق بعنقه، المصنوع بالأسلوب الغجريّ من جلد صَفَن الماعز؛ وأخرج منه بعض الحشيشة وفتّتها بمهارة في غليونه، وأغلق حزام كيس الحشيشة للحفاظ على مخزونه، وأشعل الحشيشة بقدّاحته الزيبّو، وهي القدّاحة التي يختارها على الدوام المدخنون في بوهاين. فما من قداحة أخرى تقدّم حمايةً كافيةً من هبّات الرياح المفاجئة. سحب من الغليون نفساً عميقاً. غمرَته غبطةٌ. نظر إلى جيني تشينغ بهدوء وقال: «أنا وأنا العين الناظرة يا عزيزتي جيني، هل تفهمين؟ لا أريد أن أقول سوى هذا المعتقد الوحيد والحقيقيّ يا فتاة. يجب ألاّ تخدم المرأةُ الرجلَ في مرحلة حيضها».

كانت العادة في سموكتاون تلك الأيّام أن يرسل برينس تابي

شبانه الحمقى ليتفقّدوا كل الملاهي الليلية والحانات الزهيدة وصالونات تدخين الحشيشة، ويسألوا النسوة اللواتي يعملن في هذه الأماكن عن دوراتهنّ الشهرية. اعتقد غجر الرمال أنّ النسوة غير نظيفات خلال الطمث.

فقال: هذا اعتقادنا يا جيني الصغيرة، أتفهمين؟».

بصقَت جيني تشينغ، المدافعة عن النساء، سيجارها الصغير، وصرخت: «أنت مجرّد غجريّ بدائيّ لعين! للناس خصوصيتهم اللعينة، هل تفهم؟».

أظهر تابي كفّيه، وقال: «قلتُ إنّ هذا اعتقاد غجر الرمال يا جين، واعتقادنا هو اعتقاد سموكتاون هذه الأيام، أتفهمين؟».

تركَت عبوسَه يلتهمه، وقالت: «سوف نرى. اذهب الآن إلى طرف تلال الرمال اللعينة واحترس، أتفهم؟».

ابتعدت عن جدار المطحنة. راقبها برينس تابي ترحل وغمرَته الغبطة من جديد بعد أن سحب من غليونه، وهزّ رأسه ببطء، تقديراً لطقطقة كعبها المسماري، ولتحريكها مؤخرتها الآسيوية العالية والقاسية.

شعرت جيني بنظراته، فأدارت رأسها إليه، وقالت: «لا تحلم حتّى بذلك».

كانت جيني ترتدي:

بنطلون تزلج أسود من النايلون، وقميصاً أسود تماماً من النايلون، مع حزام خنجر فضيّ؛ وتعتمر بمرح قبعةً مستديرة مسطّحة في قمّة رأسها.

توجّهت نحو مقهى هو بي شينغ أو-كاي. استعر نيسان وتلألأ العرق على جبينها. نارُ نظرته إلى مؤخرتها طبعت فكرةً في رأسها. في الربيع، كانت المدينة تتفتّح لكلّ العناصر كجرح. نزفت السماء نورها الساطع على جيني أثناء سيرها، وحامت الطيور المعتوهة ونعقت. لقد دبّرت الفتاة تشينغ مكيدة.

كانت مسألة التحقق من الحيض أقلّ ما أزعجها. لكنّ ما أثار غضبها أكثر هو قبول غجر الرمال بتديين الزبائن الدائمين. عدا عن عروضهم الخاصة على الجعة والحشيشة وأساليبهم المعيّنة في الفِسق والفجور. وكانوا أيضاً في رأي جيني تشينغ ينشرون كل أنواع الخرافات بين العاهرات وبائعي الحشيشة ولاعبي الخفّة. ثم كان هناك سلوكهم العام. كانوا يضاجعون النساء في الطرقات الجانبية، ويعزفون باستمرار على بوق ديد جيريدو المريع. وصلت جيني إلى هو بي. اندفعت عبر باب المقهى المترجّح. وجدت وولفي ستانرز جالساً إلى طاولة وغاطاً في طبق من الصبّيدج بالزنجبيل. رفع نظرةً حالمةً إليها.

فقالت: «كفّ عن نظرتك الغرامية، لديّ ما يكفي من المشكلات فوق رأسي، أتفهم؟».

فسألها: «ما بالك يا حبيبتي؟».

وضع عودَي الطعام جانباً، وأبعد الصحن. وبانتباه زوج هائم في الحب الأول، وهي حالة يصاب بها حتى الأقوياء من بني وولفي، تناول فنجاناً وسكب لها شاي الياسمين من إبريق بمقبض خيزراني.

فصرخَت: «غجر الرمال! لا يتمتّعون بأيّ رقيّ لعين يا وولف!».

تنهّد. فكّر للحظة، ثم طرَف عينه بمكر. وضع على الطاولة يداً صغيرةً منقوشة بالندوب: الكفّ إلى أسفل، والأصابع متباعدة؛ وبيده الأخرى، سحب خنجراً بطول أربع بوصات من جيب سترته الداخلي. غرز الخنجر أولاً ببطء في الطاولة الخشبية بين أصابعه المتباعدة، ثم غرزه بسرعة أكبر، ثم زاد في السرعة إلى أن أصبح الخنجر ضبابياً. نادراً ما أخفقت خِدَع الخناجر في إلهاء هذه الفتاة عن مشكلاتها، لكنّها اليوم، لم تُظهر سوى ابتسامة باهتة. وضعت يداً على يده لإيقاف الصورة الضبابية. تكلّمت بصوت خافت: «سيرسل الغجر سموكتاون مباشرةً إلى الجحيم اللعين يا وولف. وهل يُفترض بي أن أقف وأنظر إلى هؤلاء المجانين يعيثون فساداً بالمدينة؟».

أشعلت جيني سيجاراً صغيراً آخر. أطلقت دوائر دخانيةً من شفتيها البارزتين، ما أثار رغبةً في بنطلون وولفي الفضفاض. فأعاد الخنجر إلى جيبه الداخليّ بيد مرتجفة وقال: «أظنّ أنني أعرف ما ستقولينه لي الآن».

فقالت: «أين هو التغيير الذي نريد رؤيته؟».

أجاب: «عرفتُ أنّك ستقولين لي هذا».

كانت تكرّر هذا السؤال منذ بداية السنة. كل نهار وكل ليل. كانت تميل أكثر نحوه وتقرّب شفتيها من أذنه وتلعق رَوْم أذنه قليلاً، لمرة واحدة فقط، بدفع واحد من لسانها، ثم تهمس: «التغيير يا وولف، أين هو التغيير الذي ننتظره؟».

آنذاك، في فترة بعد الظهر في الهو بي، رأت الكثير من الوفاء في الفتى. لم يكن مستعدّاً للتحرك. واتّخذت جيني قراراً. بلا قائد، سيصبح غجر الرمال فوضويين ومنحطّين بشكل قاتل. ومن دون رَجُلها وولفي، ستقع عصابة فانسي بين أيدي من يريد الاستيلاء عليها. لن ينجو أحدهما، تابي أو وولفي، من التصادم. وإن حالفها الحظ، فقد يسقط كلاهما.

فقالت: «ما أريد أن أكلّمك عنه يا وولف...».

أبعدت نظرها عنه مُبديةً قسمات مأساويةً، وكأنّها لا تتحمّل الكلام لكثرة ما جرحها الأمر.

فسألها: «ما الأمر يا فتاة؟».

فقالت: «تابي ذاك، لا يبدي لي أيّ احترام لعين».

فقال: «ماذا تعنين يا جين؟».

هزّت إبهاماً فوق كتفها للإشارة إلى سموكتاون وقالت: «ألم يتجرّأ على ضربي منذ أقلّ من خمس دقائق؟».

سرى غضب قاتل فوراً في جسم وولفي ستانرز الصغير، فاضطرّ إلى النهوض. أصبح لون وجهه المنمّش قرمزيّاً. أمسك بطاولة الحجرة بأصابعه الصغيرة المندّبة، وقال: «ما... الذي... فعله؟».

ذراع القانون

أنظر إلى البسمة المتكلّفة على وجه شرطيّ بوهاين المكسور الأنف. أنظر إلى ذراعيه الكبيرتين البدينتين مكتّفتين على منضدة مركز الشرطة المرتفعة، وموشومتين برموز أخوية الشرطة:

عصا مع رأس أفعى.
سلسلة ملفوفة.
عملة يهوذا.

كانت زجاجة جعة «فينكس» على المنضدة، فرفعها وامتصّ منها بقوّة، وتجشّأ سحابة من رائحة الكباب (بلحم الضأن)، وأعاد الزجاجة إلى المنضدة، ومسح فمه ولعق شفتيه بسعادة، وخرج من فمه لسان صغير كلسان السحلية دغدغ الهواء؛ يمكن أن ترى طرفه المستطلع.

وقف لوغان هارتنت إلى جهة المنضدة الأخرى، وجفل بخفية، إذ لم تكن أمعاؤه مرتاحةً جرّاء تدخين الحشيشة، في حين كانت أنفاس الشرطيّ تعبق في المكان ناشرة رائحة اللحم.

فقال: «هناك عفن لعين في داخلك يا صديقي. أظنّ أنك لن تعيش طويلاً».

ابتسم الشرطيّ ابتسامةً أكثر تكلّفاً، فبدت أضلع اللعين المتعجرفة متجعّدةً تحت وهج مصابيح مركز الشرطة البيضاء.

على جدران المركز بقع دم جفّت منذ عقود. طُلِيَت الجدران بالأخضر الرسمي، وبدت بقع الدم القديمة كقطرات حبر داكنة على الأخضر. مدّ الشرطيّ يده تحت مكتبه، وجلب زجاجة ويسكي محليةً؛ عرضها على لوغان. هزّ لوغان رأسه. لن يجلب العار لحلقه بهذا البول البرتقاليّ اللون. فهزّ الشرطيّ البدين رأسه بأدب، دلالة على أنه لم يشعر بالإهانة، وأطلق نفَساً رطباً كريهاً آخر، وقال بصوت خافت: «لمَ عدتَ إلى هنا سيد هارتنت؟».

رسم لوغان للشرطي البدين شبه ابتسامة، وقال: «أظنّ أن شخصاً أحتاج إلى رؤيته قد يكون لديك».

كان الطويل ينفّذ الخطة الأحدث من كتاب حيل غيرلي. الهدف: تهدئة النوريين بشكلٍ فوري. في فصل الربيع الرطب يصبح النوريون قلقين ومجروحين ومكتئبين، وكان لا بدّ من حيلة ما.

أكّد الشرطيّ قائلاً: «نعم لقد جلبناها، لكنّ هذه لعبة خطيرة في رايزس، أتفهم؟ فنحن نتكلّم عن شخص من عائلة كيوساك».

مرّر لوغان لفّة أوراق نقدية للشرطيّ باشمئزاز، فابتسم البدين بمكر، وأخذ اللفّة ورفعها إلى أنفه المنتفخ وشمّها، ثم قام عن كرسيّه وقال: «بالطبع الجزار السيد ريد هو من قام بالعمل. طلب إلينا أن نقول لك إنّه يردّ معروفك بهذه الطريقة».

فقال لوغان: «أيّاً يكن ما يعنيه ذلك».

تناول الشرطي حلقة مفاتيح معلّقةً على الجدار بأصابعه الملطّخة بالمخدّرات. راح يهزّ المفاتيح، وهو يسير في رواق رطب تفوح منه رائحة البول. أزّت الأنوار في السقف، وانطفأت، وعادت لوقت وجيز، ثم انطفأت من جديد. تردَّدت في الرواق أصوات أرواح قديمة. أغمض لوغان عينيه، وهو يلحق بالشرطي البدين. كان لا يزال واهناً من غليون حشيشة دخّنه في مقهى هو بي. وسمع صياح أفراد حركة «الفينيان» المتوفّين منذ وقت بعيد يتسرّب عبر الجدران. ثمة أشباحٌ كثيرة في هذا المكان. ثمة ترددات غامضة في باك ترايس لا تسمعها سوى الكلاب والأمهق.

نزل مع الشرطي البدين إلى الزنازين الكائنة في مؤخر مركز الشرطة.

أدرج الشرطي مفتاحاً من الحلقة في قفل إحدى الزنازين، فطقطق القفل وفُتح، فنقر الشرطيّ مفتاح كهرباء في الخارج. وهما يدخلان، أضاء مصباح خافت هيئة فتاةٍ شابةٍ جالسةٍ على فراش قشّ. طَرَف الشرطي بعينه للوغان وجثم قرب الفتاة. أمسك الشرطي بمعصميها وأدار راحتيها ليُري لوغان آثار الجروح الحديثة التي شُقّت فيهما ببراعة:

ندبتان على شكل نَفَل(*).

هزّ لوغان رأسه ألماً. كانت والدته عجوزاً شمطاء مريضة، لا

(*) جنس أعشابٍ معمّرة من الفصيلة القرنية.

يستطيع حتى هو تقبّل مدى اضطرابها وانحرافها. نهض الشرطي، وغادر الزنزانة ضاحكاً.

نظرت الفتاة إليه. كانت رابطة الجأش ككلّ فتيات النوريّين لكنّها عجزت عن إخفاء الخوف في صوتها. فقالت: «سأفعل ما تريدني أن أفعله أيّها الأمهق...».

قرفص لوغان ليلاقي الفتاة بنظرة مستوية مطمئنة، وقال: «أعلم هذا يا عزيزتي. ستقومين بعمل ممتاز لأجلي».

بكت بالرغم عنها.

فقال: «اهدأي يا عزيزتي. آمل ألاّ يكون الشرطي البدين اللعين قد تحرّش بكِ... هل تألّمتِ يا طفلة مع الجزار؟».

نظرت إلى راحتيّ يديها، وهزّت كتفيها. لا تتعدّى الثانية عشرة من العمر، مع وجه نوري أبيّ، لكن مع شعور بالخشية بالنظر إلى قربه منها. في بوهاين، تصنع اسماً لك وتدعه يقوم بالباقي.

فقال: «يجب أن نجعل هذه الخطة تنجح يا فتاة كيوس الصغيرة. فأنتِ مفقودة منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، أليس كذلك؟».

فأجابت: «نعم».

فأكمل: «جذبَتكِ بيغ نوثين. شعرتِ بسحر غريب في سهول المستنقعات. جلبكِ أمر ما إلى هاي بورين، وهو نجم معيّن في السماء، نجم شديد السطوع. ثم، على ربوة مرتفعة... هل تعرفين ما معنى ربوة يا فتاة كيوس الصغيرة؟».

فقالت: «لا».

فتنهّد لوغان وقال: «الربوة نوعٍ من التلال الصغيرة. هناك، في الليل، على تلك الربوة، وجدتِ تيساً، تعرفين ما التيس...».

أدار راحة يده وأراها على معصمه وشماً مُتقَناً لقرنَي تيسٍ، هو رمز فانسي ترايس.

فقالت: «أعرف هذا بالتأكيد أيّها الأمهق».

فأكمل: «وكلّمَكِ التيس يا صغيرة. لكن حين كان يكلّمكِ، كنت تسمعين كلام مجيرنا الحبيب، أتفهمين؟».

فاتّسعت عينا فتاة كيوس الصغيرة، وسألت: «اتّخذ المجير شكل تيسٍ أيها الأمهق؟».

فأطرق لوغان احتراماً، وقال: «بالفعل يا فتاة. والآن، طبعَت قُدسية المجير السرمديّة علامتها فيكِ. أتفهمين؟».

فغرت فاها وجحظت عينيها وعرضَت العلامتين المقدّستين المزيّفتين. لقد أحبّ لوغان هذه الطفلة.

أضاف: «أصغي جيداً الآن، لأنّ المجير أعطاكِ رسالةً مميزةً كي تبشّري بها شعبك».

فسألت: «ما هي يا أمهق؟».

مال إليها، وهمس في أذنها للحظة، وأفهمها الرسالة. وأعلمها أيضاً ما سوف يجري إذا لم تنفّذ تعليماته بدقّة. ثم نهض وأخرج الفتاة من الزنزانة. كان الشرطي البدين مستنداً إلى جدار الرواق، وابتسم كعَمّ مُحبّ. أشار إلى باب خلفيّ في آخر الرواق، فأخذ لوغان الفتاة

إلى الباب، وقبّل أطراف أصابعه المجموعة ووضع القبلة بلطف، بلطف فائق، على خدّها. ثمّ مرّر أطراف أصابعه على رقّة وبر ذراعها الناعم. كانت اللمسة صاعقةً، أغمض عينيه؛ شعر بالشباب، شعر بالحيوية، شعر بذكرى عاطفة ماكو عندما كانت شابةً. امتلأت عيناه بالدموع واهتزّت أمعاؤه. صرخ حلقه طالباً غليون الحشيشة. أفلت الفتاة في الشوارع التي غمرها الغسق. شعر بأن طريقة تواصله كانت لائقة. سار على طول الرواق من جديد؛ فابتسم الشرطي البدين، وقال: «هل سيظهر مجيرنا قريباً يا سيد هارتنت؟».

فأجاب لوغان: «مجيرنا الحبيب في طريق العودة».

عاد في المساء، ومشى في ظلال باك ترايس. تمثّل رأي غيرلي المتبصّر في الآتي: يجب تعزيز السذاجة في نورث سايد رايزس واستغلالها. قدّر الطويل دهاءها، وهو يمشي في ترايس التي بدأت تلتفّ بالظلام.

كانت باك ترايس دماغ المدينة، وشعر بالأزقّة تنبض أشبه بخفقان شريانيّ.

تمايل له كلب يبول خلف سياج.

صفّر للكلب.

فنبح هذا بشدّة رافعاً أنفه إلى النجوم.

كل أيامنا الماضية

كان بيغ دوم غليسون، مقتفي أخبار البدين، بالتزار ماري غرايمز، ومصوّره الأحدب، يهتمّان بعمل رسميّ لصحيفة الفينديكايتور في ترايس بوهاين. إنه غسق مساء نيسان الحارّ عينه، وطبقة برتقالية رقيقة في السماء تطفو فوق الأسطح. كان دوم يتنفّس بصخب وبمزاج سيئ، وهو يلحق بمصوّره في شبكة من الأزقّة والمنعطفات مثيرة للدوار.

فقال: «ارحمني يا بالت من فضلك! لم أعُد شابّاً!».

أجاب غرايمز: «أنت في الثامنة والثلاثين سيد غليسون».

عبرا الساحات الرطبة، وغرقا في عمق المتاهة القديمة المريعة، ووصلا في النهاية إلى مبنى سكنيّ في ظلال السوق المقنطرة. أخرج دوم من جيب الساعة في سترته الخردلية اللون ورقةً خُربش عليها العنوان، وأراها لبالتزار. نقَل الأحدب نظره من الورقة إلى المبنى ثم إلى الورقة فالمبنى، للتحقق للمرة الثالثة؛ وهزّ برأسه وقال: «هذا هو المكان سيد غليسون».

تماسك دوم، وأخذ بضعة أنفاس عميقة، ودفع باب المبنى

الثقيل وقال: «أيّها المجير المتألّم على الصليب! لا بدّ أن قلبك مضطرب، أليس كذلك يا بالت؟».

هزّ بالتزار كتفيه، وبتجهّم، جرّ كاميرته اللايكا البالغة القِدم عبر الباب، وتجاوز رئيسه وبدأ يصعد الدرج أولاً، وقال: «يعرف أنّنا قادمان، هيا بنا».

صعدا طبقةً من الأدراج الحجرية القديمة، ثم طبقةً أخرى، وهما ينعطفان كل مرة ويصعدان مجدداً. كان المبنى صامتاً صمت الموت، فيه خوف يُلمس لمس اليد، وبدا بوضوح أن بيغ دوم غير مرتاح. ارتجفت شفته السفلى كطفل؛ لكنّه استعدّ للقيام بمهمّته. فبانتظاره سبق صحفيّ.

«كل أيامنا الماضية» العمود الأكثر شعبيةً والأرفع مقاماً في بوهاين فينديكايتور. كان يحرّره دومينيك بنفسه في نثر شفّاف وسوداويّ، مصدره الذكريات وقصص زمن بوهاين الضائع. وكان يصدر، بطول سبع وعشرين بوصةً. وبقياس خط تسعة على ثلاثة أعمدة، في عدد الخميس المسائي. وكان الناس يصطفّون لشراء هذا العدد باكراً خارج مكتب الصحيفة، فيمتدّ الطابور على طول شوارع نيو تاون. كان دوم متأكّداً من أنّ عمود هذا الأسبوع سيجذب رقماً قياسياً من القرّاء.

قال بالت لاهثاً، وهو يصعد الدرج: «ما يحيّرني سيد غليسون هو سبب موافقته على المقابلة الآن».

ارتاح دوم للحظة عند مطلع الدرج. ابتسم؛ تعرّق. وقال:

«استعمَل أُول بوي قدرته على الإقناع. ما نحاول فعله يا بالت هو إلهاء المدينة لئلا تأكل نفسها وهي حيّة».

فسأل بالت: «لكن ما الذي يستفيد منه هو؟».

هزّ دوم كتفيه، وهو يستأنف صعوده من جديد، وقال: «هكذا يُعلِم فريقاً معيّناً أنّه قد عاد إلى المدينة، أليس كذلك؟ وأنّه لا يخشى إظهار أنيابه».

ظهر غانت برودريك على الفسحة في أعلى المجموعة الأخيرة من الأدراج. اضطرّ إلى الانحناء قليلاً بسبب زاوية السقف المنخفضة. نظر إلى الصاعدَين من الأسفل بوجه خالٍ من أي تعبير، وأومأ بكسل للإشارة إلى باب العليّة خلفه، ثم استدار ودخل.

همس دوم وهو يصعد الدرجات الأخيرة: «الرحمة! يبدو أنه لا يزال رجلاً قويّاً، أليس كذلك يا بالت؟».

هزّ بالتزار رأسه متجهّماً، ووافق قائلاً: «إنه كتلة ضخمة».

دخلا العليّة البسيطة الخالية من أي زخرف. جلس غانت على السرير، وتفرّس فيهما بصمت، ودلّك بيده الضخمة يده الأخرى. رفع دوم قبّعته المستديرة المسطّحة تحيّةً، وقال: «سيد غانت...».

أجاب غانت: «لا داعي لكلمة سيّد. غانت فقط، اتّفقنا؟».

تابع دوم: «نعم سيدي. غانت... سيدي».

تفرّس غانت في الأحدب الذي كان يحضّر كاميرته ويركّب مصباحها الومضي. نظر غانت إلى النافذة في سقف العليّة المائل

وقال: «لا يزال هناك نور برتقالي مصفرّ جميل، ولن تكون في حاجة إلى ذلك المصباح، على الأرجح».

نظر بالتزار إلى نور المساء، وهزّ برأسه قائلاً: «أجل، قد يكون هذا جيداً يا غانت...».

أجاب غانت: «سيكون رائعاً. ولا تكن خجولاً. يمكنك أن تقترب منّي».

أدار غانت فكّه المربّع ببراعة نحو النور البرتقالي المصفرّ المنسكب في العليّة، وتصاعد الغبار حوله في الجوّ. جثم الأحدب قربه، وصوّر الوغد في وضعيّة شاعرية، وهو يرسم على محيّاه ملامح صقيلة داكنة مؤثّرة يصعب سبر أغوارها.

أصدر محرك لايكا طقطقةً وهديراً:

اللقطة الأساسية... ممتازة... صورة لملفّه... وقارٌ رجوليّ بالأسود والأبيض الشبحي.

في هذا الوقت، جلس دوم غليسون على كرسيّ العليّة القاسي المسنَد الوحيد، ولعق طرف قلمه بتوتّر، وفتح صفحةً جديدةً في دفتره التي ضُمّت أوراقُه بمعدنٍ لولبي. بدأ الكلام بصوت متوتّر أجشّ: «سيد غانت... غانت... أقمار كثيرة أطلت وغابت منذ أن رحلت عن شوارع مدينة بوهاين يا سيدي. وما يحيّرني هو ...».

أجاب غانت متسائلاً: «هل خمس وعشرون سنةً وقت طويل إلى هذا الحدّ؟».

دوم: «حسناً، نحن لا نتكلّم عن الأمس أو عن اليوم، يا سيّدي».

فقال غانت مبتسماً بوسامة: «صحيح. لسنا نتكلّم عن ذلك».

تكلّما لوقت طويل عن زمن بوهاين الضائع. تكلّما عن شعوره الرائع حيال بوهاين الذي جذبه إليها من جديد. تكلّما عمّن قضوا، وكيف أن أرواحهم لا تزال موجودة يحملها هواء المدينة على الدوام (أو ربما تتهادى في البعيد، في سهل المستنقعات). شعر دوم غليسون بأنّ غانت يتكلّم بشاعرية، نعم، لكن بحذر أيضاً؛ وبعد مرور بعض الوقت، تحلّى بالشجاعة لطرح سؤال دسم: «أفترض أنّ ما يتساءل عنه الكثيرون يا غانت هو... آه...حسناً سيّدي، السنوات الخمس والعشرون الماضية... أين كنتَ بحقّ الجحيم يا غانت؟».

بدأ آخِر شعاع من نور المساء بالتلاشي. ابتسم غانت بسخرية للصحافيّ البدين ولشريكه الأحدب الذي جلس شابكاً ساقيه على الأرض، وقال: «في الجانب الآخر».

ثمّ هزّ إبهامه ندماً نحو الشرق، وقال: «عبرتُ الماء».

اعترف غانت أنّه هام لسنوات يائسة في سبخات إنكلترا الكئيبة. عمِل في مدن الشمال القاتمة لحساب كلّ شخص يملك ثمن عملية طعن بالخنجر. أصبح أكبر سنّاً. أصبح أكثر حزناً. أصبح أكثر بدانة. توقّف عن ذلك العمل القاسي الذي ترك ندوبه فيه. عمِل في القوارب النهرية لفترة...

تدخّل غليسون قائلاً: «أنت مثل الكثير من مهاجري بوهاين الذين سبقوك يا سيدي».

... عمِل على متن التاين والمرزي والكلايد. قضى دهوراً قاسية ينظر إلى الرياح التي يلوّنها الدخان، والتي تعصف دائماً على تلك الأنهر الميتة. رأى أعمال الشغب في ويغان سنة ٢٠٣٦، وشهد صعود بورثويك إلى السُلطة في مدينة ماكليسفيلد، وكان شاهداً على الأيام الأخيرة الدامية لفانسي هامبرسايد التابعة لدالتون.

صفّر بالت غرايمز بصوت خافت، وقال: «كانت هذه مجزرةً لا تصدّق!».

قال إنّه قضى لياليَ طويلةً يمشي في الشوارع الفرعية في مدن غريبة. ساعات كريهة في الضباب الشيطاني. مشى غانت في كل شارع من كل مدينة، ولم تكن الشوارع شوارعه، وعندما لا تكون الشوارع شوارعك، لا تعطيك مجالاً للأحلام. أقرّ بأنّه رأى أكثر من الضروري. وألمح إلى أنّه وجد العزاء، لبعض الوقت، عند مجيرنا الحبيب.

فقال بيغ دوم بلطف: «يحدث هذا مع الكثيرين عندما يهاجرون».

ردّ غانت: «تخلّيتُ عن العنف». وابتسم في الظلام الذي تسرّب إلى العليّة.

قال إنّه بشّر بكلمة المجير في الأراضي الوسطى الغربية لبعض الوقت. وجد جماعة من الضائعين والعاشقين والموجوعين. تكلّم ضدّ عنف الحياة. تكلّم ضدّ الشهوات. تكلّم ضدّ الكذب. نعم، ها هو واقف على صندوق جعة في وولفرهامبتون المأساوية وفي عينيه دموع، وهو ينادي بحبّ مجيرنا الحبيب.

فقال بيغ دوم: «الرجل الذي يتكلّم بلهجة واضحة ينجح بسهولة في التبشير في الخارج».

فضحك غانت قائلاً: «لكنّني لم أدُم في هذا العمل أيضاً».

دوم: «حقّاً؟».

غانت: «أزعجتُ حفنة من الفتيات الشابات فطُرِدتُ من بروم».

غطّت الأشباح سطوح منازل ترايس، حين هبط ظل الليل؛ فسكنَت ذكريات مُرّة في فكر غانت. مذاق ماكو، في شبابها، قد جعله يختبر رغبة نهمة في الفتيات اللواتي في تلك السن. لم تكن هذه أقلّ جرائمها بحقّه.

قال غانت: «كنتُ على عجلة الحياة الدوّارة الكبرى». فدوّن بيغ دوم هذا بتأثر.

فتابع غانت: «كلّما تقهقر الماضي، ازداد وضوحه في ذهني».

شعر غرايمز الأحدب أنّه في حضرة فيلسوف.

فقال غانت: «أحسست بحنين إلى الزمن الضائع».

فسأله بيغ دوم مُبدياً مهارته: «وهل وجدتَه مكاناً خطيراً لقضاء الوقت؟».

أجاب غانت: «أجل. إنّه مكان أكثر عذوبة من المتوقع».

راح بيغ دوم يفكّر في عنوان مقاله:

الزمن الضائع أكثر عذوبة من المتوقع

في الأسفل، استعرَت الأزقّة حياةً في الليل الزيتيّ الأجواء، وانبعث شعور بالشجن، فصمَت الرجال وأصغوا.

تنهّد دوم قائلاً: «أشياء كثيرة تغيّرت هنا بالتأكيد».

فقال بالت بنبرة كئيبة: «كلّ شيء يتغيّر».

فابتسم غانت، وقال: «ليس كلّ تغيير سيّئاً».

فسأل دوم: «حقاً؟».

غانت: «أعني أنّني أرى أولئك الفتيات الشابات يعملن في ترايس الآن. أتريد الحقّ؟».

ردّ دوم مهتماً: «نعم».

فتابع غانت: «أولئك الفتيات مستقبل بوهاين».

تألّقت عَينا غانت ببريق غريب.

فسأله دوم: «هل تظنّ ذلك سيد برودريك؟».

«وسيحدث ذلك قريباً جداً، هل تفهمني؟ التغيير مفيد أحياناً لبوهاين».

تبادل دوم ومصوّره النظرات بصمت، ثم قال دوم: «لكنّني أتساءل يا غانت».

فسأله غانت: «عمَّ؟».

أجاب دوم: «عن سبب عودتك الآن».

اكتفى غانت بالابتسام، ثم بدأ يتكلّم بلطف عن الزمن الضائع، عن الجزارين والخبّازين القدامى الذين كانت لهم فيما مضى محالّ في شارع دي فاليرا، عن كل الحانات غير المرخّصة وردهات تدخين الحشيشة، عن حياة الشارع مثلما كانت في الماضي. استمع دوم غليسون العاطفيّ إلى هذا الكلام بنهم. تذكّر بيغ دوم كلاب شارع ديف وقططه. الكلام عن بوهاين القديمة يفرح دوم مهما طال الحديث ومهما مضى من وقت. هناك، على الكرسيّ القاسي، راح يترجّح إلى الأمام وإلى الخلف، بإيقاع موزون، وهو يدوّن ملاحظات من ذكريات غانت المؤثّرة. وجرفت غبطة الذكريات غرايمز الأحدب أيضاً. آه، الشباب؛ كان بالت غرايمز عابثاً في شبابه؛ لم تمنعه الحدبة من الحصول على حصّته من النساء (فنساء بوهاين كنّ يملن دائماً إلى الغرابة). قاطع الرجال الثلاثة كلام بعضهم بعضاً، وحضّ أحدهم الآخر، ورموا بتعليقات ذكية؛ فعندما تثور الذكريات في باك ترايس، في الليل، تقوم مقام موسيقى جاز حرّة مخدّرة.

وولفي مشغول البال

كان وولفي ستانرز يتجوّل على إيقاع سموكتاون.

كان وولفي ستانرز يخطّط للانتقام.

كان وولفي ستانرز متحمّساً لسفك دم برينس تابي «العين الناظرة».

إن تعرضتم لأحد أصدقائه، في هذه المدينة، فمن المستحسن أن تتحضّروا للقاء خالقكم.

لكن ثمة صعوبة في المخطط. إن غجر الرمال يبقون أرضهم وقائدهم تحت الحراسة المشدّدة. وسوف يحتاج وولفي إلى مساعدة ليكتسب مقدرة الهجوم على رئيس الغجر المجدّل الشعر في حصنه عند طرف التلال الرملية.

وجّه جزمته، جزمة رعاة البقر، نحو ماخور إد لانيهان الغجري الملقب «بذي جيبو».

الوقتُ عصراً، نعم، في لهب نيسان. وهذا من أكثر الأوقات هدوءاً في سموكتاون. ولكن كان لا يزال هناك، مع ذلك، مجموعة

من المنحطّين المنتشرين في الأنحاء، المدمنين الذين يحقنون أنفسهم بالمخدّرات، ومخاشني النساء، ومدخّني الحشيشة. وبينما كان وولفي يستعرض الشوارع المرصوفة، تنفّس بعمق لتنشّق مذاقها: كانت رائحة سموكتاون رائحة احتراق مواد كيميائية، ومجارٍ غير معالَجة، والمعكرونة بالفلفل الحلو. وثمة روائح خفيفة في الخلفية: خنازير، جعة، ثيران، كزبرة. الجوّ بالإجمال نَهريّ. وبينما كان وولفي يسير على رصيف الميناء، اختلط في ذهنه الشّعرُ بالرغبات العنيفة. العنف المحتمل هو الذي حرّك الشّعر في ذهن وولفي.

اقترب من بيت قديم ضيّق من طبقتين، وهو أحد بيوت سموكتاون المتّكئة بعضها على بعض، وطرق بابه. وسرعان ما فتحت القوّادة المسنّة التي تدير المكان الباب، وقالت: «سيد ستانرز».

سيّد! تثيره مناداته بالسيد بقدر ما تثيره تقريباً قبلة جيني تشينغ بنكهة السيجار.

سألها: «هل 'الغجري' هنا؟».

لم ينظر في عينَي القوّادة. في الحقيقة، كان وولفي يشعر سرّاً بالرغبة في السيدات المسنات الحسناوات، وكان يخجل منهنّ.

«السيد لانيهان في الأعلى مع الفتيات».

طار صواب إدموند لانيهان الغجري منذ وصول غجر الرمال إلى سموكتاون. صحيح أنه غجريّ وفخور بذلك، لكنّ تطفّل جنس غجر الرمال أفزعه. كان إد لانيهان القوّاد الأقدم في المدينة، وهو يتاجر بالعاهرات منذ الزمن الضائع. لا أحد يعرف سموكتاون بقدر

ما يعرفها 'الغجري' لانيهان. عرف 'الغجري' الأزقّة الخلفية لشوارع الدعارة، والفروق البسيطة في اللهجات المحلّية ومواقع الممرات السريّة. انتظر مبتسماً، في الوقت الذي وصل فيه وولفي إلى أعلى درج بيت الدعارة. خُصّصت الطبقة العليا بكاملها لحجيرات تفصل بينها «بارافانات»؛ وعلى الأرض فرش من قش الأسل كأسِرّة. استغلّت الفتيات الحاضرات هذه الساعة من هدوء العصر لإزالة وبر أجسامهنّ بالشمع. كنّ يطلقن صرخات طويلة حادّة وهن يفعلن ذلك. فنادهنّ «الغجريّ»: «اللعنة!هلاّ فعلتنَّ ذلك بصمت!».

أمسك بيد وولفي. وتنهّد. ثم قال: «لو لم أكن أهتمّ بكل التفاصيل، لأصبحت أملك قطيعاً من الغوريلّات، يا وولف».

فأجاب وولفي: «ليست إدارة العاهرات بالحياة السهلة يا جيب».

ضربا قبضتيهما الواحدة بالأخرى، وجلسا للتدخين قرب نافذة بإطارين منزلقين مُطلّة على حركة سموكتاون. اتّسعت عينا «الغجري» الضبابيتان وهو يُفسّر للفتى بتفاصيل دقيقة نياته بشأن برينس تابي، «العين الناظرة».

أطلق إد لانيهان صفرة خفيضة، قائلاً: «هذه خطة عمل جذرية يا وولف، جذريّة حقاً. وعلى الرغم من أنني أوافق عليها، من الناحية التقنية، فإن التنفيذ لن يكون مضموناً، هل تفهم؟ فثمة حراسة مشددة هناك».

«أنت تعرف أطراف التلال يا سيد لانيهان».

«حتماً؛ لكن...».

«يمكنك أن تقرّبني من التلال يا صديقي الغجري كي ننتظر اللحظة المناسبة».

فقال إد: «قد يطول الانتظار يا فتى».

وراحا يناقشان الخطة.

قال إد: «إنّهم حتماً يخفضون النبرة، يا وولف. وهذه خدعة لعينة في سموكتاون. والبيوت اللائقة التي تخاف المجير مثلي لا تستطيع المنافسة. لا أقدّم سوى فتيات نظيفات حالقات، ولم يعُد هذا يرضي بوهاين. لا سيدي! الآن نريد جميعنا أن تأكلنا الفتيات المستعبدات أحياءً! لكن مع هذا كلّه يا وولفي، لا ينبغي أن تقوم بمهمة مجنونة بسبب غجريّ رمال ...».

فقال وولفي: «لقد وضع يده على حبيبتي يا سيد لانيهان».

فقال إد: «أخبرتني هذا يا فتى».

فقال وولفي: «جيني حب حياتي، أتفهم؟ أريد أن أبني عائلةً مع هذه الفتاة».

حاول «الغجري» لانيهان بصمت تخيّل الابن المحتمل من اقتران تشينغ بوولفي، وهزّ كتفيه وقال: «هذا رائع جداً يا وولف».

ثم حلّت لحظة غريبة: بدا الفتى الشرير خجولاً بعض الشيء. حدّق إلى بوطه ذي الأربطة الكثيرة، مفكّراً للحظة، وقال: «في الحقيقة سيد لانيهان، ثمة أمر آخر أردت استشارتك بشأنه».

فقال إد: «ما هو يا وولف؟».

أجاب وولفي: «سيد لانيهان... لقد شغَلتَ الكثير من الفتيات الصينيات في زمانك، أليس كذلك؟».

إد: «حتماً، الفتيات الشرقيات مطلوبات جداً».

وولفي: «وما أردتُ أن أسألك عنه يا جيبو...».

احمرّ وجهه! لم يصدّق لانيهان أن ثمة احمراراً على خدّ الشيطان!

فسأل: «ما الأمر يا وولف؟».

وولفي: «هل حدث لصينيّاتك من وقت إلى آخر... آه ... أن حَمِلنَ؟».

إد: «بالطبع، قد تقع أيّ فتاة شابة في الخطأ. لم تعُد الاحتياطات كما كانت عليه في السابق يا وولف».

أخذ وولفي نفَساً عميقاً، وقال: «حسناً، ما أردت أن أسألك عنه هو...».

أشار إلى شَعره الأحمر المقصوص بشكل جميل، وأكمل: «هل رأيتَ يوماً صينيةً تحمل من شخص مثلي؟».

اعتقد إد لانيهان أنّ همّاً يشغل الفتى. فهو لا يزال صغير السنّ على هذا. لكنّهم يعرفون، أحياناً، في بوهاين أنّهم قد لا يعيشون طويلاً. فقال: «هل تعني يا وولف...».

وولفي: «مِن أصهب يا جيب. هل رأيتَ يوماً فتاةً صينيةً تحمل من أصهب؟».

ابتسم لانيهان وقال: «ما سؤالك بالتحديد يا وولف؟».

شعّ الخجل على كامل جسم وولفي ستانرز، والخوف أيضاً. وقال: «هل يمكن ألاّ يولد الطفل مصاباً بعاهة سيد لانهيان؟».

وجد إد لانهيان أنّه يشعر بالتعاطف مع هذا الشيطان الصغير، فوضع ذراعاً أبويّةً حول كتفَي وولف. شعر بارتجاف وبارتداد الفتى عندما لمسه وقال: «عندما تنوي إنشاء عائلة يا وولف، يجب أن تتخلّص من مخاوفك، وتسلّم نفسك للقدر يا فتى».

فقال وولفي: «لكن ما رأيك يا جيب؟ هل سيكون الطفل أصهب أم صينيّاً؟».

وبينما كان إد يرافق وولفي نحو الدرج مجدّداً والعاهرات يصرخن عالياً أثناء نزع وبر أجسامهن لتصبح ناعمة، مال إليه وقال: «وولف، عندما يظهر لك طفل على وجه الأرض، لا أظنّ أنه سيكون لديك أي شك حياله».

قال وولفي: «شكراً جزيلاً سيد لانيهان».

عند الباب، عرف «الغجري» أنّه لا يملك خياراً آخر، وقد عرف هذا من عينَي وولفي المشؤومتين. فقد وافق أن يقود الفتى إلى ممرّات منطقة التلال السريّة، وأن يقرّبه من برينس تابي.

وهكذا بَدَت الخفّة في مشية وولفي ستانرز، وهو يخرج من جديد عبر شوارع سموكتاون. لم يلاحظه جواسيس غجر الرمال الذين كانوا يراقبونه من مداخل البيوت والأسطح، والذين سبق أن عرفوا نيّته.

السوبر ستار جيني تشينغ

هذه هي السنة التي بدأت فيها الفتيات في باك ترايس يلبسن مثل جيني تشينغ. ارتدين سُتراً بيضاء من فينيل مع سحّاب أماميّ أضيق من الخطيئة، أو بزّات ملتصقةٍ بأجسادهن من النايلون، وكأنّها مرشوشة على أجسامهن رشاً، أو بنطلونات رياضيةً قصيرةً أصغر بعدة قياسات من أجسامهنّ، فوق جوارب فضيّة. وكنّ دائماً ينتعلن كعوباً عاليةً مع مقدَّمات فولاذية صُنعت لهدفٍ مخصّص: ركل أفقية الفتيات السيئات. بدأن جميعاً بمضغ التبغ الزهيد الثمن أيضاً. وكنَّ، في صالونات تصفيف الشعر بشارع ديف، إذا أردنَ قَصّةً مستقيمة فوق الجبين والحفاظ على طول شعورهنّ وكثافتها من الخلف، يطلبنَ قصّة جيني.

ماذا بعد ذلك؟

بدأت الفتيات يمشين ضمن مجموعات ثائرة في ترايس. وثمة عصابات أنثوية تُحدث الشغب في الأفنية عند منتصف الليل. لو كنت فتاةً تعيش في بوهاين في ربيع العام ٢٠٥٤، لحملتَ خنجراً في جيبكَ الداخليّ ووضعتَ سيجاراً في فمك، ومشيت في الأزقّة

مشية سموكتاون المنزلقة التي تحمل تشينغ براءة اختراعها، ولما خضعت لأيّ فتى لعين.

ولشهدت على هذه الأمور:

رقصات الفتيات في أولى ساعات الصباح على موسيقى أسطوانات صدحَت من أسطح ترايس.

ومشيِهِنَّ على طول شارع دي فاليرا المتعرّج، حيث يبقيْنَ كلابهنّ المشوّهة مربوطةً بسلاسل.

اتّخذت الفتيات من تدفُّق النهر الخبيث صفاته تلك، وانطبعن عليها.

شملَت أحاديثهنّ موضوعات المراهقة العادية، وهي الغضب، والشهوة، والخجل. لكن دائماً في هذا الفصل، في مدينة بوهاين، كان الحديث يعود مجدّداً إلى موضوع واحد، مراراً وتكراراً:

«رأيتُها تعبر جسر مشاة سموكتاون منتعلةً كعباً سميكاً مع بنطلون حتى أعلى الفخذين بلون أصفر ليموني صارخ. كانت ترتدي أيضاً...».

«سمعتُ أنّ بوسعكنّ دخول مقهى هو بي، ولكن من دون تجاوز طرفه. يجب أن تكون لديكنّ معارف قبل أن يُسمح لكنّ بدخول غرف الطبقة العليا، وصالونات تدخين الحشيشة. وهناك تكون جيني في أغلب الأوقات...».

«يُقال إنّها تخبّئ الطويل في الأعلى».

«إنّها تبقيه تحت سيطرتها».

«وتُبقي غانت أيضاً تحت سيطرتها».

«وولفي أيضاً...».

«يُقال إنّ في حزام خنجرها اثنتي عشرة فروة رأس، أو ربما ثلاث عشرة، وهذا هو العدد المعروف ليس إلاّ».

«ترتدي قياس ستة على أعلى تقدير...».

«عظام وجنتيها هي الأجمل في كل بوهاين...».

«واسمعن هذا الخبر...».

«ماذا يا فتاة؟».

«إنّها بارعة جداً في الرقص».

الخلافة

تحدّى أُول بوي مانيون جناح الطبقة العليا من فندق بوهاين آرمز. وجد نفسه عند سرير شهر العسل. وقف منتصباً. أمسك بقبعته بين يديه. كان يتمتّع بثقة كافية في النفس، بالكاد كافية، لإبقاء نظراته مثبّتة في عينَي غيرلي. رفعَت كأس جون جايمسون لا ثلج فيه إلى شفتيها، وقالت: «أفترض أنّك تعرف أنّه فقد صوابه».

«ماذا سيدتي؟».

«أصبح مجنوناً كدلو لعينة ممتلئة بالقطط».

زمّ أُول بوي شفتيه حزناً، وهزّ بكتفيه. لا يحقّ له التعليق على حالة الطويل النفسية.

«ألوم الفاجرة التي تزوّجها. لقد زرعت في رأسه أوهام العظمة، أليس كذلك؟ لا تليق به ترايس، بالطبع لا. كان يجب أن يعيش في بوفيستا كبروتستانتيّ لعين، أليس كذلك؟ وأن يتدلّى من روافد ذاك القصر اللعين. ما كنت لأمانع...».

توقّفت، واحتست جرعة من المشروب، وأكملت: «ما كنت

لأمانع، لكنّ إيماكولاتا اللعينة آتية من حثالة أرصفة الميناء، مرميّة من قاربٍ لصيد التونة، أليس كذلك؟ ووالدتها العاهرة أتت من جهة ترايس المنحطّة، أليس كذلك؟ أتت ورائحة نيران المخيّمات تنبعث منها».

تنهّد أُول بوي، وقال: «الزواج لعبة قديمة صعبةٌ حتى حين يكون في أفضل حالاته».

نظرت إليه بصمت للحظة. ولاحظت أنّه لم يُشح نظره عنها. داعبت شفتها العليا بطرف لسانها، وقالت: «بالطبع رحلَت بعد نوبة غمّ، وهو متمدّد في مقهى صينيّ يدخّن غلايين الحشيشة، وكأنّه سيموت اليوم، وفانسي باك ترايس تركض في كل الأنحاء كجرذ لعين يشتعل جحره».

قال أُول بوي، محاولاً تهدئتها: «لا تزال عائلة هارتنت تدير بوهاين سيدتي».

«أجل، حتى الآن في أيّ حال».

ثم ضحكت بائسةً، وتنفّست بصعوبة وزاد شحوبها، وقالت: «أرى أن غانت يحتلّ صفحات الصحيفة كلّها».

فقال: «أحاول إلهاء المدينة يا غيرلي».

«عمَّ يا مانيون؟».

«عن السوء».

«أتمنّى لك التوفيق في مهمتك. كيف هو وضع الترام؟».

أجاب: «بصراحة، يبدو أنّ الشركاء الآخرين يحاولون العبث...».

قاطعته قائلة: «هذا غير مفاجئ، أليس كذلك؟ عندما نتصرّف كمجموعة من الوحوش! وأنت تعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك، أليس كذلك؟ عراك مَلَكيّ خلف أليادوس. فكلّ مشاغبي فانسي الصغار سيحاولون الوصول إلى القيادة. رأيتُ هذا غير مرة في حياتي يا أُول بوي. سيشدّ بعضهم شعور بعض؛ ويقلع بعضهم عيون بعض، حتى نهاية عيد الميلاد البائس. وفي هذا الوقت، سيأتي أوغاد صغار من رايزس أو قذارة من غجر الرمال من تلال سموكتاون، ويسيرون في شوارع المدينة، ويهتمّون بالأعمال. أو: ما رأيك بعصابة فتيات مسعورات من بوهاين ترايس اللعينة؟».

فقال: «أردتُ أن أسألك عن جيني...».

فقاطعته قائلة: «هل تعرف آخر الأخبار يا أُول بوي؟ إنّها تحرّض الفتيات!».

«هذا ما ينقصنا».

«أعلم هذا! أنا أفعل ما أقوى عليه لإيقاف تلك الفتاة الصينية اللعينة».

«هل هذا يعني أنّك على وشك وضع حدّ لها؟».

ابتسمت غيرلي بحنان، على الرغم من كلامها القاسي؛ قرأ أُول بوي الحب في ابتسامتها. لكنّه قلِق على مصير المدينة.

فقالت: «لا أدري إذا كان عليّ أن أتبنّى جيني، أو أن أقلع عينيها الآسيويّتين بخنجر ست بوصات».

فأقرّ أُول بوي: «إنّها مثيرة للإعجاب».

أطلقت غيرلي ضحكةً وقالت: «ما يعجبني هو إبقاء عينيها في عينيّ، فلا تزيح نظرها بتاتاً. إنّها باردة كالثلج!».

فقال: «أنا أنظر في عينيك يا غيرلي».

فقالت: «نعم، لكنّ هذا عندك مجرّد تمثيل».

الكلام الذي يخرج من الفم مع ابتسامة كلام يلسع. لقد جفل أُول بوي بشكل ظاهر. تعافيه بهذه السرعة من هذا التعليق دلالة على مهارته. عرف أن من الحماقة أن يطرح السؤال؛ لكنّه عجز عن مقاومة الإغراء فسأل: «بمَن تفكرين يا غيرلي إذا انتهى وقت لوغان؟...».

تقوّست غيرلي ضاحكةً، وكأنّها ستجيب! الضحك يسبّب لها آلاماً مبرحة، لكنّها تعافت منه بسرعة، وسكبت كأس ويسكي أخرى، وأشعلت سيجارةً أخرى، وقالت: «دعني أقُل لك يا أُول بوي، إنّ هذه المسألة تؤرّقني. لكنّني سأبقيك على اطلاع بشأن قراري، أتفهم؟».

في جادّة ضفّة النهر

انعطِف يساراً بعد محطة يالا هول، كما تفعل القلّة منّا، وستبلغ فوراً طريقاً طويلة متعرّجة تُعرف بجادّة ضفة النهر. تتَّبعْ نهر بوهاين على طول آخِر جروف المدينة إلى أن ينفتح النهر على مصبّات نائية غامضة. تحوم الطيور البحرية الشرسة فوق المسار الفارغ في الجوّ الضبابيّ. هذا مكان لا يقصده سوى قلّة منّا لغرابته. ستشعر هناك بإحساس غامرٍ بأنك رأيت هذا المشهد من قبل. دائماً ما يحدث هذا الهبوط الغريب في الروح ويقذفك إلى زمن ضائع داخلي، زمن لا تستطيع أبداً تحديده بدقّة. إنه إحساس مخيف، إذ يشعر المرء بترنّح غريب في داخله، بحركةٍ تكاد تصيبه بالغثيان. تتداعى الأفكارً. تعلق الأرواح في الهواء. تحدث تشوّهات. ولوغان هارتنت الذي آلمته أحلامه في نيسان، باع نفسه للغليون ووجع القلب، وبدأ يتردّد على هذا المكان يومياً تقريباً.

مشى فيه؛ اقتات على غرابته. طارد طيران الكركر بعينين مُغشّاتين. تمتم بصوت خافت. وأجرى، وشفتاه الشاحبتان تتحرّكان، حسابات سرّية.

حلّ عصر يوم خاص من نيسان، وكان الأمهق من جديد عند ضفة النهر، لكنّه لم يكن وحده يومذاك. جلس على مربط حبال في حين كانت ريح النهر الحارّة تهبّ، وحدّق بلطف فائق إلى فاكر بورك الشديد التوتّر.

دلّى فاكر ساقيه عن السياج الحديديّ الذي يحدّ نهر بوهاين في هذه البقعة، وصفع حشرات تخيّلها على عنقه.

نظر لوغان إليه بابتسامة عطوفة، وقال: «هل لاحظتَ شعوراً ما يا فاكر؟».

فاكر: «هذا المكان يا سيد أيتش مثل...».

لوغان: «هل يثيرك يا فاكر؟».

ظهر ارتجاف طفولي في صوت فاكر: «بصراحة، لا أشعر أنني بخير الآن سيد أيتش».

رمى فاكر نظرةً آمِلةً على وسط بوهاين الذي لاحت أسطح بيوته بشكل مَلَكيّ في الأفق القريب. لكنّ الطويل هزّ رأسه حزناً، فما من عودة.

ثم سأل: «هل تأتي إلى هنا كثيراً يا فاكر؟».

تكلّم مع الفتى بنبرة عذبة، وكأنّه يهمس تهويدةً، فشعر فاكر برطوبة قارسة عند أسفل عموده الفقري، وقال: «لا سيد هارتنت».

أومأ لوغان برأسه بحزم، وكأنّ هذا هو التكتيك الأفضل الذي يمكن أن يعتمده الفتى وقال: «أخبرني عن وولفي وجيني».

فغر الأخرق بورك فاه متعجّباً، وقال: «لا أعرف شيئاً عن الموضوع يا أيتش».

«هل علاقتهما متينة يا فاكر؟».

أجاب فاكر: «بنظر وولفي».

«علقت الصنّارة في أحشائه، أليس كذلك؟ عرفتُ هذا. وجيني؟».

حاول فاكر أن يبدو لامبالياً، وقال: «لا أعلم سيد أيتش. تقول له إنّها تحبّه لكن...».

كفّ فاكر عن الكلام. دارت عيناه بعض الشيء. ترك لوغان الصمت يحوم لبرهة، وراقب بدقّة ليرى إلى أين سيرسل هذا الصمتُ الفتى. كانت طفولة فاكر بورك روتينية في غرب إيرلندا القوطيّ. وها قد عاد من جديد زمنه الضائع اليائس، تحت غشاء عينيه الخضراوين. أعاده المكان إلى طفولته تلك. الرعب الذي شهده، والرعب الذي أحدَثه بنفسه في الآخرين. ما من سبيل للهروب من وخز الماضي؛ إنّه حاضر دوماً، كألسنة نار صغيرة تشتعل تحت الجلد.

قال لوغان: «عُد إليّ الآن يا فاكر».

فاكر: «هل تظنّ أن المجير يريد إنهاء حياتي يا سيد أيتش؟».

لوغان: «اصمت يا فتى وعُد إليّ؛ المجير يحبك».

ترجّح فاكر بورك وهو يهبط عن السياج، وحرّك قدميه عبثاً. نقل وزنه من اليسار إلى اليمين ثم إلى اليسار. فرفع لوغان يداً لإيقافه، وقال: «ما رأيك في الوضع مع وولفي يا فاكر؟».

فاكر: «ماذا تقصد بالوضع سيد هارتنت؟».

ابتسم لوغان مسروراً، وكأنّ فكرةً راودته للتوّ، وسأل: «هل تظنّ علينا قتله؟».

ظهرَت قطرات لعاب جافّة على طرفَي فم الأمهق، وتشقّقت القطرات عندما تكلّم.

ثم قال فاكر: «ولكن يا أيتش، وولف من نخبة فانسي...».

فسأله لوغان: «ألا تزالان مقرّبَين؟».

كان هناك تجعّد على قبّة الأمهق، ولم يكن بنطلونه مكويّاً.

فقال فاكر: «ليست للقرب أي علاقة بالأمر. لكنّني لا أفهم ما فعله وولفي».

لوغان: «الوفاء ميزة عظيمة يا فاكر بورك».

فاكر: «لا يروقني هذا المكان سيد أيتش».

كان هناك لون خفيف ضارب إلى الخضرة في شحوب الموت البادي على وجهه. إنه لون العفن.

لوغان: «أعرف شعور ضفة النهر، يا فتى. الأحاسيس تثور فيك، أليس كذلك؟».

ازدرد فاكر ريقه بصعوبة، فكأن تفّاحة صغيرة حامضة من الرعب تنزل ثم تصعد مجدّداً على طول حنجرته. وسأل: «هل سنعود يا سيد أيتش؟».

لوغان: «وماذا عن جيني؟ هل علينا قتل جيني تشينغ يا فاكر؟».

فاكر: «تعلّمتُ ألاّ أعبث مع الصينيين سيد هارتنت».

«من الحكمة ألاّ تفعل، يا فتى، في الظروف العادية. لكنّ ما أسمعه عن جيني تشينغ...».

هزّ لوغان رأسه ببطء، وأكمل: «إنّها تضع مخططاً، أليس كذلك يا فاكر؟».

فاكر: «لا أعرف شيئاً عن ذلك سيد أيتش».

لوغان: «لا تعرف؟ أفهم».

نهض لوغان عن مربط حبال المراكب، واقترب من الفتى، وحدّق إليه بعينيه المغشيتين. وضع يده على مؤخر رأس الفتى، وجذبه إليه. مال نحوه محدّقاً إلى عينيه، وقال: «دعني أخبرك بعض الأمور يا فاكر».

حرّك باطن يده في الهواء وكأنه ينقضّ عليه ليكمِشَه، في إشارةٍ إلى ضرورة تقبّل العالم كما هو. وقال: «سيضيع كل هذا من بين يديك بسرعة كبيرة، الآن، هل تفهمني؟ لقد عشتَ مجدك يا فاكر بورك. مع بعض النبيذ والمال، أظنّ أن بعض النساء المضطربات كفايةً قد يضعنَ أنفسهنّ في خدمتك. لديك كلبتك الرائعة، أنجلينا. وأنا أفهم ما قمتَ به يا فاكر، بالفعل. شعرتَ بأنّ حياتك لن تبدأ أبداً، لكنّها في الواقع، تهرب منك بسرعة طوال الوقت. غير أنّنا لم نعُد نعبث. كم عمرك، ثماني عشرة سنةً؟

بدا ما ينتظر فاكر جليّاً، إذ أصبحَت نبرة صوته مستسلمةً، وقال: «أنا في السابعة عشرة يا سيد أيتش».

فقال لوغان: «هذه سنّ جميلة يا فاكر. تظنّ أنّك ستعيش إلى الأبد... أنا هنا لأخبرك العكس».

شكّل لوغان دائرة بشفتيه، ونفخ صفيراً بطيئاً ثابتاً، كالرياح عبر تجاويف ناي، وصوّبه مباشرةً نحو وجه الفتى.

علق النفَس الكريه الرائحة في الجوّ. وشمّ فاكر رائحة حريق الغليون من مقهى هو بي، وعفن خارِج عن القانون لن يكون فاكر مثله يوماً.

فقال لوغان: «انظر إليّ فاكر. انظر إليّ يا عزيزي. لا يمكنني القول إنّني لم أتمتّع بالحظ. أدرتُ عصابة فانسي خمساً وعشرين سنةً. تعرّضت للطعن ستّ مرّات، وما زلتُ أمتصّ السمّ في الهواء. هل تظنّ هذا عَرَضياً؟».

ابتسم، وعكس شحوبُ عينيه الزرقاوين لونَ السماء والماء، المنكسر.

أكمل قائلاً: «هل تظنّني من النوع الذي يدير ظهره للأمور يا فاكر؟ وهل تظنّ أنّني سألعب بورق الشدّة، وأحتسي نبيذي وأصبح بديناً؟».

اسودّت شفتا الفتى مترقّبتين. شعر مجدداً بنفَس الطويل على وجهه، وباليد الباردة على حلقه.

فقال لوغان: «لمَ فعلتَ هذا يا فاكر؟».

من سمات المدينة أن ما جعل وجه الفتى يحمرّ الآن ليس الخوف، بل العار، وقال: «سيد أيتش، لم أعنِ شيئاً بـ...».

«أخبرتَ غانت بكل ما تعرفُه يا فاكر».

«من فضلك سيدي».

«أعرف ما قلتَه له يا فاكر».

«ليس عليك فعل هذا، من فضلك سيدي...».

شعر فاكر بوهج غريب: ظهر القدر الضئيل من الحب والحميميّة الذي عرفه في حياته للمرة الأخيرة، ومدّه بالعون لرحلته القادمة.

فقال لوغان: «أعلم ذلك، لأنّ غانت أخبرني يا فاكر».

غسلت هبّات الأطلسيّ الآتية فوق مصبّ النهر الهواءَ في منطقة الضفة، فثقل الهواء بأشباح النهر المرعبة كلّها. وطوال هذا الوقت، كان نهر بوهاين ينقل حمله من الحصى والحجارة في دوّامة سكرى في أعماق النهر، محدثاً صوتاً كصوت السلاسل المهتزّة.

دفع لوغان الخنجر ببطء، وتركه يستقرّ ثقيلاً في أمعاء الفتى. ثمّ مرّره من جهة إلى الأخرى بحركة مُتقنة وسهلة، وأمسك بالفتى بلطف في حين هبط رأسه إلى الأمام وهمس في أذنه.

تراجع، وأزال الخنجر بفتلة ماهرة، فتدفّقت أحشاء الفتى فيما أبقاه ثابتاً.

شعر لوغان آنذاك بغرابة، وكأنّه... دوار، وكاد يرزح تحت وطأته.

أخذ نفَساً عميقاً وحبسه.

مال جبينه من جديد إلى الفتى المُحتضَر، وأسنده هناك للحظة، وطلب المغفرة.

ابتعد وترك ما بقي من فاكر بورك ينهار هناك، كدمية خرقاء. وتنحّى بسرعة. بعصا وجدها على الأرض، وبالدم الذي أريق، كتب على الأرض قرب الجثة كلمة «يهوذا»، كتبها بيده الصبيانيّة الكبيرة المتوتّرة.

ثم تسلّق السياج الحديديّ، وهبط بضع درجات حجرية سميكة محفورة في جدار النهر.

بلطف، وبواسطة سبابته وإبهامه، رفع ثنية بنطلونه وأنزل حذاءه الكرواتي في الماء لتنظيفه.

رأى حُمرة مشعّة تختلط بماء المستنقع البنيّ الراكد، وتختفي بسرعة كبيرة في كتلة النهر الهائلة.

t.me/ktabrwaya مكتبة

معضلة ماكو

حلّ الليل على ترايس.

سارت في الأزقّة، ووصلت في النهاية إلى ساحة صغيرة مهجورة، وجلست لبعض الوقت على مقعد ذي أطرافٍ معدنية. خُدِشَت أسماء عشّاق ماتوا على الظهر الخشبيّ للمقعد. كانت الطبيعة النامية حولها مُتّقدةً جداً ومتخَمةً جداً ومريضة جداً: عشبُ عكرشٍ لحقه العفن الأسود، وذيل هرٍّ مصابٍ بالجرب يتسلّق جدران المباني السكنية، وعطر ياسمين بريّ سقيم، ثابر على الحياة، وتمدَّد من سطح بيت إلى سطح بيت آخر، وكأنه بتلات على ضريح. كانت نهاية الربيع مختلجةً بعنفٍ، ففيها تبلغ بوهاين الذروة، لتدنو أكثر من أي وقت آخر من الهوّة.

نبض نيسان حمل معه ألماً في غددها.

في الأوقات السعيدة، لم يضطرّا إلى الكلام لمعرفة ما يشعر به الآخر. فإنجاب طفلٍ سيُخيف المدينة بالطبع، وسيمنح الزواج قوةً دافعةً. لكنّهما لم يُرزَقا بطفل، وامتلأ الفراغ بغيرته.

كان ليعود إلى قصر بوفيستا في ساعات الفجر الداكنة ويقول:

«هل خرجتِ؟

هل رأيتِ أحداً؟

ما الذي قمتِ به؟

ماذا فعلتِ اليوم؟

إلى أين ذهبتِ اليوم؟

من رأيتِ اليوم يا ماكو؟

من رأيتِ اليوم؟

هل خرجتِ؟

أين ذهبتِ؟

من رأيتِ اليوم يا ماكو؟».

لقد تحوّل إلى طفل. بدأ يحبسها في القصر. قالت إنّها ستهجره إذا أقفل عليها من جديد؛ فتوقّف لفترة، ما زاد جنونه، فلم يعُد يقدر على النوم ليلاً.

جلس في الظلام يراقبها.

سألها: «هل نزلتِ إلى المدينة يا ماكو؟

من رأيتِ اليوم يا فتاة؟».

طلب إلى شبان فانسي أن يلاحقوها. كانت تمشي في نيو تاون عند ساعة النزهة المسائية، وتلمح فاكر بورك وأنجلينا يمرحان في

ممرّ ما (ليس فاكر مرحاً بالفطرة)، أو وولفي ستانرز على مسافة حذرة خلفها، مع عينيه الدرقيّتين الجاحظتين.

قالت: «لا تناسبني هذه الحياة يا لوغان».

حلم بطُرق جديدة لاختبارها. لم تعُد تفاجئها أعماله. لم يفاجئها سوى دوام حبّها له.

هل هي قويّة كفايةً الآن لتظلّ متيّمةً به؟

كلام عن حلم

منتصف الليل.

مقهى هو بي شينغ أوـ كاي.

ردهة في الطبقة العليا.

تمدّد لوغان هارتنت على مقعد، ووضع أطراف أصابعه بلطف على ظاهر يد جيني تشينغ. أشعلَت الفتاة غليونه. فسحب نفساً عميقاً. ثم وضعَت خرقةً رطبةً على جبينه، وقالت: «إذاً، كنتَ لا تزال تضاجعها إلى أن هجرَتك، أليس كذلك؟».

أجاب: «في زواج طويل يا جيني، يجب أن تبذلي مجهوداً».

فقالت: «أنا أقدّرك يا هارتنت. أنت تراقص الفتاة عينها منذ ثلاثين سنةً... ألا تشعر بالملل؟».

أغمض لوغان عينيه قليلاً بسبب الدخان، وشدّ شفتيه. لم يكن باستطاعة أحد غير غيرلي التكلّم إليه بهذه الطريقة. تموّج حرّ الليل في هواء الردهة الكثيف. مرّت لحظة بطيئة، مذاقها تذكاريّ. تنهّد لأجل فاكر. انزلق في حلمه إلى عمق أكبر، وشعر بتسرّب زمن بوهاين

الضائع إلى ذاكرته وضَعُف، وقال: «هل تعرفين كيف تأسّست عصابة فانسي يا جيني؟».

رفعت الفتاة الصينية عينيها إلى السماء، وقالت: «ها قد بدأ: أتذكرين متى؟ وكيف؟ انتظِر أيّها الأمهق.. سأذهب لأجلب أدوات حياكة الصوف».

فقال: «بسبب الخيل، منذ وقت طويل. عندما كنّا ندير سباقات الخيل».

فاستسلمت لروايته.

سألَته: «هل تألّفت فانسي من الشبان الذين عملوا في ميدان الخيل؟».

«مصدر المال الوحيد في المدينة كان سباق الخيل، يا جيني. هذه حقيقة يا فتاة. في باك ترايس، أمام البيوت، كان الشبان يتكلّمون عن الخيل طوال اليوم. إذا كنّا ملمّين بأي شيء على الإطلاق هنا، فإلمامنا هذا تمحور حول خيلنا. لقد امتلكنا أفضل الجياد وأفضل الحلبات وأفضل الفرسان...».

«الفرسان يبدون مخيفين عندما تراهم في الصور القديمة. إن عيونهم لغريبة».

«ازدهرت فانسي بفضل العمل في ميدان الخيل. وأقِيمَت ردهات تدخين الحشيشة والأفيون وبيوت الدعارة».

أشعلَت جيني الغليون، مجدّداً، وقالت: «يسرّني دائماً أن أسمع عن الأيام المنصرمة يا إيتش».

سحب بشدّة، وحبس نفَسه مقاوِماً الغثيان، ثم زفر ببطء. حلّق عالياً. فمالت إليه وقبّلَته. كانت القبلة بطيئةً وعميقةً، ولا يمكن التعافي منها بسرعة.

سألها: «ما غاية هذه القبلة اللعينة يا جيني؟».

«مجرّد ميل إليك أيّها الأمهق».

«إيّاكِ أن تكرّري هذا».

«حسناً».

«أنتِ قادرة على إذابة تمثال لعين. فكيف لغانت أن يتخطّاكِ؟».

سرى في جسمها صقيع بالتأكيد، وقالت: «ما الذي تقوله لي؟».

«سيشعر بالوحدة يا فتاة. أمسيات الربيع الطويلة هذه...».

تماسكَت بسرعة، وقالت: «هل أبدو متأثرةً بما تقول، يا إيتش».

«لا ألومك يا فتاة. في مدينة صغيرة، يجب أن تبقي عينك على كل الأطراف. وسيخيب أملي إذا لم تفعلي».

تنفّست جيني بانتظام، ونظرت إليه بحدّة، وقالت: «لم أطلِعه على شيء في شأن أعمال فانسي».

فقال: «أعرف يا جيني. أخبَرَني بذلك».

لم تجد ما تردّ به للحظة، وبدَت خائفةً. لكنّها لم تُشحْ نظرها بتاتاً وقالت: «لستُ فتاةً حمقاء يا لوغان».

«لا يا جيني. أنت كل شيء إلا فتاة حمقاء».

حب المجير

يجب الاعتراف بأنّ سحر أُسرة هارتنت بقي مسيطراً على المدينة. وقد امتدّ نفوذها بشكل متعرّج. تسلّق أسطح المنازل وعَبَرها بشكلٍ ملتوٍ، وكل عمل قامت به الأسرة في الوقت المناسب أدّى إلى ردّ فعل. وبالطبع، قبل انقضاء شهر نيسان، حلّت ثورة إيمان مهووس في نورث سايد رايزس.

غالباً ما كانت الهزيمة تدفعهم كي يلجأوا إلى الإيمان. ولم تتطلّب إعادة إحياء المجير الحبيب سوى القليل من الحثّ. وبعد أيام على ظهور الجرحين المزيّفين على كفَّيْ فتاة كيوساك، أقيمَت اجتماعات صلاة في أقبية الحانات غير المرخّصة في المباني السكنية. شهدت الاجتماعات أشخاصاً يُغمى عليهم، ويفقدون الوعي، ويصرخون مفجوعين. جلبة كبيرة كانت تتردّد في هذه الأمكنة. ذات مرة، وضع المشاغبون النوريون جانباً سلاسل إطاراتهم وأحزمة خناجرهم، وراح العرق يتصبّب منهم، وهم يتمايلون في الحانات، ويصرخون عالياً شاكرين «لطفه الذي لا يوصف». تملّكت هؤلاء الفتيان ارتعاشات شديدة، واصطكت ركبَهم. وغالباً ما انهاروا بالكامل عندما كانت

كلمته تصلهم من «رُسُل غير مرئيين». بعد ذلك، راحت معجزةٌ تفضي إلى أخرى، كما هي العادة، وزُعم أنّ تمثال المجير الحبيب فوق النافورة، خارج مرتفعات كروبي بوي، قد ذرف دموعاً من دم. بالطبع، رأت فتاة كيوساك الصغيرة المجروحة الدموع الدامية بعينيها المتّقدتين. وهكذا ركع الناس حول التمثال ليلاً نهاراً، طالبين إشارات إضافيةً. راح النوريون يتعانقون ويهمسون بالبَرَكات في الجادّات الكئيبة. أصبح هذا فصل زيارات منتصف الليل. وسرعان ما ظهر المجير في كل الأرجاء. قيل إنّ وجهه قد ابتسم من أعلى إحدى حانات الجادّة. وقيل إنّ وجهه ظهر على شكل غيمة فوق أبراج لويس ماكنيس. وقيل إنّ وجهه قد تشكّل، وأومض، ولو لوقت وجيز، في بُركة عند قمة الميدان ٩٨. كان النوريون يستيقظون في الليل، ويجلسون في أسرّتهم ويصرخون ببشرى المحبة. وضع النوريون أسطوانات موسيقى الريغيه الجامحة جانباً، وشغّلوا لتجمّعات الحانات موسيقى مقدّسةً تعزف على القيثارة وترانيم. ارتدت نسوة نورث سايد قمصاناً محتشمةً لا تكشف صدورهنّ. وقمن «بطقوس التعبّد»، بشكلٍ صارم، في فترات ما بعد الظهر الربيعية الحارّة. تمتمن بتساعياتٍ ما كنّ يتذكّرنها جيّداً، وهن يسرن في مواكب. رأت كثيرات أنّ شعورهن تلمع ببريق جديد. تورّدت وجناتهن جميعاً. نادراً ما كنّ يقصدن وسط المدينة. صلَّين لأجل الخطأة الحاضرين هناك، وأشفقن عليهم. طلبن الغفران عن زلاتهنّ الحديثة العهد. غفرن لقتلاهنّ وأمواتهنّ...

انظروا إلى ابتسامة الأمهق الخبيثة المشوبة بتأثير الحشيشة.

... فُصّلت أعلام صفراء صغيرة من قِطع قماش كبيرة أُحضرت خصيصاً لهذه الغاية. وكُتِبت على الأعلام الأحرف الأولى من كلمتي 'مجيرنا الحبيب' بخطّ منمّق، سرعان ما أتقنه الفتية الذين عُرفوا بعد ذلك بخطّاطي الأعلام. عُلّقَت الأعلام على حبال، تفصل بينها مسافات محددة؛ وثُبّتَت الحبال بين أسطح المباني السكنية. كان ثمة عشرات منها، ثم مئاتٍ، ثم ملأت السماء، فأوحت في الوقت عينه بأجواء احتفال وخشوع.

اختفت الشتائم تقريباً. جُزّت اللِحى. أما الجنس الذي كان سابقاً في نورث سايد نشاطاً طبيعيّاً شائعاً تماماً كالتنفّس، يجري على مدار الساعة، على الأدراج، في مستودعات الخثّ، خلف واقيات الرياح في الجادّة، في كل حدب وصوب، وفي وضح النهار، فقد اقتصر الآن على الأسرّة الزوجية، ومُورِس برزانة، بالوضعية التبشيرية التقليدية، وكان ينتهي بسرعة، من دون كلام. واكتسب الرجال النوريون عادة عضّ المخدّة لدى بلوغهم النشوة، لئلا يدنّسوا الهواء بتعابير النشوة الجسدية.

الأعلام الصفراء رفرفت، الأعلام الصفراء التفّت في الهواء، الأعلام الصفراء توهّجت.

ومع أنّها رُبطت بإحكام لتتحمّل أعتى الرياح الشديدة التي تهبّ على بيغ نوثين، فإنّها عند هبوب الرياح، راحت تصدر أصواتاً متعدّدة متنافرة، فقد جلجلَت وهدرت وغنّت مع الرياح. وإذا أصغى المرء إلى الأعلام لوقت طويل بما فيه الكفاية، لسحرَته ولازمَته.

اتّفق الجميع في ذلك الربيع على أنّ مجيرنا الحبيب يبعث برسائل بواسطة الأعلام.

آه بالفعل.

وفي هذا الربيع بالتحديد، أصبح بعض الأشخاص في نورث سايد خبراء في الإصغاء إلى الأعلام. كانوا بشكل عام كباراً في السنّ خاضوا تجارب كثيرةً. ترونهم رابضين على أكفالهم في الجادّات، في فترات ما بعد الظهر الحارّة من شهر نيسان، تحت الأعلام، يصغون، ويدنون لمقارنة ملاحظاتهم. كانت وجوههم هادئةً يبدو عليها الاهتمام. وهي وجوه تنضح بالمعاني. وأصبح من المعتاد، عند وقت شرب الشاي من كل يوم، أن يجتمع المُصغون، وهو الاسم الذي أطلق عليهم سريعاً، في قبو حانة ضمن مبنى في مرتفعات كروبي بوي، ليتوافقوا على جوهر رسالة النهار. ثم يُصار إلى كتابة الرسالة بأحرف متقطّعة بطول قدم على رايات تحملها عاهرات محليّات في جادّات نورث سايد لمدة ساعة واحدة بالضبط. عوقِبت العاهرات بحمل الرايات لمحاولة إغوائهنّ الشبّان النوريين الأتقياء اللائقين. في اجتماعات الصلاة الليلية، كان الناس يتناقشون حول عدم كفاية حمل الرايات كعقاب للساقطات اللواتي لا يعرفن المجير، وأن من المتوجّب جعل أعضائهنّ التناسليّة عديمة الفائدة عنوة، بواسطة صنانير الحياكة والسكاكين الحامية. لكنّهم لم يتوصّلوا إلى اتفاق في هذا الخصوص.

افتتاحية الفينديكايتور، التي اعترفَت بما أسمته «أعجوبة

الأعلام»، وعبّرت عن فرحها بها، أصدرت مُلحَقاً تذكاريّاً ألمحت فيه بتحفّظ إلى أنّ تشويه الأعضاء الجنسية قد يشكّل، في هذه المرحلة، خطوة متطرّفة، حتى بمعايير مدينة بوهاين العليا. فاكتفوا بالتالي بجعل الساقطات يمشين حاملات الرايات الثقيلة، باكيات تحت وطأة الحمل الثقيل. وعلى الرايات، كُتِبَت رسائل من المجير، همسَتها الأعلام، مثل:

الخمرة لعاب الشيطان!
الكلاب أيضاً لها روح!
البولنديّون لن يكونوا يوماً ظاهرين!

أطلعهم المجير على ما يجب أن يفعلوه أو لا يفعلوه، وكان سكان نورث سايد ممتنّين إلى الأبد لتوجيهاته. كل ليلة، كان أفراد أُسَر النوريين الورعة يصطفّون في الجادّات لمشاهدة استعراض العاهرات. كانوا يركعون وينطقون بلغات، مُصلّين لمجيرنا الحبيب بأصوات مفعمة بالحيوية، في حين تعبر الرايات أمامهم. وإذا عومِلَت الساقطات بفظاظة ورُمِينَ أحياناً بزجاجات وهنّ يمشينَ مترنّحات، فقد كانوا يعتبرون أنّ هذا ما تستحقّه أولئك الساقطات المتبرّجات الوجوه. لكنّ بعض العاهرات عجزنَ عن تحمّل الوضع، فاجتمعنَ وهربنَ من نورث سايد رايزس تحت جنح الظلام.

نعم، في هذا الربيع الذي نتكلّم عنه، نزلَت ساقطات النوريين شبه الوحشيات إلى وسط المدينة، ورحن يطفن في باك ترايس، وانضممنَ إلى زمر الفتيات المجنونات اللواتي اجتمعن هناك مؤخراً

حبّاً بالفتاة تشينغ القويّة. وسُمعت صيحات تضامنهنّ في أنحاء المدينة، في نورث سايد وترايس معاً، تلك الصيحات التي ستطبع حتماً الصيفَ المقبل.

كنت أسمعهنّ من الغرفة الخلفية في جمعية أفلام بوهاين التراثية والتاريخية في وقت متأخر من الليل، وأنا أحتسي نبيذاً برتغالياً فاخراً من عنق الزجاجة مباشرةً، وكونوا واثقين كل الثقة بأنّني دوّنت ملاحظات دقيقة.

خلف الصيحات الحادّة، كان النهر ينقل كالعادة نبضه الأسود من بيغ نوثين.

وانتبهوا لهذا يا أصدقائي، يا فتياتي، يا أطفالي السذّج:

لا يمكن لهذا النهر أن يجلب سوى الخراب.

رسالة لوغان إلى ماكو

ماكو، أفتقدكِ كثيراً. خصوصاً في الليل. أتمدّد على السرير في شبه هذيان من دونك إلى جانبي. وكأنّكِ رحلتِ عنّي منذ سنوات. لا أستطيع حتى أن أسمع صوتك. أغمض عينيّ وأتخيّلك، لكن لا أستطيع أن أسمعك. صدّقيني يا ماكو، لا أكاد أشعر بأنّني إنسان من دونك. لا يمكنني العيش في بوفيستا من دونك. أفكّر بكِ طوال الوقت. أشعر بالخجل لمدى غيرتي. كل ما في وسعي قوله هو أنّ حبّي لك قد أفقدني صوابي ببطء. أرى ذلك بوضوح الآن وأنا وحيد. طلبتُ إلى غانت أن يقوم بأسوأ الأمور. طلبتُ إليه أن يختبركِ وعرفتُ أنّه سيجرّب. أرجوك لا تلوميه يا ماكو. كانت اللعبة لعبتي، وهو لم يعتبرها سوى فرصة لاستعادتك. وأشفق الآن على سنوات هذا الرجل الوحيدة. لو كنت مكانه، لما قويتُ عليها. آسف يا ماكو. لعبتي قبيحة، أعلم هذا، لكنّها أثبتت إخلاصك. أريدك أن تعودي بشدّة. هل تتذكّرين كيف مشينا في ترايس ذات ليلة، ووجدنا زجاجة نبيذ موسكات باردةً جداً تنتظرنا عند شرفة منزل، ولم يكن هناك أحد حولنا؟ أنا وأنت وحيدان في باك ترايس يا ماكو، واحتسينا النبيذ. أطلب منك السماح. أعرف أنّ هذا يبدو مستحيلاً الآن. أعرف أنّك

تحتاجين إلى الوقت. تحتاجين إلى هذه الأشهُر لفهم الألم الذي كان في داخلي. لكنّني أعرف أنّ حبك لي مازال حيّاً. وإذا أردتِني أن أنسحب من الفانسي فسأنسحب. سيوصل السيد مانيون هذه الرسالة: أين أنتِ يا ماكو؟ أشعر أنك في ترايس. لا أتوقّع منكِ أن تجيبي عن رسالتي. لا أطلب منك سوى التفكير في السنوات المقبلة. نحن لا نساوي شيئاً مفترقَين. إذا اخترتِ العودة إليّ وإعطائي الحياة يا ماكو، فلاقيني في مقهى أليادوس. عند منتصف الليل تماماً. ليلةَ مهرجان آب.

لوغان.

في وقت متأخر في حانة تومي

كانت عشيّة شهر أيّار في السابر روم، حيث ضبط تومي الساقي مراوِح السقف على السرعة القصوى، وأزّت داكنةً في سواد الليل. تلك المراوح كانت صامدة غير متذمّرة، تشبه إلى حدّ ما مرتادي هذا المكان القدامى، مثلهم تُصدر صريفاً خشناً مريضاً. استكشفت عينا تومي الغرفة، وقرأتا خوفاً كبيراً لدى تجّار بوهاين جميعهم، كل وجوه بوهاين كانت خائفة. الجميع متوتّرون. حتى أنّ صوت المغنّية العذب الجذّاب المنبعث من زاوية المسرح بدا أنّه يضاعف التوتر.

كانت تغنّي: «طاااااالما ذاك القمر الأصفر طاااااالع...»

غناؤها إيقاع كاليبسو بلو بطيء، أغاني حبّ قديمة من الزمن الضائع. راحت تطقطق أصابعها بكسل مع النغمة التي وُلدَت في داخلها، فتباعدت أطراف أصابعها، وارتاحت بين الإيقاعات على فستانها الطويل الفضيّ المغطّى بالترتر. كان ضابط الإيقاع الوحيد الذي يرافقها طبّالاً ناعس العينين يجلس وراء طبلة كبيرة، وشعرُه مسرّح إلى الأعلى، وقد ثُبّت بدهن الشعر. غنّت بأسلوب كاليبسو بوهاين الصحيح المضبوط بعناية؛ فنحن متشدّدون بشأن هذه الأمور. أداؤها أجشّ بالقدر المطلوب، وهي بالتأكيد جميلة.

كانت تغنّي: «طاااالما جرى ذاك النهر الأسود...».

لكن حتى فتاة كهذه لم تستطع أن تلهي التجار المسنّين الجالسين على المقاعد. كان هؤلاء العجائز يرتعشون، وبالكاد استطاعوا رفع أكواز البيرة إلى شفاههم. مالت عيونهم إلى رَجُلين جالسين على كرسيين مرتفعين عند طرف بار السابر روم. كان أحدهما عريضاً وبديناً والآخر طويلاً ونحيلاً.

ويا للمفاجأة المزدوجة:

إنّهما لوغان هارتنت وغانت برودريك.

كانا يعقدان اجتماعاً مغلقاً ويتهامسان. وانبعثت أغنية الفتاة مجدداً بصوت هامس مبحوح:

«طاااالما تلألأت النجوم، وطاااالما نما حبّنا المتعانق...».

شغل تومي الساقي نفسه بتكسير قطع الثلج من كتلة متجمّدة تزن عشرة أرطال، ووضعها في دلاء التبريد. كاد تومي يخسر إصبعين بإزميله، حين شتّ نظره الخائف إلى الطرف الآخر من منضدة البار، نحو الرَجُلين. رفع هارتنت يده طالباً زجاجة نبيذ أخرى، فأحضر تومي الزجاجةَ إليهما. توقّف الرجلان عن الكلام، وهو يغرز الزجاجة بين رقائق الثلج في دلو التبريد. ابتسم كلّ منهما له بِحزن.

فقال تومي: «سيد هارتنت، سيد برودريك».

لم يتحلَّ تومي بالشجاعة الكافية للبقاء في مكانه وقتاً أطول، فاجتاز بسرعة مسافة البار عائداً إلى مكانه. استمرّت المغنّية في

طقطقة أصابعها، والطبّال يقرع إيقاعاً متلاحقاً خافتاً على الطبلة. على المقاعد العالية الظهر، تمايل الرجال البدينون بتوتّر. كانت درجة الحرارة لا تزال في حدود الثلاثين، حتى بعد منتصف الليل، ومزاج المدينة شديد الانفعال.

أسند لوغان هارتنت وغانت برودريك سواعدهما إلى منضدة البار، ونظر كل منهما إلى الأمام، وأدار كأسه ببطء بأطراف أصابعه. لقد قلّد كلّ منهما الآخر من دون أن يدري.

رفع غانت كأسه، وارتشف النبيذ، وقال: «يا له من نبيذٍ خفيف!».

فاقترح لوغان قائلاً: «إذاً اطلب كأس جايمسون».

غانت: «أقسمت ألا أشرب الويسكي مجدداً».

فكّر لوغان في أنّه أشبه بطفل، طفل صغير بكل تأكيد، وسأله: «ألم يناسبك يا غ؟».

هزّ غانت كتفيه، وأفرغ كأسه، وسكب أخرى. مدّ الزجاجة إلى لوغان ورفع أحد حاجبيه؛ غطّى لوغان كأسه بيده برزانة. ففكّر غانت أنّه أشبه بامرأة، وقال: «كالنساء».

لوغان: «لا تكن لاذِعاً يا مارتن».

حافظَت المغنّية على نغمة صوت خفيضة راحت تتلاشى شيئاً فشيئاً؛ فبرزت الأوردة الزرقاء في عنقها النحيل، ثم توقّفت عن الغناء ونزلت عن المسرح لتستريح، رافعة فستانها الفضيّ عند الوركين لئلاّ تتعثّر بأذياله.

بالكاد تصاعد بعض التصفيق، فقد كانت الغرفة مشغولة البال: دومينيك غليسون، الصحافيّ البدين، التهم محارة من الصَدَفة المفتوحة، لكن بالكاد شعر بطعم محار البحر الحادّ، إذْ كان قلقاً في شأن اللقاء الوديّ بين هارتنت وبرودريك. قطّب بيغ دوم حاجبيه محتاراً، وعلى بعد مقعدين، شاركه حيرته إدموند لانيهان «الغجري»، قوّاد سموكتاون التقليديّ. ارتشف إد كأس نبيذ بمرارة ووضع يداً على بطنه، فالنبيذ بات في الآونة الأخيرة مزعجاً لمعدته المتقرّحة. وعلى مقعد متاخم، جلس رجل من سُلطة بوهاين، كان يرتدي بزةً صوفيةً رقيقةً رخيصة، ويلعق الملح عن كعكة، ويحاول جاهداً أن يتخفّى في ظلال حانة السابر روم.

كان الجميع يرقبون الرَجُلين الجالسين إلى البار.

وفي تلك اللحظة بالتحديد، أصيبَ غانت بنوبة اهتزاز شديدة. هل كان يضحك؟ وضع لوغان يداً أخويةً على ظهره، وكأنّه يريد تهدئته.

سرت رجفة بين الجالسين في المقاعد، وراحت السجائر تُشعل بتوتّر في أرجاء الغرفة، كلّ سيجارة تُشعَل تؤدّي إلى اشتعال الأخرى.

أخذ لوغان هارتنت منديلاً من جيبه الداخليّ لمسح دمعة كئيبة ناتجة من الحشيشة، وقال: «ذاك اليوم في آب، لم أكن متأكداً من أنّني سأعرفك من فوري».

سأله غانت: «هل أنت بالفعل تبكي؟».

لوغان: «ثمة شيء في عيني. خمس وعشرون سنةً، أنت تعرف...».

«أنت حيوان غريب يا هارتنت».

«لا يملّ الناس أبداً من قول هذا لي».

وقلّد من جديد أحدهما حركة الآخر من دون أن يدري. كان كلّ منهما متراخياً قليلاً الآن، وجلسا كئيبين، حزينيِ العينين؛ وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل في حانة تومي.

غانت: «إذا أردتَني أن أراهن، فسأقول إنّها ستعود إليك».

«إذا لم تَعُد فسوف ينتهي أمري».

«لا تقلق كثيراً. قدّمتَ إليها مسكناً لائقاً على التل، أليس كذلك؟ ولطالما كانت ساقطةً سطحيةً».

«هل ظننتَها فعلاً ستختارك يا غانت؟».

في صباح يوم من آب، في النور الرماديّ الضعيف لحانة مهجورة، في قرية تان لايت، عند سفح مرتفع نوثين، جلسا معاً. كان اللقاء حصيفاً ومؤدّباً. عرض لوغان شروطه بعناية لاختبار وفاء ماكو ولاختبار وفاء فانسي؛ كان هذا دور غانت، ومقابل تأديته إياه، مُنح حق الدخول بأمان إلى بوهاين من جديد، إلى موطنه وزمنه الضائع. استطاع أن يعود وأن يبقى. وهذا ما التمسه في الرسائل التي بعثها إلى لوغان. بصقا في كفّيهما وتصافحا قاطعين هذا العهد على أنفسهما في الغرفة الرمادية. حتى المصافحة سبّبت بعض الألم لغانت؛ فقد عاد مع جرح أخير من العالم الخارجي؛ لقد أُصيبَ في كتفه في وايتشابل.

من على بار حانة تومي، قال لوغان بإعجاب: «عندما أخبرتَها عن الاتفاق، شعرت بأنه تصرّف خبيث... أن تقلب الطاولة عليّ، وأن تجعل منّي شرّيراً في منزلي. لكن هذا سيزيد، طبعاً، من فرصك معها».

غانت: «لم أعد أريدها، حالما رأيتُها عن قرب، أفهمت؟».

«كرّر هذا على نفسك كفايةً يا مارتن، وقد تبدأ بتصديقه».

ربما كانت لا تزال هناك رغبة لدى غانت في إيذائه، ولكن هل هو قادر على ذلك؟ لم يعتقد لوغان أنه قادرٌ، بالرغم من قدر الشجاعة التي كانت غلايينه تبثّها فيه. لقد باع غانت نفسه للماضي، انتهى أمره. لكن إذا جلبت أحلام الحشيشة معها شجاعةً، فقد جلبت أيضاً حقيقةً صعبةً: عرف لوغان أن مصيره سيكون مشابهاً لمصير غانت.

احتست المغنّية كأس ويسكي بسرعة، وعادت إلى المسرح، وطقطقَت بأصابعها إيقاعاً سريعاً، وهزّت وركيها محاوِلةً إضفاء طابع مرح وإزالة التوتر. لكنّ المسنّين الذين كانوا يشعرون بالحرّ تحرّكوا بانزعاج على المقاعد، واخفضوا عيونهم الضيّقة، فتنهّدَت وعادت إلى إيقاع أغنية بطيئة، وبدأت تغنّيها، فتمايل التجّار مجدداً بتجهُّم.

جلس لوغان وغانت لبعض الوقت في سكينتهما عينها؛ كلاهما منبوذ، وهذا رابط غريب تشاركا فيه بألم عذب.

سأل غانت: «أحسبك قتلتَ الفتى الأخرق، أليس كذلك؟».

فتنهّد لوغان قائلاً: «فاكر المسكين».

غانت: «ألم تستطع إرساله إلى هاي بورين؟ كم يبلغ من العمر؟ خمس عشرة سنةً؟».

«سبع عشرة سنةً».

«بدا أصغر سنّاً».

حاك القلق شباكاً حول الغرفة. أولئك الذين أطلعوا غانت برودريك على معلومات في الشتاء والربيع، كان يخشون العواقب الآن. عرفوا أنّهم خضعوا للاختبار.

فقال لوغان: «الهمّ يشغلك يا غانت، أليس كذلك؟».

ابتسم، وهو يستدير نصف دورة على كرسيّه، ونظر بإمعان إلى رفيقه القديم، وقال: «أنت أحمق ضخم من سهل المستنقعات. حتى في طفولتك، كنت ضخماً، حتى عندما قدمت من أرض الغجر يا مارتن برودريك، حتى عندما كنت في سن الثامنة كنت تبثّ مخافة المجير في قلوب رجال بالغين. ليتك كنت ذكيّاً أيضاً لكنت استفدت من ذلك بالطبع».

ردّ غانت: «لا يفيد الدماغ كثيراً إذا أحاطت به الديدان».

«آه! ما الذي رأتهُ فيك؟».

رشف لوغان من كأسه رشفة أنيقة. تجهّم. لقد ارتفعت حرارة النبيذ في رطوبة الليل. طقطق أصابعه وأشار بها في الوقت عينه إلى المشروب؛ فأسرع تومي الساقي لجلب كأس من ويسكي جون جايمسون. أتى بكأس، وعرض أخرى على غانت؛ لكنّه رفضها.

«أخبرني المزيد عن أيامك في الخارج يا غانت، هل كانت ممتعة؟».

جمع يديه النحيلتين الطويلتين، وشبك أصابعه وسط جسمه. تجاهل غانت السؤال، وطرح سؤالاً آخر: «ما الذي تريده بالفعل يا لوغان؟».

أخذ الأمهق نفساً عميقاً مسموعاً، ولم يُبدِ أيّ شجاعة، وقال: «أريد الاستمرار لبعض الوقت بعد».

فقال غانت: «إذاً اذهب وضع وسادة فوق وجه والدتك».

«لا تُقحم والدتي في الأمر».

ابتسم غانت فقد اكتشف نقطة ضعفٍ لدى لوغان أعطته الأفضلية، وعرف أن عليه استخدامها كي يرتاح.

تمايلت المغنّية، وغنّت، ببحّة في صوتها. مرّرت أصابعها على وركيها النحيلين، فسافرت الغرفة معها إلى لحن من الزمن الضائع. وتغيّر الهواء مع تقدم ساعات الليل بتوتر.

قال غانت مضايقاً لوغان: «لو كنت مكانك، لأخذت حذري من الفتاة تشينغ».

لوغان: «كنتَ تهمس في أذنها يا غانت. كنت تشجّعها. قلتَ أموراً حسنةً عن بروز مجموعات الفتيات في الصحيفة».

غانت: «لا تحتاج هذه الفتاة إلى تشجيعي».

«وماذا عن وولفي؟».

«يواجه الفتى وولفي مشكلةً، أليس كذلك؟ إنّه مغرم».

فقال لوغان: «هذه مشكلة بالفعل».

دلاء التبريد الممتلئة بشظايا الثلج البرّاقة، حملها تومي الساقي إلى الطاولات، واستبدلها بالدلاء المستعمَلة. وتبادل نظرات ذات معنى مع التجّار؛ من يعلم المسار الغريب الذي قد تتّخذه بوهاين الآن؟

أنشدت المغنّية مرثاتها العذبة، فأثارت مشاعر التجّار البدينين على المقاعد. وأحدث الطبّال الناعس العينين إيقاعاً حزيناً بطيئاً بمضربيه.

سأل غانت: «من يسمح لمن بالعيش؟». ضحك كلاهما على السؤال.

نزل تومي الساقي تحت بُوَيب البار مجدداً، وأخذ خرقته ولمّع بها المنضدة بسرعة. جهِد ليسمع لكنّه عجز.

قال غانت: «عندما أخبرْتَني أنّها لا تزال تتكلّم عنّي وتنادي باسمي في الليل... هل تعلم أنّني كدتُ أصدّقك؟».

لوغان: «أيّها الأحمق المسكين».

بزغ الفجر على السابر روم في ضباب ليل ترايس الرطب، وسرح الطبّال المرفوع الشَعر تحت تأثير الحشيشة، وحدّق إلى مؤخرة المغنّية الرشيقة، وطاف لبعض الوقت على أنهُر القمر.

شعر دوم غليسون الجالس على مقعده بالهزيمة. فقد عجز عن سماع تفاصيل الحديث وفهمها، وفكّر: في أي حال، اللعنة على كلّ هذا، سأذهب إلى سموكتاون لمضاجعة امرأة شرسة.

حاول رجل السُلطة التفكير في التقرير الذي سيقدّمه إلى أفراد السُلطة.

وراح «الغجري» لانيهان يفكّر في أنّه رأى أشياء كثيرة غريبة في زمانه، لكنّه لم يرَ أمراً بغرابة هذا الثنائي الماثل عند البار.

استمرّ تومي الساقي في تلميع منضدة البار بجنون.

أنهى غانت ما بقي في كأسه، وقال: «سأرحل».

نهض عن كرسيّه. نعم، لا يزال ضخماً، فوقف لوغان معه بأدب. تبادلا بضع كلمات أخرى. استدار غانت لمغادرة السابر روم، ثم تردّد واستدار مجدداً نحو لوغان.

تعانقا بطريقة غريبة لوقت وجيز.

القسم الرابع

... ليلة مهرجان آب ...

خُضنا أغوار حزيران الأخضر وتموز البطيء الفاسق، ثم هبط «ضباب آب»: شارف الصيف على نهايته، وكان عالمنا كثيفاً وكثير التعقيد.

«الضباب» بحريٌّ كثيف يحطّ كل سنة على الخليقة ويكاد يخنقنا أحياءً. إنّه حدث غريب في تمركزه، لا يحلّ سوى في شبه الجزيرة هذه، على طول الساحل الغربيّ كلّه. يدعوه علماء الأرصاد الجوية، الذين حيّرهم هذا الحدث منذ وقت طويل، «ضباب بوهاين»، ويكتفون بذلك. يهبط «الضباب» كسديم لا يُخرَق، ضارب إلى الرماديّ، ويلقي بحرّ شديد على المدينة، حرّ المستنقعات.

هذا طقس مهرجان آب.

هذا بحسب التقليد زمن الخطوبة في بوهاين. وفي الأسبوع الذي يسبق يوم المهرجان، تسير كل الفتيات الشابات في موكب في الشوارع الضبابية بأكثر ملابسهنّ بريقاً وأناقةً.

تزيّنَت الفتيات بأسلوب لا تعرفه سوى فتيات بوهاين. رفعنَ شعورهنّ في أعلى رؤوسهن، وصبغنَ خِصلاً منه، ووضعن مساحيق

على وجوههنّ بالمغارف، وبرقت سُرّاتهنّ بجواهر زهيدة لمعت كأعينهنّ خبثاً وبهجةً. لحق بهنّ عن قرب كل الشبان المعجبين، بألسنتهم المتدلّية من شدّة الرغبة. غريبة هي وجوه المراهقين الهابطة بفعل الرغبة. أما الموضة الاحتفاليّة عند هؤلاء المعجبين فكانت الصدور العارية، واعتمار قبعات القشّ، والبشرة التي لوّحتها أشعّة الشمس والنمش الذي يغطّي الأنف والخدّين. كانوا يقعون في الغرام كمن يقع في هوّة.

مع تنامي زخم المهرجان، كانت إذاعة بوهاين الحرّة تبثّ من مؤخرة قارب صيد الرنكة، وتطلق موسيقى سامبا حقيقيّة نحو أرصفة الميناء، فيرقص الشبان على الأرصفة بيأس محتدم:

رقصوا رقصة تلاصق الأجساد والرقصة الثلاثية (ضرب المؤخرة بأسلوب بوهاين) والرقص النقري بطريقة سموكتاون.

جلس الآباء والأمّهات متوتّرين في الشفق، وأداروا ببطءٍ إبهاماً حول الآخر. إنه أيضاً موسم التخصيب الجماعي في بوهاين بحسب التقليد.

هل تعلمون كم واحداً منّا ولد في منتصف أيار، بعد مضاجعة في يوم المهرجان في زقاق من أزقّة باك ترايس؟ كم واحداً منّا تجرّع الحياة للمرّة الأولى تحت قمر في برج الثور؟

عدد كبير منّا بالفعل.

حضّرَت بيغ نوثين نفسها قبل أسابيع من إطلاق المهرجان الكبير.

امتلأت البُرَك الموسمية على سفوح التلال بأمطار «الضباب»، فتمدّد الشبان والشابات قرب حُفَر السباحة تلك، وتدحرجوا الواحد بين ذراعي الآخر، وهمسوا اسم يوم المهرجان الوشيك.

بالطبع، أجرت الكثيرات من بنات السهل الممتلئات الأوراك، والكثير من بنيه الضخمي الأكفال، اختبار السيطرة على أنفسهم في المهرجان. فمن الشائع أن يذهب أطفال من نوثين إلى هاي بورين لحضور المهرجان، أبرياء براءة حَمَل بثلاث قوائم، ثم يُكتشَفون بعد أسابيع، منهَكين ومدمنين في زاوية سيّئة من إحدى حانات سموكتاون. وجاهزين للانضمام إلى بيت دعارةٍ، أو ليُقتادوا إلى قفصٍ يُستعبدون فيه.

لكن لولا هذا الخطر، لما وُجدت هذه الحماسة.

انتقلَ الترقّب إلى الأراضي الزراعية الصغيرة في التلال، وإلى حقول الخشخاش الممتدّة إلى الشرق من قرية تان لايت. انظر إلى حقول الخشخاش تتموّج في حرّ آب الاستوائي، وعلى امتداد أرض الغجر. أخيراً حلّ هذا اليوم، إذ غادرت كل فدّان حجريّ من السهل نزولاً مجموعةٌ من آكلي البطاطا. وفي صباح ١٣ آب، قادت الماشيةُ مجموعاتٍ كبيرة من هؤلاء المزارعين في ظلام الفجر على طول هاي بورين. كانت معهم عجول للذبح وأحصنة مرقّطة للبيع.

«كم سعر حصانك الذهبيّ يا فتى؟».

كانت سماء يوم مهرجان العام ٢٠٥٤ رماديةً وتنذر بالسوء: سماء «الضباب» المعتادة.

تساقط المطر بقطرات كبيرة مؤذية.

اشتدّت رياح مخيفة.

وفتحَت مدينة بوهاين نفسها لجميع القادمين.

تحضّرت سموكتاون لليوم الأكثر نشاطاً في الروزنامة. في العادة يتجمّع نصف السكان عند جسر المشاة لتدخين الغليون، واحتساء الجعة الممزوجة بعصير الليمون الحامض وتناول المعكرونة الرفيعة.

أزالت الساقطات وبر أجسادهنّ بالشمع.

طُحنَ معجون رؤوس الخشخاش بمهارة في الهواوين.

قُطِعت الفليفلة الحارّة مع بذورها، ووُضعت في قدور كبيرة مملوءة بحساء سمك الإسقمريّ، ونُقلت في عربة عبر أنحاء سموكتاون، لتُقدَّم غذاءً يليق بالعمل القادم المضني.

انهمكت العاهرات المتوتّرات بحفيف أثوابهم النايلونية وتسوية رباطات أحزمتهن المشبكة، وتُهنَ في أودية عطورهنّ الرخيصة الضبابية.

يا للوحدة في كل هذا!

* * *

كان من عادة المدينة الإفراط في الشرب خلال الأسبوع الذي يسبق مهرجان آب، وكان شارع دي فاليرا صباح ١٣ آب يبدو وكأنّه قد شهد أعمال شغب.

ملأت زجاجات النبيذ الفارغة كل بواليع الطرقات، وتألّقت ماسات من الزجاج المكسور، أحجار بوهاين الكريمة، على أرصفة الشوارع. ولم تبقَ عيون في المدينة لم يتلفها السهاد. يوم المهرجان زمن مرح شديد وموسيقى عاطفية. إنّه بمثابة صمّام تنفيس مفيد جداً، لأن الفترة كانت عصيبةً في المدينة، هذه المدينة القاسية الواقعة عند شاطئ البحر.

على طول أرصفة الميناء، نُصبت ألعاب التسلية: اختُبرت مدوّمات الأراجيح، حُدّدَت حلبات معارك الكلاب ببالات تبن، ووُضع مقياس القوة الجسدية على منصّته. صُنعت مسارح مرتجَلة من براميل الجعة، ونُصبَت عوارض خشبية مع حبال سفن من أجل الملاكمة بالأيدي العارية. رُتِّبت مقاعد متدرّجة حول حلبة مباريات رعاة البقر، ونُثرت النشارة بكثافة. ومن الجدير بالذكر أن عمّال المهرجان الداكنو العيون الذين نصبوا هذه الحلبات والمسارح، ينتمون إلى العائلات عينها التي لطالما جلبَت ألعابَ التسلية إلى بوهاين. وهُم يدخّنون بكثرة. وبالطبع، وُلد الكثير منهم في شبه الجزيرة. فنحن، خارج بوهاين، من الأشخاص الذين يفرّون وراء هذه الألعاب بلمح البصر.

كان حضور خيّالة الشرطة ثقيلاً. حتى مع بزوغ الفجر، كانت عناصر الشرطة ترابض عند كل مداخل باك ترايس المؤدية من أحواض السفن. وها هم الصالحون، أعضاء أخوية سيارات إسعاف القديس يوحنا، بسُتَرهم الصغيرة! تحضّروا لنقل المصابين إلى الخِيَم الطبّية. فتحَت أمّهات باك ترايس مصاريعهنّ. ومن النوافذ العالية، عرضن صدورهنّ، توّاقات إلى أيام المهرجان العالقة في ذاكراتهنّ.

يوم المهرجان، كما نقول دائماً في بوهاين، هو يوم للشباب.

وهم ينقضّون عليه كالوثنيين.

مهرجان آب...

١٣ آب...

نتهامس عليه لأشهُر قبل موعده، ونحتاج إلى وقت مماثل لنتعافى منه مجدّداً.

داس لوغان هارتنت أجساماً خَدِرة عند واجهة بوهاين المائية. سمع صيحات المزاد عند أحواض السفن: كل تهكّمات تجارة الأحصنة وتهديداتها. فهذه التجارة هي العمل الأساسي في يوم المهرجان. رمى نظرةً على شارع دي فاليرا، وكانت نظرة الأمهق شفافةً وحادّةً في هذا الوقت وهوَ يعدّ عناصر الشرطة. توجّه إلى ترايس. كان عاري الصدر. ارتدى بنطلوناً أسود ضيّق الساقين يبلغ أعلى مؤخّرته، وانتعل حذاءَ سبانيش هارلم. ندوب صدره شحُب لونها وتجعّدت، كطيّات جلد دجاج، وكانت تذكاراً للاعتداءات التي نجا منها في زمنه. كان يضع خنجراً بقبضة من عاج في حزامه.

فيما هو ينعطف إلى ترايس، تغيّر الهواء، كما يحدث دائماً. فتساءل كم مرة في حياته تسكّع في هذه الشوارع الضيّقة الرطبة من أجل لقاء سريّ.

علقت رائحة العشب والقيء والنبيذ الرديء في الجوّ.

كل منعطف في ترايس له ذكرى. هناك ضاجع فتاةً في وضعيّة

الوقوف، وهناك طعن عدواً. دخل أحد المنعطفات، والزجاجُ المكسور على أرض الزقاق يضخّم وقع قدميه ويحوّله إلى صوت سحقٍ كئيب. في آخر الزقاق، توهّج نور أصفر داخل مقهى يفتح باكراً.

كان هناك بعض الزبائن في المقهى: فتية احتسوا الخمرة حتى وقت متأخر، وانحنوا منهكين فوق أطباق بوهاين الخاصة يتساءلون كم من الوقت سيمضي قبل أن تتنشّق رئاتهم سيجارة اليوم الأولى.

عند طاولة في الخلف، جلست جيني تشينغ ترتشف فنجاناً صغيراً من القهوة السّادة، وتدخّن سيجاراً زهيداً.

جلس لوغان قبالتها، وقال لها: «لا تخاطرين بشيءٍ يا جيني، أليس كذلك؟».

وضعت الفتاة يداً على قفصها الصدريّ، وقالت: «جسمي هيكل لعين».

فقال: «أفترض أنّك إذا لم تعتنِ بنفسك...».

فأكملت: «فلن يعتني بك أحد سيد هارتنت».

أتت النادلة، وطلب لوغان قهوةً فقط، وطَرَف بعينه لجيني التي أومأت بكآبة، وكأنّ هذا هو القرار الأفضل الذي يمكن لرجل بالغ اتّخاذه. ففي أيّ حال، فإن الصفار الصارخ لبُقَع مُحّ البيض على أطباق الطعام لن يغرِّر برجل فيستسلم للنّهم.

قالت جيني: «يمكن شراء الشرطة».

سألها: «والثمن؟».

«باهظ لعين».

«أتخيّل هذا».

«لكن، في أسوأ الأمور، ستقف الشرطة في وجه غجر الرمال».

«وتوفّر علينا مواجهتهم يا جين».

«طبعاً برينس تابي داهية. وسيبقى بعيداً عندما تصل الشرطة».

«هذا امتياز القائد».

«إن كنتَ تعتقد ذلك فليكن، يا هارتنت».

«ألم يحن الوقت لتتعلّمي مثل هذه الأمور؟».

اكفهرّ وجه جيني، وقالت: «يظنّ إد لانيهان أنّ الليلة مناسبة لنسهّل وصول وولفي إلى العين الناظرة».

«ممتاز».

احتسيا القهوة ودخّنا السجائر. كان أحدهما يحترس من الآخر؛ ولكن أحدهما كان يحبّ الآخر أيضاً. عرف أنّها كانت متيقّظة لكل ما حولها. هذا التفلّت يتعلّمونه في فترة التدريب في سموكتاون، لكنّها لم تَخُن ثقة فانسي؛ لم تُطلِع غانت على شيء.

قالت: «لم أعد أراك في ليالي هو بي».

فقال: «إنني أبقي أنفي نظيفاً، يا جيني. يجب أن أسيطر على الأمور».

«أجل، ثمة مستجدّات كثيرة في المدينة يا هارتنت».

«بالكلام عن المستجدات يا جيني، فهمتُ أنّ كل فتيات ترايس أصبحن مؤخراً بإمرتك».

قالت بكثير من البراءة، وهي تطلِق حلقة دخان: «هذا ما يُروى».

«لقد حملتِ غانت على تسميتك أمام جميع الناس كرئيسة العصابة المقبلة».

«إنّه رجل مسنّ أخرق يتفوّه بهراء، بعد أن يثمل، وليس من واجبي أنا أن أوقفه عند حدّه».

«وبالطبع والدتي العزيزة تستعمل نفوذها، أليس كذلك يا جين؟».

«أنا وغيرلي مقرّبتان».

«بل أظنّكما أكثر من مقرّبتين. أعطتني تعليمات بعدم السماح لأحد بلمسك».

«هل تريد محاولة لمسي أيّها الأمهق؟»

ابتسم وقال: «من الصعب ألاّ أحبّك يا جيني».

رمَته بنظرة جليديّة صعقَته بها لبرهة، ثم مسحَت بعينيها الزقاق المغمور بنور الصباح.

سألها: «ليس لشبان فانسي أي فرصة للتغلّب عليك، أليس كذلك يا جيني؟».

رفع لوغان القهوة إلى شفتيه وتذوّق مرارتها. على جدران المقهى عُلّقت صُوَر قديمة لوجوه من بوهاين، نظرات متصلّبة في وجوه صارمة.

نظر إليها للحظة، وقال: «هل ترين هذه العصابة؟».

عاينت جيني الصُوَر.

فأكمل: «ستلاحظين نمطاً معيّناً. هل ترين كيف يرفعون أنوفهم إلى السماء؟ إنّهم متعالون! حتى لو لم يكونوا أقوياء. نحن نوع متغطرس لعين في هذه المدينة. نظنّ أن كل شيء يسير بحسب مخطّطنا».

قال إنّ كل الوجوه القديمة اشتُهِرَت في زمنها في عالم باك ترايس. كانت ترايس عالماً ضمن عالم. وكلٌّ مِن هؤلاء الموتى تمتّع بسُلطة في العالم لفترة ما، وعُرف بخفّته في استعمال خنجره، أو بحبّه للنساء، أو بدهائه في مجال المال. جميعهم في المقبرة الآن، قال لوغان هارتنت، معلّم الواقع.

«يجب أن تتذكّري يا جيني أنّ كل ما نحاول فعله هو أن نجعل المدينة تحافظ على شيء من التحضّر».

«أفهمك يا هارتنت».

«يجب أن نُحِلّ الهدوء وندفع بتجارة سموكتاون في الاتجاه الصحيح مجدداً، ثم يمكننا أن نقرّر الخطوة التالية، أليس كذلك؟».

«أسمعك».

«أعرف أنّك تسمعينني يا جيني. أعرف هذا جيداً».

أنجلينا، الكلبة الهجينة من نوع الألزاسي القريب من الراعي الألماني، تزحف بمحاذاة الأرض في سهل بيغ نوثين، بعكس تيار نهر بوهاين المتدفّق في «ضباب آب». امتلأت مساحات هائلة من الورد البرّي على طول ضفة النهر بهبّات الرياح الشديدة وتراقصَت معها. وتمايل نبات البطباط فوق قصبه النحاسيّ الحُمرة على طول النهر الخبيث. هزّت أنجلينا عظامها لإبعاد البعوض الذي اقتات بنهم على دمها، وناحت؛ فبرزت حدّة أنيابها الصفراء.

سارت أنجلينا نحو أعلى النهر.

مرّت في طريقها إلى جانب طفل أبكم متوجّه نحو المدينة، يقود بطرف عصا زعرور تيساً جبليّاً وحشيّاً.

خرقَت عينا التيس الرماديتان الحادتان «الضباب».

رمت أنجلينا الثنائي بنظرة جائعة، لكنّها تابعت سيرها، وبقيت منخفضةً على الأرض، تبحث في كل مكان بأنفها وعينيها المبطّنتين.

توجّه الطفل الأبكم والتيس غرباً وابتعدا؛ كانا يسيران مع التيار الدافق في النهر.

في البعيد، لاحت أسطح بيوت الجروف المرتفعة عبر «الضباب».

تابع النهر حركته البطيئة عبر مساحات المدينة الخلفية ومناطقها الداخلية، تلك الأراضي الشاسعة.

ارتفع أنف الكلبة المنشغل لالتقاط طعم الملح الحاد.

وحمل اندفاع هواء المحيط معه في صباح ١٣ آب كل ألوان تيّار شمال الأطلسي.

كانت بوهاين خضراء ورماديةً وبنيّةً:

الأخضر المزرقّ بين نباتات الأشنّة والحشائش البحرية الجافة.

الرماديّ في الصوّان والبرك الصخرية البعيدة عن مرمى المدّ.

البنيّ الرطب في طحالب الدَّلسيّ ورمال المدّ.

قبل الظهر مباشرةً، تحلّق رجال مسنّون مترهّلون حول عُبوات جعة. الفطور في حانة كابريكورن، عند واجهة بوهاين البحرية. عُلّقَت جماجم ماعز من بيغ نوثين بيّض الزمن لونها خلف البار فوق الزجاجات وأكوام أكواب التنك. خلف النوافذ المغبرة، علا صراخ مهرجان آب، ودبّت حياةٌ نابضة؛ نشِطَت تجارة الأحصنة، ولمعَت ألعاب التسلية. راقب المسنّون كل هذا بتوق، وهمّ يرحبّون بالنهار بجعة راسلر، وشطائر النقانق، والذكريات التوّاقة.

كان غانت بينهم، وبما أنّه غاب لوقت طويل، أصبح هو نفسه تذكاراً قديماً من الزمن الضائع، أخذوا يحثّونه، فخضع.

سأله أحدهم: «ألا تتذكّر يا غانت؟».

أجاب: «بلى، أعتقد أنني أتذكّر».

«كنتَ لتخرج من ذلك المكان بذراع أطول من الأخرى».

«كان الوضع صعباً بالفعل. وهل كانت تلك ليالي الخميس؟».

«ليالي الثلاثاء والخميس، لكنّ ليالي الثلاثاء كانت هادئةً. لم نكن نذهب ليالي الثلاثاء إلاّ إذا كنّا قد انقطعنا منذ وقت طويل».

«صحيح، كانت ليالي الثلاثاء للفتيات القبيحات...».

وعلت القهقهات.

«وبالطبع، كنّا نضع حفنة صغيرة من الكشمش الأسود في الجعة لتخفيف مذاقها».

«مشروب قويّ جداً. لكنّه لا يقارَن بما كانوا يقدّمونه تحت في فيلثي ديك».

مكتبة t.me/ktabrwaya

صرخ أحدهم: «توقّف!».

فقال آخر: «هل تتذكّر يا غانت كيف كانت كل الحثالة تصطفّ خارج حانة ديك؟».

فأتت الإجابة: «كان كل جامحي المدينة اللعناء يذهبون إلى هناك أيام الآحاد».

فقال آخر: «إذا عدتَ إلى بيتك من هناك، وعيناك سليمتان فستفكّر أن النجاة قد كتبت لك».

«هل ديك هو من تزوّجَت ابنته رجلاً من عائلة ديلايسي؟».

«بالفعل، تزوّجت ابنته من أحد خبّازي تلك العائلة».

«أين يسكنان يا غانت؟ أعند الطرف الأعلى من ديف؟».

«تماماً. الطرف المؤدّي إلى شارع إيمون سيانت من جهة نيو تاون».

«صحيح... كانت هنالك طريق جانبية توصل إلى بيتهما، أليس كذلك؟»

«بالطبع. تطرق الباب هناك لتحصل على شريحة تفاح، عبر البوابة الصغيرة».

«يا مجيري! كانت تلك الشرائح مذهلة!».

«حقاً. كانت تلك شرائح التفاح الألذّ في هذه المدينة».

كان التفاح يُطهى منذ الصباح الباكر في القدر التي تتّسع لعشرة غالونات ماء. وكان الأب ديلايسي الضخم، المتعرّق، الذي يبدو كرجل جاهل، يقوم بتحريك كل هذا التفاح. كان يحضّر فتات الخبز المحمّص الذي ينثر على التفاح بزبدة ممتازة من بيغ نوثين. ويخبز الفتات ليصبح ذهبيّ اللون. كانت رائحة التفاح المطبوخ الحامضة تفوح في الهواء على مسافة شارعين على الأقلّ.

«عائلة ديلايسي، نعم... هل كان الفرن قرب... متجر الصائغ ألو فيناتري؟».

«ألو، المحتال الصغير».

«هذا ما كان يقال عنه. ثم ما كان المتجر المتاخم له يا غانت؟».

أجاب غانت: «ملحمة البولنديّ الباكي جيري كيتشيك».

فقال الآخر: «بالطبع. جيري المسكين!».

«ذاق هذا الرجل الأمرّين».

«دائماً مع زوجته تلك. وكان يشتهر بنقانقه السوداء».

«فعلاً. كان يلفّها بصفحات صحيفة الفينديكايتور والدم لا يزال يسيل منها».

فأضاف آخر: «يسيل!».

لا تقع بيوت دعارة بوهاين كلّها في جانب سموكتاون من جسر المشاة. فبيت «نورا العمياء» السيّئ السمعة، مثلاً، كان يجذب زبائنَه عبر طريق فرعية يصعب إيجادها في باك ترايس. وفيما كان يوم المهرجان يتّجه إلى ذروته، ثم تحوّل عند الظهر إلى صخب عظيم، توجّه أُول بوي مانيون بخطى أنيقة نحو المكان.

عند الظهر، كان جوّ من التشويش الفرح قد طغى على ترايس. لا تكاد تستطيع المشي في الأزقّة، بسبب الأعداد الكبيرة من الشبّان الذين كانوا يستندون إلى جدران المباني السكنية. مشاغبون بأجسامهم الضخمة انحدروا من منطقة التلال، وغجر مولعون بالغلايين، زحفوا من أراضيهم، ومجانين مصابون بالزهريّ، وفي عيونهم أحلام الزمن الضائع، وعاهرات مسنّات مضى الزمن عليهنّ، ولاعبو خفّة بساق واحدة (لطالما كان داء النقرس خطراً في هذه المهنة). طاف حرّاس غجر الرمال في المدينة، وعلا وجوههم خوف غريب لا يمكن تسميته. وجال شبان فانسي مبتهجين، ورؤساء الشرطة،

والمتسوّلون النوريون المشوّهو الوجوه حاملين أوعيةً خشبيةً لجمع التبرُّعات، ومجموعات ثائرة من العاهرات المراهقات، وواعظون معذّبون يتفوّهون بأجور الخطايا صُراخاً عن شرفات البيوت. قد يغرز أيّ من هؤلاء خنجراً في رئتك بلمح البصر. لكن أُول بوي مانيون كان يمشي بين كلّ هذه الحشود، بأنفه المرفوع وبلامبالاته، حتى في مشيته ووقع قدميه. يبدو وكأنه يتحلّى بمناعة قويّة من كلّ هذا الجنون، ولم يشعر بأيّ خوف.

كان أُول بوي يرتدي:

بزّة ضيقةً من ثلاث قطع بلون أخضر مرقّش كلاسيكي، وينتعل جزمة فضيّة اللون (مربّعة من الأمام)، ويعتمر قبعةً مرتفعةً رماديةً مائلةً إلى اليسار رُبط عليها وشاح ناعم قرمزيّ اللون.

أنيق، أليس كذلك؟

ارتشف أُول بوي مشروب بيست من قارورة في جيبه، وراح يدخّن غليون حشيشة بين الفينة والأخرى.

لم يكن متعالياً كما كان يبدو.

تلوّثت أزقّة ترايس بالتراب والبراز والقيء، فخطا بحذر وراقب جزمته، التي لم تكن زهيدة الثمن أبداً، لا سيّدي.

دخل طريقاً جانبيةً، ثم أخرى؛ وانعطف من جديد، وكانت ترايس تهدأ رويداً رويداً كلّما توغّل فيها، فوصل أخيراً إلى ماخور «نورا العمياء».

كان محلاً رديئاً لا يقصده سوى الزبائن اليائسين. إذا طُرِدتم من كل بيوت الدعارة الأخرى في المدينة، فسوف تجدون لَكُم فتاةً لدى نورا. حتى أنّهم سمحوا لأهل هايتي بالدخول، ولرجال مدينة تيبيراري. مرّ أُول بوي بالبوّاب، وهو قرد ضخم قبيح أبله يدخّن سيجاراً زهيداً: «كيف حالك ديمتري؟». أجفلَته رائحة المكان رغماً عنه.

كانت سيّدات مضطربات بجوارب شبكيّة مأساوية مرتميات على أرائك منخفضة. وقد أمسكنَ بغلايين ومشروبات وأيقونات المجير. ثمّة خلاسية ثملة وضعت أسطوانةً قديمةً على القرص الدوّار، ورقصَت مترنّحةً، في حين علا اللحن مشوّشاً.

اصطدمَت بأُول بوي، فقال لها بلطف: «احذري يا فتاة».

ضحكَت عاهرة تعيسة، فبرز فمها العديم الأسنان. يبدو كنفقٍ خطير. أُسدِلَت ستائر الماخور حتى على نور النهار الضبابي، وأُنير المكان بمصابيح طاولات موضوعة على أقفاص مقلوبة غُطّيت بحرير ملوّن، من أجل إضفاء جوّ على المكان. كان الحرير يحترق بحرارة المصابيح، فاختلطَت رائحة احتراقه بروائح أخرى طفَت في الهواء: الغلايين، مشروب البيست، التبغ، السائل المنويّ.

ابتسم أُول بوي لكلّ السيدات الواحدة تلو الأخرى، لكنّه لم يأتِ لتلبية حاجاته. فلو كان هذا هدفه، لما قصد بيت نورا. أتى أُول بوي ليرى المرأة بذاتها.

«أهذا أنت؟»

أجاب: «تعرفين من أنا».

كانت نورا امرأةً عمياء مسنّةً ضخمةً فائقة البياض وخِصل شَعرها سوداء جعدة كشعر الدمى. رآها رابضة على أريكة في مؤخر الغرفة تحتسي برقّة عصارة فطر مهلوسٍ من قِدْر خزفية. كانت بدينةً بشكل مذهل. ابتسمت لأُول بوي بابتهاج، وتنحّت على الأريكة بِوِرك ممتلئ أتبعته بالثاني. فاقترب وجلس إلى جانبها، ووضع يداً على ركبتها وسألها: «هل حان وقت جولة أخرى لنا يا نورا؟».

أجابت: «سينتهي يوم المهرجان بسرعة كبيرة يا سيد مانيون».

ابتسما معاً، وحافظا على صمت مريح لبعض الوقت. تلذّذا باليوم وبوقتهما معاً، ثم قال أُول بوي: «ألا تزال السيدة التي أوكلتُكِ بها مخبّأةً جيداً؟».

«نعم سيدي».

«يجب أن تبقيَها مخبّأةً جيداً اليوم يا نورا إذا استطعتِ».

فتعجّبَت قائلة: «لماذا؟»

«أحياناً، ينتابني شعور سيّئ...».

«إنّها مخبّأة جيداً سيدي».

«أين هي يا نورا؟».

«لن أخبرك حتى أنت يا سيد مانيون».

«أفترض أنّها من جهة ترايس».

«إنّها مخبّأة جيداً سيدي».

بقيا جالسين لبعض الوقت. ثم استدار مجدداً إليها، وضغط يدها وقال: «هلاّ تغنّين لي يا نورا؟».

أطلقَت ضحكةً قويةً هزّت كتفيها البدينتين. رشفَت جرعة بيست من القارورة التي قدّمها إليها. استندت إلى ظَهر الأريكة، وغمر ملامحها لطف جميل، فغنّت من قلبها:

«كنت أفكّر اليوم في تلك الأرض الجميلة...
التي سنراها عندما تغيب الشمس...».

وضعت جيني تشينغ فضّة يهوذا في أيدي رجال الشرطة. كانت الشرطة اللعينة جاهزة للقضاء على غجر الرمال، هل تفهمون؟

وحضّرَت جيني تشينغ حبيبها المتيّم وولفي ستانرز لغرز خنجر في العين الناظرة، المهووس برينس تابي، هل تسمعون؟

وأبقت جيني تشينغ مجموعة من العاهرات المراهقات المجنونات بإمرتها في بوهاين ترايس، أتفهمونني؟

كلّما أغمض لوغان عينيه كان يرى فاكر مجدداً. رأى الألم وتلوّي الخنجر في انتقاله السلس من جنب إلى جنب، ثم موت الملامح السريع. شعَر باللحظة من جديد. بميله نحو الفتى بحزن وبشعوره بجبين الفتى الميت يسقط على جبينه.

هذه جريمة القتل الأولى التي تلازمه إلى هذه الدرجة. عرف

الآن أنّها كانت خطأ. لم يرَ سوى الحاجة إلى الانتقام. لم يفكّر على المدى البعيد. لم يعتمد على الوفاء الذي يمكن أن يولّده إرجاء القتل في صفوف فانسي. لقد صدق غانت. كان عليه إرسال الأخرق إلى هاي بورين.

لوغان هارتنت هو الرجل الأكثر رزانةً في شارع دي فاليرا. مشى في مسار ذكريات وندم. تعكّر الشارع وثار واضطرب في لهب العصر؛ مهرجان آب عديم الشفقة.

أكملت «نورا العمياء» غناءها من أريكتها في بيت الدعارة الحزين:

«تلك النجوم الساطعة قد تصبح لي في ذلك اليوم المجيد
يوم يتدفّق تسبيح المجير كأمواج البحر...».

في حانة كابريكورن، وبينما كان الناس يحتشدون في الخارج عند واجهة بوهاين البحرية، وألعاب التسلية تمارس بفرح، راح المسنّون يسترجعون ذكرياتهم بتأثير الويسكي، وكان غانت قائدهم:

«هل كان مكتب الفينديكايتور بالفعل في شارع دي فاليرا آنذاك؟».

أجاب أحدهم: «نعم، كان هذا قبل وقت بيغ دوم غليسون. قبل أن يأتي دوم وينشر أخباراً عن نيو تاون».

«ليست هذه الأخبار بالشيء الجديد في بوهاين».

«بالفعل يا غانت».

«في أيّ حانة كان شبّان الفينديكايتور، عمّال المطبعة، يحتسون المشروب؟».

قال آخر: «تعني المكان؟...».

فأكمل: «هناك عند...».

فردّ الآخر: «عند...».

«عند شارع هالف مون؟».

«بالتحديد... أنت تقصد حانة لاما، أليس كذلك؟».

«كلا. أتذكّر حانة لاما، إنها حانة قذرة».

أضاف أحدهم: «قذرة، بل رائحتها كريهة».

وزاد آخر: «رائحة كريهة تُفقِد الوعي. ولكنّ هذه لم تكن حانة عمّال المطبعة... هل كوربت هي الحانة التي أفكر بها؟».

«كان رجال الشرطة يجتمعون دائماً في كوربت... وهم يحتسون الخمرة هناك، منذ وقت طويل جداً».

نعم. حانة خافتة النور، على جدرانها صُوَر لرُقَباء قدامى. كان الواشون يتسلّلون منها في وقت متأخر ناظرين يميناً ويساراً بأعينهم الخائنة. فيها صندوق موسيقى محمّل بقصائد مغنّاة إيرلندية عاطفية (موذر مكري، فور غرين فيلدز، ذو غوت بروك لوس)؛ وفي الردهة، عاهرات مُجازات منشغلات بالحشيشة والأفيون، بالإضافة إلى الدعارة.

«كانت كوربت لرجال الشرطة، أنت محقّ».

«كان عديد الشرطة أكبر آنذاك».

«بالفعل. وكانوا فاسدين بسبب نفوذهم».

«فاسدون... وهل تتذكّرون سيلي هوربورت المجنون؟».

«نعم، سيلي المسكين!».

ثم قال غانت، وهو على وشك البكاء: «مُستمنٍ يائس!».

«هل يستطيع أحد أن ينسى عندما أخرج عضوه في وسط الميدان ٩٨؟».

«عشية عيد الميلاد؟».

«أكان يستمني؟».

عشية عيد الميلاد، وسيلي المسكين المجنون، ثمل من كثرة شرب النبيذ الذي قدّمته إليه «الفرِقة التَعَبّدية»، وعضوه الطويل القبيح في يده، ممدّد في وسط الساحة، وبنطلونه عند كاحليه، ونسوة ترايس المسنّات القبيحات يرسمنَ إشارة الصليب على وجوههنّ وهن يمررن به حاملات دجاجاً منتوفاً حديثاً وأكياس كرنب تحت آباطهنّ، ويحاولنَ بلا جدوى الحفاظ على رزانتهنّ.

فقال أحد المسنّين: «كانت نهاية سيلي سيئةً. بالطبع، فقد قضوا عليه هناك».

«وكاندي، هل تذكرون كاندي؟».

«كاندي ستانرز!».

«لا أظنّ شارع ديف شهِد نشّالةً أفضل منها».

«لا أحد مثلها، لا أحد أهلٌ لربط شريط حذائها حتّى، لا قبلها ولا بعدها».

«بالطبع كانت نهايتها تعيسةً أيضاً».

«هذه هي حال باك ترايس».

«هذه باك ترايس».

سار وولفي على أسطح منازل باك ترايس بحثاً عن الهدوء. تسلّق عبر أدراج النجاة المتداعية المتعرّجة الصدئة. راح يقفز، ويكمل صعوده ممسكاً بالدرابزون بيد مرتجفة. تلاشت أصوات الأزقّة المكتظّة لتصبح همسات مشوّشة في الأسفل، وأحدث حذاؤه الضخم هديراً على الدرجات الحمراء بلون الصدأ.

كانت المباني متقاربةً جداً، حتّى أنك تستطيع عبور ترايس من دون النزول إلى الأرض. بمجرد قفزة هنا وهناك، فوق فراغات الأزقّة الخُضْر.

نظر إلى «الضباب»، وتذكّر كاندي، ونعومة لمستها. شعر بالخوف يتغلغل إلى عظامه. لم يعُد أخرق كالسابق.

فكّر وولفي في خطّتين:

سيقتل «العين الناظرة»، لأن ذاك الرجل أنزل الخزي بحبيبته، وجيني تأتي أوّلاً. ثم سينتقم لفاكر. سيدفع الأمهق الثمن.

تلمّس وولفي الخنجر على السطح، وحمله في كفّه للتحقق من ثقله وتوازنه، وأداره ونقره في الهواء والتقطه.

سيحلّ الليل سريعاً.

نورا العمياء تغنّي في الماخور:

«هل سترصّع تاجي نجوم، أيُّ نجوم
عندما تغيب الشمس في المساء...».

غادر أُول بوي مانيون ماخور نورا العمياء، وتسلّل في الأزقّة، ولاحظ أنّ المرح يزداد في ترايس مع تقدم ساعات العصر. اشترى فلافل من عربة في الميدان ٩٨. بصق اللقمة الأولى ورمى النشارة المقليّة على مالك العربة المبتور الساق، وقال: «لا أُطعِم هذا لهرّ لعين».

توجّه نحو رصيف الميناء، وشعَر بثقل على صدره. شعور غريب. إنّه الخوف. نظر في ساعته، واتّجه نحو أفنية الماشية. أصوات المزايدة المتأخرة ترتفع في يوم المهرجان كإنشاد إيقاعيّ عظيم على مسافة قريبة. وراء أفنية الماشية، التقى أُول بوي الفتى الأبكم.

كان الفتى صغيراً قذراً، من منطقة نائية في نوثين، يصل رأسه إلى ركبة جندب. وجهه متعجرف، ونظرته غريبة مبهمة تراها دائماً على وجوه بُكم سهل المستنقعات.

لطالما عُرفَت نوثين بأعداد بُكمها المرتفعة. غالباً ما ترون هؤلاء الأطفال البُكم في السهول، يهيمون في القفر ويُحدثون أشكالاً تجريديةً بشفاههم، وينتحبون بحزن في وجه الرياح الشديدة.

حدّق الأبكم إلى مانيون. كان وقحاً وعنيداً.

فسأله أُول بوي: «هل تتعمّد لفت الأنظار باستعراض القوة هذا؟ أين الحيوان؟».

هزّ الفتى الأبكم ذراعاً، ووجّه أُول بوي نحو زاوية مظلمة من سقائف الماشية. هناك، رُبط التيس الأروع على الإطلاق، وكأنه ملك.

فسأله أُول بوي: «كيف حالك؟».

حيّاه التيس بإخفاض نظره قليلاً. أهمّ ما في تيوس مهرجان آب شكلها القديم الشرس. كان ينبغي أن تتحلّى بوقار بيغ نوثين القديم.

قال أُول بوي: «لقد اخترتَ تيساً صالحاً يا صغير».

أطلق الأبكم صريراً، ونبحَت الكلاب بعيداً في ترايس بوهاين. دسّ أُول بوي يده في جيب سترته الداخليّ، وأخرج كتلةً من الحشيشة المضغوطة وقدّمها إلى الفتى؛ فتنشّقها الأبكم بنهم، وأصدر صريراً آخر.

فقال له أُول بوي: «هلاّ أخفضتّ صوتك؟».

ابتسم الطفل الأبكم. رفع أُول بوي ظاهر يده وكأنّه يريد صفعه؛ لكنّ الأبكم واجهه بوقاحة وبصق على الأرض. ثم ركع الطفل قرب التيس ووضع شفتيه الصامتتين قرب أذنها وأنّ بلطف، أنيناً غريباً جداً، أشبه بالندب، فاضطربَت نظرة التيس رداً على أنينه، وأدار رأسه لينظر إلى أُول بوي بازدراء ذكي.

قال أُول بوي: «لا أهتمّ لهراء نوثين القديم هذا». لكنّه كان متوتّراً.

نهض الأبكم بكلّ غطرسة أهل نوثين، وخرج عبر الأفنية؛ وبمشية خفيفة قفز فوق البوّابات الفولاذية. يتصرّف البُكم بتعالٍ

كبير أحياناً. أمسك أُول بوي بحبل التيس فتوتّر للمسته.

فقال له: «هيا بنا».

جرّ التيس بين السقائف متّجهاً نحو رصيف الميناء، حيث حلّ مرح المهرجان تدريجياً محل عمل النهار.

صخبَت موسيقى السامبا، واهتاجت الألعاب.

سيوضع التيس الوحشي الليلة على منصة مركّبة على ركائز طويلة، وسيُحمل في أنحاء المدينة. التيس رمز المكان وروحه. وبحسب التقليد، عندما يلاحظ أهل بوهاين مرور التيس، يرمون ببطء قضبان بندق في الهواء لإحداث موسيقى خفيضة تدخل الروح وتسكنها.

لا شكّ في أنّنا احتفظنا بطبقة رقيقةً جداً من الحضارة في بوهاين.

مع حلول المساء على المهرجان، فُتح مسار للوغان عبر الحشد الجنونيّ. أصبحَت وجوه السكارى المتشابهة رزينةً لبرهة عندما نظروا إلى القامة الطويلة الشاحبة المارّة:

الطويل خارج منطقته.

الأمهق خارج منطقته.

هارتنت... هل تفهمون؟

خرق الصراخ والأناشيد ترايس الغارقة في الليل. لم يقتصر الزنى على الظلال. قام الرجال والنساء بإذابة شفاه بعضهم بعضاً عند كل مداخل الأزقّة. تداعبوا بلا ولوج بحركات بطيئة إيقاعية على وقع

أسطوانات «تروجن» التي صدحت من الأنظمة الصوتية المثبّتة على الأسطح. استقرّ «ضباب» بوهاين في كتلة متموّجة من السحاب الهابط الراكد، عتّمت المداخل والمخارج. وسارت حشود المدينة المتعدّدة الألوان في كل الاتجاهات؛ كانت الحركة في الشارع كدحرجة واحدة عظيمة، وحُطّمَت الزجاجات، وعلت الملاحظات الساخرة المتعمّدة، وجُذِب الزبائن إلى خِيَم تدخين الأفيون، جذبهم بائعون ملتحون ملحاحون وهم يحملون مكبّرات صوتيةً مبحوحة. وصرخ النوريون المتديّنون بهَوَس ينادون المجير الحبيب، وأدّت فتيات «تين لايت إيبونيت» بعض عروض الشارع بحبال القفز، وقبّلَت الفتيات المجنونات بعضهنّ بعضاً بشراسة. وبدأ ليل ١٣ آب الصاخب يشارف على نهايته حولنا.

سُمع قرع الطبول في كل أرجاء المدينة. دفوف وطبلات صغيرة، وطبلات جانبية وساكسوفونات تينور، وطبول ضخمة، وطبول إيرلندية بإطار وأغطية سلال مهملات.

انعطف لوغان هارتنت إلى شارع دي فاليرا. ابتسم في سيره كأسقف مسنّ ساخر، وكأنّ كل ما رآه أغضبه بطرافة. لكنّه ليس رجلاً يدع روح المهرجان يسيطر عليه في العمق. هو أنحل وأرشق من هذا.

لطالما جعلَته ليلة المهرجان يشعر بحزن يمازجه توق إلى ليالٍ أخرى. فهل سيشهد ليلة مهرجان أخرى؟

في حانة كابريكورن:

قال أحدهم: «وبالطبع هناك تلال الرمال حيث كنتَ تمشي الهوينى في الأمسيات الجميلة، أليس كذلك؟ في الصيف».

أضاف آخر: «إذا كانت لديك فتاة في المدينة وطائرة ورقية تطيّرها».

«التدحرجُ على التلال ينزع الشر من قلوب الشبّان».

«من كان يعيش هناك يا غانت؟».

أجاب غانت: «حسناً...».

«لم يكن الغجر يسكنون تلال الرمال آنذاك».

«لكنّهم هناك الآن».

«في تلك الأيام، كان الغجر يلتزون حدودهم. كانوا يحضّرون مشروبهم في أرضهم المخصّصة لهم، ويربّون الكثير من الأطفال ويعزفون قليلاً على الكمان، ويتشاجرون في حفلات الزفاف. من الغريب الآن أن نرى بعضهم في سموكتاون».

«تذكرون حتماً عندما أقام أتا فولي «التركيّ» صالة البلياردو عند طرف تلال الرمال».

«التركي... أتذكّر».

«كان كل الشبان يقصدونها».

«كل الفتيات والفتيان. أمسيات الصيف والستائر مُسدَلة على الشمس. وهل تتذكّرون مسيرات الصلاة عبر سموكتاون؟ كانت كل

الأمّهات يطلقن حناجرهنّ منشدات حبّاً بالمجير».

«كنّ يؤدين طقوس عبادة».

كان الواعظون الشاحبو الوجوه، في أثوابهم الطويلة التي تغطّي كواحل أقدامهم، يهزّون المباخر فوق بلاط رصيف الميناء. والنسوة يرششنَ الماء المقدّس من زجاجات بلاستيكية معكوفة، والرياح الشديدة العشوائية تعصف بأوشحة رؤوسهنّ، وكأنّ الشيطان بذاته يطلق الرياح من نوثين.

«أتذكّر في ليل مهرجان آب كيف كنّا نحرق أغصان زعرور في النيران المضرَمة على طول رايزس...».

«... وأتذكّر كيف كنّا نجمع الحطب لنيران المهرجان ونكدّسه قبل شهر».

«كانت مجموعات الفتيان تسرق الحطب بعضها من أكوام بعض. كانت أياماً جميلة وشرسة، أتذكر؟».

«أجل، أذكر».

«كان الناس يحتشدون في الميدان ٩٨».

«كان زمناً مبهجاً يا غانت».

«هل كان الرقيب تاف مسؤولاً عن الشرطة آنذاك؟».

«إنّه من أقوى الحشرات التي زحفت إلى هذه المدينة من سهل بيغ نوثين. أين كان مسقط رأس عائلة تاف يا غانت؟».

«كانت عائلة تاف تتحدَّر من جهة جبل نوثين هذه. كان أبناؤها يعملون في سلخ الماعز».

«كان سعر جلد الماعز باهظاً آنذاك».

«نعم سعرٌ مرتفع، لكنّ كل هذا انتهى الآن».

«كلّ ذلك انتهى».

«انتهت أمور كثيرة».

«أمور كثيرة».

«نحن نشيخ».

«بالفعل».

«آه، نحن نشيخ».

«نحن نشيخ».

«آه».

نهض غانت عن كرسيّه في حانة كابريكورن، وسار متعثّراً نحو زاوية وتقيّأ.

منعطف وزاوية وانحراف، ثم زاوية ومنعطف إلى اليسار، أزقّة تؤدّي إلى أزقّة أخرى، وفي عمق ترايس بوهاين، في وسطها الذي لا يزال هادئاً، وبينما كان صخب المهرجان يتناهى من البعيد عند الأطراف، فُتح مصراعا باب شقة عالٍ، باب خشبيّ ثقيل نُقِشت عليه رسوم أرانب بريّة وعفاريت وغبار القيظ. وخرجَت منه ماكو.

كانت ماكو ترتدي:

فستاناً ضيّقًا من جلد الوشق يصل إلى الركبتين، ودثاراً من فرو ثعلب، وعلى وجهها تبرّج شعائريّ من لهب قرمزيّ يبدأ عند زاوية عينيها، وعلى شفتيها أحمر شفاه بنفسجيّ اللون.

بدأت ماكو تمشي.

منعطف وزاوية وانحراف. منعطف وزاوية، وكانت مسارات أفكارها متشابكة مثل ترايس، وغير محدَّدة مثلها. سيكون بانتظارها عند منتصف الليل في مقهى أليادوس. لكنّها لم تكن متأكّدة بعد إن كانت ستوافيه إلى هناك.

اجتمعت شخصيات بوهاين المرموقة في الساحة خارج يالا هول. حلّت لحظة تتويج التيس. اللحظة الأشهَر في سنة بوهاين. وظهرَت كل الوجوه المسنّة المعتادة: ظهر بائع الأقمشة دو برومهيد، الجرّاح فيتزسيمونز، البروتستانتيّ ألدرتون. تقدّموا كلّهم في السنّ وفي القباحة معاً. ثم استدار الجميع لحركة عند رصيف الميناء، وعلا التشجيع، في حين قاد أُول بوي مانيون تيسه المَلكيّ إلى الساحة. التقط الأحدب بالتزار ماري غرايمز اللحظة لصحيفة الفينديكايتور بسطوع من الوميض الأزرق.

زعقت طيور النورس: *مواورك!* وجاء المطر مع هبّات دافئة من بحر آب، ووقف تاجر بدين من المدينة على صندوق كي يُدَندن مجاملات الليلة:

«وكالعادة، في هذه المناسبة السعيدة، نتذكّر الذين سقطوا

وموتانا. ألسنا محظوظين ومباركين من المجير ببقائنا على قيد الحياة في مدينة بوهاين؟! أليس أمثالنا...».

زاد الاهتمام أكثر بالتيس. احتشد الجمهور حول أُول بوي، وتفحّصوه بخبرة، وأثنوا على سلوك الحيوان اللائق.

«... وهذا الحيوان المهيب أمامنا الآن قد أُخِذ، بحسب تقليد مهرجان آب العظيم، من براري الوزّال في بيغ نوثين على يد فرد من عائلة مانيون. وهنا تحت هذا الضباب المجيد، الذي هو لعنتنا وامتيازنا، فلنقُل إنّ...».

تقدَّم أربعة شبّان بدينين من شبّان المدينة، من عمّال المسلخ، في حين رُبط التيس بمنصّته فوق الركائز الطويلة. رُفع الحيوان ببطء نحو سماء الليل، فانهال تصفيق حارّ وتشجيع وصياح وهدير، وانطلق الموكب، في أبّهة القرون الوسطى، نحو شارع دي فاليرا المتعرّج.

لم يطرف التيس بعينيه قطّ.

عبَر وولفي ستانرز إلى ليل سموكتاون، والتقى «الغجري» لانيهان، وقاده مسار متشابك إلى تجاوز مركز حرّاس غجر الرمال.

جالا خلسةً في الليل، ولم يرَهما أحد.

في النهاية، بلغا ممرّاً محدّداً، وخبّأ «الغجري» الفتى بعناية في ظلّ الممر، وقال: «انتظر هنا يا وولف. فهو يأتي من المقهى إلى هنا لتنشّق الهواء، أفهمتني؟».

سأله وولفي: «هل أنت متأكد؟».

قال «الغجري»: «أنا متأكد».

تُرك وولفي وحده، فانتظر، وكان عاري الصدر وسط الظلمة الحارّة الهابطة بحريّة كمطر مختلف مُخضَرّ.

تحسّس مقبض خنجره العظميّ، ووجده ثقيلاً.

رمى الطويل نظرةً على رصيف الميناء. كان ارتجاج محرّكات الوصل صعقة ذكريات من مراهقته، ورائحة المازوت الحادّة ذكرى حادّة من الزمن الضائع. اجتمع شبان بوهاين وسط ألعاب التسلية. كانوا في أوج النشاط الجنسيّ؛ أما لوغان فكان حذراً وسط المرح.

ابتسم لأهالي المدينة القدامى. وكانت الابتسامات التي تلقّاها بالمقابل مرتجفة وممتلئة بالاحترام كالعادة، لكنّها كانت محمّلة بالعاطفة أيضاً. وكأنّ الابتسامات عنَت...

نجحنا أيّها الأمهق، شهدنا مهرجان آب من جديد.

منذ أن كان طفلاً لم يفوّت لوغان هارتنت، جولةً وسط الألعاب في ليلة مهرجان بوهاين. ولم يتغيّر مظهر المهرجان قط:

فتيان حمقى متعرّقون من أكل البطاطا، قادمون من نوثين يتوالون على ضرب لعبة قياس القوّة الجسدية.

مسنّون صينيّون يرمون أوراقاً نقديةً من فئة الخمسة شِلنات بعضهم في وجوه بعض عند حلبة قتال الكلاب.

مواجهاتٌ بين رجال سريعي الغضب من أجل الاستئثار باهتمام

t.me/ktabrwaya مكتبة

نسوة معيّنات؛ هذه التحدّيات والتهديدات التي يزعقها الشبّان هي بقِدَم الزمان في بوهاين:

قال أحدهم: «هيا!».

وردّ آخر: «فلنُنهِ هذا الشجار!».

«قلتُ هيا!».

«هيا!».

مغنّون كئيبو الأصوات يقفون على صناديق برتقال مستوردة من طنجة، ويولولون بقصائد رثاء مغنّاة. مجموعات من المؤمنين بمجيرنا الحبيب من أبراج النوريين راكعةٌ على الحجارة، فيما الأيدي متشابكة للصلاة من أجل صدّ شر حفلات سمر بوهاين. لكنّ هؤلاء المصلّين شكّلوا جزءاً من الاحتفالات تماماً كالجميع. وشعّت أنوار الألعاب ضياءً بهيجاً في وجه الظلام الذي هبط على واجهة بوهاين المائية. أدارت المدوّماتُ العشّاقَ الشباب في الهواء، فغزل صراخ الفتيات وغمر الجوّ والتفّ حول الجميع.

عزفت فرقة آلات نفخ نحاسية متجوّلة موسيقى فالس من الزمن الضائع.

وشغّل نظام صوتيّ للغجر، موضوعٌ على عربة تجرّها الجياد، أسطوانات موسيقى الروك.

صدحت مغنّية متحوّلة جنسياً بألحان أوبرالية من ميلانو من أعلى عمود لربط الحبال.

بقي طفل من نوثين، بلغ سنّ الثامنة، في حلبة مباريات رعاة

البقر، وامتطى جواداً قزماً من كونيمارا مصروعاً في الوحل، فَعَلَت صيحات تشجيع صاخبة. لهذا الطفل مستقبل باهر.

غزل صراخ الفتيات، ودار في الهواء.

علت إعلانات الرهانات، وعُدّت الأوراق النقديّة، وبُصِق في الأكُفّ. أتى آكلو نار من فارو، ومبتلعو سيوف من ساموا، ولاعبو خفّة من غالواي. قرأت جدّات غجريّات الأكُفّ والنجوم وأغاني الرياح.

قدّم الأَخَوان المختلاّن السيّئا السمعة من نجد نوثين كؤوسَ بيست ممتازةً بسعر عادل، وغضّت عناصر الشرطة الطرف، بعد أن حصلوا على صندوقَي مشروب.

جرت عمليات طعن وتحرّش ورفس بالقدمين.

نهضت مدينة بوهاين على صراخ الفتيات الغازل في الهواء.

ثم التقى لوغان الفتى كانتيلون. جلس بمفرده عند جدار الميناء. ابن بائع السمك اليتيم، وغدده المتورّمة بسخط صامت. أنارته أضواء المرح ببهرجة، ونظر إلى لوغان وكأنّه يعرفه من مكان ما، ولكن من دون أن يتمكّن من تحديد ذلك المكان تماماً.

كانت ابتسامة الفتى باهتةً وقاتلةً.

رفع لوغان حاجبه بتساؤل لطيف، لكنّه لم يحصل على إجابة. اقترب، لكنّ الفتى قفز بعيداً عن الجدار، وسار قليلاً إلى الأمام، بين حشود مرتادي الألعاب، ومشى بالتحديد كما يمشي لوغان، شابكاً يديه خلف ظهره. كان يسخر منه.

استدار الفتى كانتيلون مرةً وطَرَف بعينه، ثم اختفى في الزحمة.

قال أحد المتشاجرين: «هيا!».

وردّ آخر: «هيا، فلننتهِ من هذا الأمر!».

«قلتُ هيا!».

وعادت نورا العمياء من جديد إلى أغنيتها القديمة:

«سيزيد ذلك نعيمي حلاوةً في مدينة الذهب هذه
إذا زيّنت تاجي بعض النجوم...».

تخلّص غانت من غثيانه بالمشي؛ ولكن ليس من مرارته. قام بجولة شملت ترايس وشارع دي فاليرا، في دورة شعائرية للمدينة القديمة. وكان يتلفّت بحثاً عنها طوال الوقت. رآها تنسلّ خلف وجوه كل الفتيات الشابات المارّات، وكانت طبول مدينة بوهاين تحمل إيقاعاً ورسالةً معاً.

قد لا يتمكّن أبداً من تخطّي... ماكو... ماكو... إيماكولاتا.

غيرلي هارتنت، وفي مناسبة مهرجانها التسعين، وقفَت أمام مرآة طويلة في جناحها بفندق بوهاين آرمز. لبست جوربين عاليين وحزاماً بربطتين لرفع الجوربين، ولبست صداراً، ووضعت أحمر شفاه قرمزيّ اللون. سمحت لها الحقن الكثيرة والغامضة التركيب التي كان يحقنها بها أطبّاء صينيّون ماهرون بالبقاء واقفة. وضعت يداً هزيلةً على بطنها، وأخذت نفساً عميقاً. حدّقت إلى نفسها بغير انفعال. وعلّقت على مظهرها بوضوح وصراحة:

لم تكُن في حالة سيئة قط.

سُمع قرع محدَّد على الباب، فردّت عليه، ثم دخلَت جيني تشينغ. كانت ترتدي بزّة جلديةً ضيقةً بيضاء وحذاءً فضيّاً، فتأمّلت غيرلي هذه الملابس، وقالت: «أحسنتِ».

رفعَت جيني زجاجة نبيذ ووجدَتها فارغةً، فسكبَت لنفسها كأس ويسكي جون جايمسون من الزجاجة الموضوعة على الطاولة القريبة من السرير.

ابتلعت المشروب في جرعة واحدة، وأشعلت سيجاراً وقالت: «من سيُنبئه بالخبر؟».

ردّت غيرلي: «لا تهتمّي لهذا يا فتاة. ساعديني كي أرتدي ملابسي الآن».

فتحت جيني باباً جرّاراً في الخزانة المغطّاة بالمرايا، وأزاحت الفساتين المكدّسة الواحد تلو الآخر. يعود الكثير منها إلى الزمن الضائع.

سألت جيني: «هل قرّرتِ يا غيرلي؟».

تنهّدت غيرلي، وقالت: «بالنظر إلى حالة ساقيّ، أعتقد أن عليّ ارتداء فستان يبلغ الكاحلين. ما رأيك في الفستان ذي تخاريج فرو القاقم، الشبيه... بما كانت ترتديه لانا ترنر؟».

تناولت جيني الفستان، وفتحت سحّابه. وسألت مرشدتها بهدوء وهي تقدّم الفستان إليها: «ماذا أفعل لاحقاً يا غيرلي؟».

«كوني حاضرة ليس إلّا».

أخذت غيرلي الفستان القديم وشمّته. ثم أعادته إليها. ورفعت ذراعيها الواهنتين فوق رأسها، وقالت: «ألبسيني إياه الآن وأعلِمي السُلطات».

سار صفّ من خيّالة الشرطة على طول الرصيف، متّجهاً إلى جسر سموكتاون.

علَت تعليقات غجر الرمال الساخرة من الجهة المقابلة للنهر.

من بين ألعاب التسلية، عند رصيف الميناء، راقب لوغان وأصغى.

تريّث لبعض الوقت قرب حلبة قتال الكلاب.

طَرَف بعينه لوكيل المراهنات، وهو أفغانيّ من رايزس.

بدأ كلبا بول تيريي بالعراك، حدّبا عنقيهما الضخمتين المشدودتي العضلات، فوقف شعر العنقين، واشتبك أنفاهما، ثم انبجس الدم.

فسأل أحدهم: «أيّهما يعجبك سيد هارتنت؟».

نظر لوغان إلى الكلبين في عناية، وألقى بثقل ذقنه على باطن يده، وقال: «أفضّل المراهنة على نفسي».

زقاق عند طرف تلال سموكتاون:

طقطقة نعال على بلاط ناعم.

شابّان يدوران في حلقة، لكن ببطء.

حمل كلّ منهما خنجراً، ومشيا بحذر وبطء.

تيب تاب، تتالت طقطقةَ النعال... تيب... تاب... تيب... لكن ببطء.

سال منهما سمّ ومرارة.

مرارة الغيرة.

سمّ الخوف.

راحا يدوران في حلقة.

ثمّ اندفاع...

هجوم مخادع...

تعثّر...

استقامة.

راحا يدوران في حلقة.

اندفاع.

هجوم مخادع.

أومضت شفرتا الخنجرين، حين خرق ضوء القمر «الضباب».

راحا يدوران في حلقة.

الفتى وولفي و«العين الناظرة».

راحا يدوران في حلقة.

لا استفزازات ساخرة، لا شتائم، لا سباب.

مجرد اندفاع.

هجوم مخادع.

تعثّر.

استقامة.

راحا يدوران في حلقة.

اندفعا.

مزّق نصلاهما الهواءَ.

يحلّ دائماً في ليلة مهرجان آب وقتٌ يسيطر فيه الشر.

دقّت الساعة التاسعة خارج يالا هول، ثم العاشرة، ثم الحادية عشرة، وخرق الشرّ الهواءَ. كان الصوت مرتفعاً وبغيضاً كصراخ القتل الذي تطلقه طيور النورس.

تحمَّض فائض النبيذ في البطون.

أصبحت رائحة الحشيشة أكثر حدّة.

وتَرت الغلايينُ مدخّنيها أكثر ممّا أرختهم.

وتكوّرت مقابض كل الشبان لتصبح عُقداً مشدودة، وشجّعَتهم النسوة...

«هل ستقبلون هذا؟».

... اندلعت اشتباكات في كل أنحاء الأزقّة، وعند الواجهة المائية، وعلى طول شارع دي فاليرا المتعرّج، وعلى جانبيْ جسر المشاة.

فرّ المحترمون والجبناء عبر طُرق الهروب التي وفّرَتها شوارع نيو تاون.

وتكدّس ما تبقّى منّا كالمتوحشين.

كان من المقرّر أن يتّخذ الشرّ هذه السنة أسلوباً محدّداً. كان الشغب في سموكتاون منسّقاً.

جاء الفَوَران سريعاً.

حصل بيغ دوم غليسون وأُول بوي مانيون على موقع ممتاز لمشاهدة أعمال الشغب من المغطس الساخن على سطح ماخور إد لانيهان 'الغجري'.

هناك زجاجات بيست في متناولهما، وغليونا الحشيشة أيضاً، وعدد من العاهرات متأهّبات على مقربة منهما.

تحوّل الوضع بسرعة إلى حمّام دم، فتنهّد الرَجُلان يأساً وسعادةً في الوقت عينه.

في الشارع الرئيسي، واجه صفّ من غجر الرمال هجوماً كبيراً من خيّالة الشرطة.

جهدَت خيالة الشرطة للوصول إلى طرف تلال رمال سموكتاون، لاقتحام المخيّم، لكنّ الغجر قاوموا بشدة.

استبدل معربدو سموكتاون العنف بمرحهم، وانضمّ مشاركون عشوائيون إلى المواجهة بين الشرطة وغجر الرمال مع تقدم الليل. قُلِعَت الأعيُن، وعُضَّت الآذان، وانتُزعت، وشُقّت الأفواه.

فقال أُول بوي: «هل من الغريب حقّاً أن يكون لهذا المكان هذه السمعة السيّئة؟».

نعم، وألقَت الرياح الشديدة خطابات في ليل آب. أتت من التلال مجموعات دعم كبيرة جديدة من غجر الرمال، وسقط أفرادها قرب أشقّائهم. كانوا يرتدون جلود الأرانب البريّة، وقد وشموا أنفسهم بحديد ساخن من كور الحِدادة. حُفِرَت رموز تجريدية من ديانة غجر الرمال على كل صدر. راحوا يلوّحون بخناجر وعتلات. ثم مشت مجموعة كبيرة من أفراد الشرطة بتثاقل على جسر مشاة سموكتاون؛ ولوحِظ أنّهم كانوا يسرفون في شرب الويسكي والنبيذ من عبوات محمولة، ويرتشفون القليل من مشروب البيست، ويردّدون الأناشيد الشعائرية لأخويةِ الشرطة. توجّهوا بسرعة نحو غجر الرمال الذين ضاهوهم عدداً واضطراباً.

فقال أُول بوي: «سأقول لك شيئاً. سوف يدوم حمّام الدم هذا لبعض الوقت بعد».

في هذا الوقت، كان بيغ دوم قد أجلس فتاةً في حضنه، وراح يسرّح شعرها بلطف فائق بفرشاة مرصّعة باللآلئ، وغطّت غشاوة رومنسية أحدثتها الحشيشة عينَي الفتاة.

فقال بيغ دوم: «سيتكبّد الفريقان خسائر كبيرةً سيد مانيون».

أجاب أُول بوي: «تماماً كما خطّط هارتنت».

رآها غانت تعبر الميدان ٩٨.

لحق بها.

انعطفت عند زقاق وعند آخر، ونظرت خلفها، ورأت أنّه هو من يلاحقها، لكنّها لم تتوقّف.

فناداها: «ماكو!».

شاهدها ترحل. سمح لها أن تختفي في ظلام منعطف مفاجئ. فهمس قائلاً: «لا تعودي إليه أبداً».

«سيزيد نعيمي حلاوةً في مدينة الذهب هذه
إذا رصّعت تاجي بعض النجوم...».

كانت رحلة موت برينس تابي العين الناظرة سَفَراً جميلاً. أبحر فوق السحاب وعبر أراضي التلال الرملية، وعُرض المشهد الرائع أمامه من جديد.

هذا مكان رياح ومطر وتفجّر نجميّ عنيف، حيث يتغيّر اتجاه النور دائماً ويتبدّل باستمرار. رأى امتداد سهل المستنقعات الفسيح، ومصابيح مدينة بوهاين أيضاً تحترق على خلفية ليل مهرجان آب.

جلس وولفي ستانرز على الدرجات الصخرية المحفورة في جدار النهر، وضغط بيديه بقوّة جرحاً في بطنه، وأغمض عينيه فتصبّب

عرق الحمّى من جبينه، في حين كان شغب سموكتاون يستعر على مقربة منه.

سمع اندفاع بوهاين الداكن الشرير يناديه.

* * *

فتح بيغ دوم زجاجة بيست جديدةً، وأشعل سيجاراً من حشيشة بيغ نوثين الممتازة المحضَّرة في أرض الغجر.

أغمض عينيه نصف إغماضة، للتركيز في تقدّم الشغب:

أضعفَ هجومُ غجر الرمال ذراع القانون؛ وأوهن تصميمُ الشرطة شراسةَ الغجر.

ضعُفَت أرواح كثيرة بالطبع؛ لكن كلّما توقّفت أعضاء هؤلاء الحيوية وجدتهم عادوا إلى الحياة، تحت أراضي سهل مستنقعات نوثين الشاسع، وتحت الأرض الرطبة، وفي قنوات بنية بوهاين التحتية وأنفاقها. هناك حيث يُحدث السرخس الغريب حفيفاً، وتطوف الكلاب السوداء.

آه بالفعل.

وفي هذا الوقت:

أومأ أُول بوي مانيون برأسه مشيراً إلى جسر مشاة سموكتاون وقال: «هل ترى؟».

نظر بيغ دوم، وقال: «الفتاة القاتلة».

راقبَت جيني تشينغ أعمال الشغب بهدوء عن قنطرة جسر المشاة العالية، وأطلقَت حلقات دخان من شفتيها البارزتين.

عرف لوغان أنّ الفتى يدور ليتعقّبه.

شعر بحركة خلفه على رصيف الميناء.

تنهّد في ألم مديد.

استدار نحو الحظائر، وانزلق إلى الظلال لينتظر.

ظهَر الفتى كانتيلون.

خرج لوغان، من دون ضجة. وبسرعة ابن عرسٍ، شبك عنق الفتى بساعده، وأخذ من حزام الفتى خنجره وطعنه فيً قلبه وهمس له كلمات يتعذّر تكرارها، في حين كانت حياته الشابّة تتلاشى.

شعر بطرف تلك الحياة يميل نحو الظلمة؛ لكنّه لم يتلذّذ بهذه اللحظة.

ترك الفتى كانتيلون يسقط أرضاً، ووقف للحظة يتأمّل غير مصدّق، هناك في الحظائر الكريهة، الحماقة الكبيرة في ملامح الشاب الميت المتجمّدة.

لا يلوّث الطويل خنجره الفاخر بدم تافه كهذا.

تابع طريقه. بدأ لوغان يشعر الآن بالإعياء. عرف أنّ نسله سينتهي قريباً بما فيه الكفاية، ومعه شهرته. لقد اختير مَن سيخلفه مِن دون استشارته، عندما كان تحت تأثير الحشيشة في شهر نيسان. ربما كان كل ما تبقّى هو عزاء لمسة ماكو.

توجّه نحو مقهى أليادوس.

سأل دوم: «كيف سينتهي الوضع في رأيك سيد مانيون؟».

أجاب أُول بوي: «لن ينتهي بشكل جيّد يا دوم».

في ماخور نورا العمياء الرديء، وضع غانت أسطوانةً قديمة بقطر سبع بوصات على القرص الدوّار. وعندما سمع النغمة شعر بها في أخمص قدميه، فرقص بمفرده في البقعة المخصصة للرقص، فابتسمت العاهرات العديمات الأسنان الجالسات على أرائك رثّة قديمة، وغنّينَ مع الأغنية بأصوات خشنة. صفّقت نورا مرافقة اللحن ورقص غانت ببطء، وكان سلوكه هادئاً وفخوراً ومتّزناً.

كانت النادلة وحدها في مقهى أليادوس، ولوغان جالس ينتظر على كرسيّ مرتفع.

ارتشف كأس جون جايمسون.

وعندما قارب الوقت منتصف الليل، نهض عن كرسيّه، وتوجّه نحو صندوق الموسيقى، واختار نغمة كاليبسو بطيئةً من الزمن الضائع.

هي تعرف هذه الأغنية.

عاد إلى البار، فيما بدأت الموسيقى القديمة تصدح، وسرّح شعره بيد مترددة.

عند منتصف الليل بالتحديد، في ليلة مهرجان آب هذه، اهتزّت الأزهار الصفراء الموضوعة في زهرية على منضدة أليادوس حين فُتح

الباب الجانبيّ، وعادت الأزهار إلى جمودها عندما أقفِل الباب، فاستدار على كرسيّه بصمت.

قالت: «حسناً».

تسعون مهرجان من مهرجانات بوهاين نُقشت في تجاعيد وجهها القاسية، فخضع لها مباشرةً وقال: غيرلي.

شاخ الليل، وهدأت أرجاء المدينة، وجذبت الرغبة المضطرمة الشبان إلى النهر. انعكس بريق القمر الساحر على صفحته، ورحنا نرتعش بنبض آب في بوهاين.

على طول رصيف الميناء، على الدرجات الصخرية في جدار النهر، استرخى الشبان أزواجاً أزواجاً وتعانقوا. رسمَت شفاههم كلمات ووعوداً وحبّاً. وحمل هواء النهر كلماتهم لتمتزج بهمسات موتى النهر. برز صوت واحد من هذا المزيج. صوت يشبه الصمت بطرائق غامضة. فقد صدّ كل الأصوات الأخرى وسحر الجميع.

هبّت الوصمة من الماء كسديم لذيذ.

تسلّلت سحليّة خضراء في شقّ بين الدرجات، وتسلّقت كتلةً لحميّةً، واقتاتت بالدم الذي تخثّر حول جرح في بطن فتى ميت له نظرة طائر أسود.

اشتدّت الرياح، وأزاحت طبقة السحاب. فظهرت أسطح البيوت عبر «الضباب». عاد شكلُ المدينة ليظهر من جديد. وبدا نور مصابيح المدينة طافياً على الماء. تحرّك الماء على العشب البحريّ الأخضر.

وعلى حجارة جدار النهر. أصغينا بطرب، في حين كانت المياه في مدينة بوهاين، تجري، وتتدفّق نحو البحر الخفيّ المتخبّط على حبال مراسيه.

شارف الصيف على نهايته؛ قريباً سنواجه ما قد يجلبه الخريف، وما قد يأتي به الشتاء. لكنّ المدينة رَضِيَت في هذه الليلة الواحدة أن يبطئ الوقت، لفترة على الأقل، وأرسلَت شبّانها إلى النهر.

حلّ النور بأول آلامه:

امتطت جيني تشينغ حصاناً ذهبياً بلا سرج من بيغ نوثين، وخيّلت به على طول واجهة بوهاين المائية.

على جانبَي حصانها، الذي تحرّكت خاصرتاه بسلاسة وبطء في الفجر البرتقاليّ اللون، مشت ستّ فتيات مسعورات في مواكبة احتفاليّة. كنّ يضعنَ أحزمة خناجر مائلةً، وينتعلنَ أحذيةً للدفاع عن النفس، ويرتدين سُتَراً من الفينيل الأبيض بسحّابات أماميّة طويلة، وبنطلونات رياضيةً قصيرةً سوداء من نسيج الساتان. وكانت طيور النورس المحليّة في الصباح الباكر صاخبةً فوق النهر.

نزل طائر نورس مجنون نحو جيني تشينغ القاتلة، لكنّها رفعت نظرها، وتفرّست فيه بالجنون عينه طالبةً تفسيراً، فانحرف الطائر واستدار واندفع مع تيار النهر.

فصاحت جيني به ساخرةً: «*مواورك!*»

وضحكَت الفتيات جميعهنّ.

تقدّم الموكب، وجثمَت الكلاب المقيّدة في أفنية التجّار على طول الواجهة المائية وجلاً، في ظلال الصباح الباردة، وارتجفَت خواصرها النحيلة رعباً.

علقَتْ في الهواء الشاحب أصوات صهيل وتضرّعات، وكلاب. وتذوّقت جيني حياتها الجديدة للمرّة الأولى.

وقتها، كانت تمتطي حصانها على إيقاع ارتقائها الموزون، وبقليل من الخوف أيضاً. هل فهمتموني؟

وقتها راحت تبحث في عيون أتباعها عن ذاك البريق الأصفر، بريق الطموح الشاحب.

وقتها كانت ترى في السماء المنقشعة وميضَ الزمن الضائع يتلاشى ويختفي ببطء.

مكتبة t.me/ktabrwaya

كيڤن باري

كاتب إيرلندي من مواليد العام ١٩٦٩. له مجموعتان قصصيتان نال عنهما جوائز مرموقة. «مدينة بوهاين» روايته الأولى، وقد حاز عنها جائزة دبلن الأدبيّة العالمية عام ٢٠١٣، وجائزة نادي الكتّاب عام ٢٠١٢، لأفضل رواية أولى وسواهما. كما بلغت القائمة القصيرة لجائزة الكوستا الأدبية. نُشرت قصصه كمختارات أدبية في النيويوركر. وهذه روايته الأولى التي تبشّر «بكاتبٍ رائع» (الغارديان).

الرواية التي تفوّق مؤلفها على هاروكي موراكامي وميشال هولبيك منتزعاً جائزة دبلن العالمية

أربعون عاماً في المستقبل.. مدينة «بوهاين» العظيمة آيلة إلى السقوط بفعل ارتكاب المعاصي وتفشّي الرذيلة والانقسام القبلي والعائلي.

الزمان: عام ٢٠٥٣؛ لكنّ لا شرائع ولا مظاهر تكنولوجية.. قطار وحيد ليس سواه واسطة نقل. وموسيقا تُبثُّ عبر مذياع قديم.

والمكان: مدينة بوهاين الخيالية، حيث الكثير من الشرّ والشوارع الخلفية. مدينةٌ تُنسيك نفسك، «قد لا تكون ملائمةً لك لتعيش فيها، لكنك ستستمتع بالقراءة عنها بلا شك» (حكّام جائزة دبلن الأدبية المرموقة).

لوغان هارتنت الذي أحكم قبضته على بوهاين، وظلّ يأتمر بما تمليه أمّه التسعينية المتصابية وزوجته الفاتنة، ويواجه رجاله الموثوقين الذين بدأت طموحاتهم تتسع!!

وغانت خصمه القديم العائد إلى المدينة بعد ٢٥ عاماً بحثاً عن امرأة أحبها، وسعياً إلى انتقام..

حب قديم يستعر، وخيانات، وقتل واقتتال، وانقسامات، ورسائل تصل متأخرة..

رواية أماكنها مختلقة، لكنّ أحداثها واقعية، تجمع بين تأثيرات الفيلم السينمائي والحكاية المصوّرة، تمضي على إيقاع كاليبسو، ووقع طروادة، لتلامس الأسطورة السلتيّة، بمناخ ملحمي يعكس عظمة الأدب الإيرلندي في عمل خيالي، هو في الوقت نفسه حقيقي بقدر عالم «ماكوندو» لغابرييل غارسيا ماركيز و«يوكناباتوفا» لوليام فولكنر. قال الكاتب الاسكتلندي إيرفين ويلش إنّها «الرواية الأعظم منذ رواية 'عوليس' لجيمس جويس».

t.me/ktabrwaya

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ٩٦١١١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٩٦١١١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر